«رحلة فى زمان القاهرة»

عرفه عبده علي

تقديم / د. أيمن فؤاد سيد
دكتوراه الدولة فى الآداب - جامعة السوربون

الناشر

مكتبة مدبولى

تنفيذ فنى : سعيد أبو مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

شغلت القاهرة منذ أنشأها «جوهر الصقلى» منذ أكثر من ألف عام فى سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٩م اهتمام أهلها والمترددين عليها. فقد كان لطبيعة نشأتها كمدينة محصنة لحماية البيت الفاطمى وكمركز للدعوة الاسماعيلية، وكعاصمة للامبراطورية العالمية التى حلم الفاطميون بتكوينها.. ليحكموا منها العالم الإسلامى المعاصر، تأثيراً كبيراً لدى الرحالة المسلمين المشارقة والمغاربة.. من المقدسى وابن حوقل إلى ابن جبير وعبد اللطيف البغدادى مروراً بناصر خسرو وأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الاندلسى.

كذلك فإن طبيعة تخطيطها وتقسيمها إلى حارات، وإحتلال القصر الفاطمى قلب هذه المدينة إلى جانب جامع القاهرة الذى عرف فيما بعد بالجامع الأزهر، وما أدخله الفاطميون على المدينة وظواهرها من معالم لم تكن معروفة قبلهم مثل المشاهد والأضرحة الكثيرة الخاصة بآل البيت، والعلاقة بين القاهرة كمدينة ملكية خاصة، والفسطاط العاصمة القديمة كمدينة للعامة والنشاط التجارى والاقتصادى.. كل ذلك أثار عقول الرحالة الذين زاروا المدينتين وقدموا لنا أوصافا فى غاية الدقة عن طبيعة الحياة فيهما. والمعالم المتميزة التى شيدها الفاطميون بها وبحى المشاهد الذى نشأ بين القاهرة والفسطاط أوائل القرن السادس / الثانى عشر وضم أضرحة بعض آل البيت، وكذلك حى القرافة الذى أصبح يكون مع القاهرة والفسطاط والجزيرة - المدينة الكبرى - فى أواسط القرن الخامس / الحادى عشر كما يروى لنا على بن رضوان الطبيب.

وقد بدأ شئ من التغيير يطرأ على شكل المدينتين فى أواسط القرن السادس / الثانى عشر بعد حريق الفسطاط الشهير، ومحاصرة الفرنج للعاصمة واستنجاد وزراء الفاطميين بحكام الشام لإغاثتهم، الأمر الذى أدى إلى سقوط الفاطميين ووصول الأيوبيين إلى مصر، وخلق وضعا جديدا، فتحت فيه القاهرة أبوابها أمام هروب أهل الفسطاط بعد حريق مدينتهم، وتحول الأيوبيون من القصر الفاطمى إلى مقر جديد شيدوه خارج المدينة على الهضبة المتقدمة من سطح المقطم هو قلعة الجبل، التى أضحت منذ هذا التاريخ - المقر الرسمى - لحكام وسلاطين مصر حتى منتصف القرن التاسع عشر.

وفى عصر المماليك شهدت القاهرة نمواً واتساعاً كبيراً جهة الجنوب والغرب وفى

المنطقة الواقعة خارج أبواب المدينة الشمالية المعروفة بالحسينية والريدانية. وأقيم فى الضاحية الجنوبية للمدينة خارج باب زويلة، العديد من المساجد والحدائق والحمامات، واتصل هذا الحى جنوبا بشمال الفسطاط، كما نمى الحى الواقع على الجانب الشرقى للخليج بوضوح فى أواخر عصر المماليك.

وخلال هذا التاريخ الطويل، ظلت القاهرة الفاطمية التى يحدها السور الفاطمى هى المركز الاقتصادى والاجتماعى للمدينة الكبرى، وفقدت الفسطاط الكثير من نشاطها الاقتصادى، حتى زال دورها فى نهاية القرن التاسع / القرن الخامس عشر، بعد أن أدى انحسار النيل غربا إلى ظهور ميناء جديد فى الشمال، فى موضع بولاق الحالية، حل تدريجيا محل الفسطاط. وقد أدى تزايد النشاط الحرفى والاقتصادى فى قلب القاهرة الفاطمية والنمو التدريجى للسكان، إلى انتقال الأحياء الارستقراطية إلى شواطئ بركة الفيل ثم إلى البر الغربى للخليج حول بركة الأزبكية.

وقد شهدت القاهرة فى تاريخها الممتد عبر عشرة قرون، العديد من الأزمات الاقتصادية وفترات الأوبئة والمجاعات التى أتى على وصفها العديد من الرحالة.

وإلى جانب مشاهدات الرحالة والجغرافيين المسلمين ومؤلفى الخطط المصرية، عرف الرحالة الأوربيون طريقهم إلى مصر، ابتداء من القرن الرابع عشر، وقدموا لنا أوصافا غنية للقاهرة وأحيائها وسكانها وعاداتهم، بلغت ذروتها مع «وصف مصر» الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية فى مطلع القرن التاسع عشر، كما شهد هذا القرن كذلك سلسلة من الكتب المزودة باللوحات التى تصور لنا الكثير من معالم القاهرة وأسواقها وأزياء أهلها، مما يعطينا صورة واضحة عن كثير من المعالم التى فقدت آثارها اليوم، والاتفاق الكامل بين هذه اللوحات وما تبقى من تلك المعالم يجعلنا نثق فيها ثقة كاملة.

وقد طوف بنا مؤلف هذا الكتاب بين شتى كتب الرحالة المسلمين ومؤلفى الخطط، والرحالة الأوربيين.. وقدم لنا صورة واضحة لتطور مدينة القاهرة من خلال أوصافهم وتنوع اهتماماتهم بأسلوب جذل وعرض شيق.

ومؤلف هذا الكتاب الأستاذ «عرفه عبده على».. من الشباب النابه الواسع الاطلاع المتعدد الاهتمامات، وقد أثار الانتباه فى الفترة الأخيرة بما كتبه من دراسات ومقالات تناولت قضايا حيوية هامة مثل: التغلغل الثقافى الأمريكى الاسرائيلى فى المجتمع المصرى وقضايا التطبيع وظاهرة الأبحاث المشتركة وخطورتها على الأمن القومى المصرى وتاريخ اليهود فى مصر.. نشرها فى عدد من الصحف والمجلات المصرية

والعربية، كان آخرها حلقات نشرت بجريدة «الوطن» الكويتية بعنوان: «قبل أن تفكر مصر بعقل صهيونى أمريكى» وقد أعدها فى كتاب تحت عنوان: «تهويد عقل مصر»، وهو بسبيله الآن إلى إنجاز دراسة وثائقية مصورة فى كتاب بعنوان «أوراق من ملف: يهود مصر فى العصر الحديث»..

ومما لاشك فيه أن القاهرة كإحدى مراكز الإشعاع الفكرى والحضارى للمسلمين، وبسحرها الأسر وجاذبيتها الأخاذة كانت فردوس المصورين الفوتوغرافيين، حيث انبسطت أمام أنظارهم موضوعات يمكن أن تشغل أكاديمية فنون بأسرها.. حرص المؤلف على أن يضمن كتابه مجموعة نادرة منها تبعث القاهرة القديمة حيّة فى خيالنا!

وهذا الكتاب إضافة جديدة فى تاريخ القاهرة وقيمها الجمالية وحياتها الاجتماعية من خلال عيون الرحالة العابرين بها.. ومتعة وجدانية لقراء التاريخ وعاشقى الأدب والفن.

د. أيمن فؤاد سيد

القاهرة الواثقة بتأثير سحرها

لقاهرة الشرق.. شخصيتها وعبقريتها الخاصة.. وعالمها المتوهج بإيقاعاته المتداخلة.. الذى يستأثر بمخيلتى واهتمامى، فينقلنى من جهامة الواقع إلى رحابة التاريخ.. أقلب صفحات مشرقة لماضى عريق.. مداعباً تفاصيل هذا العالم المتوهج.. عالماً ثريًا بالمساجد والكنائس والبيوت والأشخاص..

أحمل عالم القاهرة كله بداخلى، وأطوف خلال معالمها.. فتمنحنى إيحاءً قويًا بأنها مدينة ذات حيوية خاصة وقدرة على الاستمرار، برغم الفقر المدقع فى كثير من أحيائها والتفاوت الطبقى المخيف، فقد نجحت فى أن تنسج بين الناس والأماكن والزحام والأشياء ألفة التعايش!

أتأمل المشهد تلو الآخر، محاولا التقاط ألوانه المتعددة وظلاله المتباينة، فتتشكل أمامى لوحة متناسقة.. أو متنافرة! تنوع خصيب فى الطرز المعمارية، وكل منها يوحى بأسلوب للحياة.. شوارع ضيقة وشوارع تمتد وكأنها بلا حدود.. أسواق يشيع فيها رونق لا ضابط له ولا قيود.. واجهات الحوانيت.. وجوه الناس.. صخب الزحام.. نماذج الألوان.. بوابات حجرية ضخمة.. مآذن تستطيل فى شموخ وكبرياء.. وترنيمات بديعة الإيقاع تتوالى من كل مكان، فيسكن الضجيج للحظات، وتنساب

الخشية إلى القلوب وتتسامى النفس إلى فيض من الورع.. أشجار تتمايل تحت سماء صافية، فى تكاسل كأنها - غيد حسان - يدعوهن النعاس إلى فراشهن الحريرى!

أسرح طرفى عجبًا وأتحسس بنظرات رفيقة.. أحجار المآذن والقباب والعقود والأبراج.. والوكالات.. الخانقات.. الأسبلة.. الحمامات والقصور..لعلها تجلو لى سرًا من أسرار القاهرة، لا يزال ماء الذهب يسطع ببهجة أيامه الغابره.. وتمضى المشاهد كأنها الرؤى.. فيأخذنى إنطباع سحرى، يوحى إلىّ بما كان عليه الحال فى سالف الزمان، وبأن: «ألف ليلة وليلة» كانت حقيقة لا جدال فيها!

ذلك عالم القاهرة.. الذى حرك فى نفسى الرغبة فى التعرف على ما كتبه عنها رحالة عرب وأوربيين، فعمدت إلى تسجيل مشاهدات وانطباعات متنوعة لبعض هؤلاء، لتشكل فى النهاية معرضا للقاهرة فى مختلف عصورها. ووثائق لها قيمتها، ليس فقط فى التعرف على خطط القاهرة وتطورها فى تلك العصور، بل ألقيت أيضا الضوء على ملامح الطابع الخاص لمجتمع القاهرة، وأكدت حقيقة هامة تتمثل فى وجود قدر كبير مشترك من الأوضاع الاجتماعية ظل سائدا فى المجتمع القاهرى طوال العصور الوسطى، ومازال يلقى ببعض ظلاله فى حياتنا اليوم..

نفثت القاهرة سحرها إلى الرحالة والمؤرخين المسلمين، فأفاضوا فى وصف عظمتها وبهائها، وعمدوا إلى استقصاء خططها وآثارها وتفاصيل حياتها.. وقد تضمنت كتابات البعض منهم، القواعد المنهجية المتعارف عليها اليوم فى الدراسات الاثنوجرافية.. خاصة.. السعودى وابن جبير وابن بطوطة وعبد اللطيف البغدادى والحسن الوزان.

والمفهوم الاثنوجرافى الذى بدأ ينمو كعلم، هو ما يعنى بالدراسة الوصفية لأساليب الحياة ومجموعة العادات والتقاليد والقيم والفنون والمأثورات، خلال فترات زمنية محددة أو بتعبير آخر: الوصف الدقيق والمترابط لطبيعة وثقافات مجتمع ما، وهو ما ميز كتابات الرحالة الأوربيين بدءًا من القرن الرابع عشر الميلادى، والذى شهد تحولا جذريا فى طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب..

ومن الأهمية أن نشير إلى أن النصف الثانى من القرن الثامن عشر، قد شهد نوعية جديدة من الرحالة الذين تولت نفقات رحلاتهم جمعيات وهيئات علمية وشركات عالمية، بما يعكس تطورا فى اتجاهات وأهداف الرحلات العلمية، بلغ ذروته فى الحركة

النشطة للاستشراق، والدراسات المستفيضة التى تمخضت عنها، وتميزت بمنهج عقلانى بعيد كل البعد عن خيالات بعض الرحالة الأدباء!

وقد خلف لنا هؤلاء الرحالة الأوربيين عن القاهرة فى مختلف عصورها وأطوارها أصدق الصور وأبدعها. وكان أبرزهم «إدوارد لين» الذى يعد كتابه القيم: «المصريون المحدثون.. شمائلهم وعاداتهم» ذروة إتجاه يهدف إلى تصوير الحياة المصرية الواقعية المعاصرة وإبراز جوانبها الإنسانية، حتى قال عنه «دافيد إدكرت»: «لا يستطيع رحالة أوربى أن يتوجه إلى مصر - بعد صدور هذا الكتاب - دون أن يكون على معرفة تامة بأنه يفد إلى مجتمع له دستوره الواضح المعالم للعادات والأخلاق وآداب اللياقة».

ومن هؤلاء الرحالة، من أسرته رؤى القاهرة بين ثنايا كتاب ألف ليلة وليلة، فشد إليها الرحال ودون ملاحظاته بأسلوب الكاتب الحالم وبريشة المصور البارع، فكانت مزيجاً من الثقافة الرفيعة والمغامرات الممتعة! مثل «جيرار دى نرڤال».. الذى عبر عن أسفه البالغ حين رأى ملامح الحضارة الأوربية، تطغى على قاهرة الماضى العريق..

ومنهم من إنقضت أيامه الأولى بالقاهرة وكأنه فى «قبضة شيطان» ! تحاصره الألوان الصارخة.. ضجيج الزحام.. صلصلة أجراس الجمال والخيل والحمير.. والمشاهد الشعبية اللاذعة فى الطرقات وعلى المقاهى.. ثم أبدع فى وصف القاهرة الغارقة فى ضوء القمر الفضى، ووقفته أمام الأهرام وقد تملكته الدهشة والإعجاب أمام هذه الروعة المذهلة!.. ذلك.. «جوستاف فلوبير»..

ومنهم «چان چاك أمبير» الذى إجتذبته الصورة التى رأى عليها القاهرة، حتى خيل إليه أنه يُعيد من الواقع الحىّ.. قراءة ألف ليلة وليلة!

ولقد إجتازت القاهرة غمار الخطوب والمحن التى توالت عليها منذ الغزو العثمانى، لتستقبل فى عهد الخديو إسماعيل، حياة جديدة من العظمة والبهاء، إذ تملكته رغبة جارفة فى أن يشهد ملوك وأمراء أوربا، عاصمة أوربية فى القاهرة تحكم دولة عصرية تمتد على ضفاف النيل ما بين الاسكندرية والخرطوم.. ففى نفس الوقت الذى احتفظت فيه القاهرة بمعظم أحيائها وآثارها التاريخية العظيمة، فقد قامت فى أطرافها أحياء فخمة محدثة وضواح بديعة تكاد تكوّن بذاتها مدناً أخرى، وعادت قاهرة العصور الوسطى.. لتكمل سيرتها فى زعامة مدن الشرق فى عصرنا الحديث.

والقاهرة ليست «المدينة الألفية» الوحيدة بين عواصم العالم القديم، حيث تقاسمها هذا المجد بل وتفوقها فى مداه: أثينا وروما والاسكندرية.. بل تقاسمها هذا الفخر أيضا حواضر إسلامية أخرى مثل: القدس ودمشق وبغداد وفاس.. إلا أنها تتميز بينهم جميعا بما تضمنه من تراث الحضارة الإنسانية فى عصور تاريخية مختلفة.. فتطل عليها آثار الفراعنة مجللة بروعة الخلود.. شاهدا مهيبا على عبقرية الإبداع المصرى منذ فجر التاريخ البشرى.. كذلك تنبث فى جنباتها الآثار القبطية.

وتزدان بآثار العصور الإسلامية المختلفة بكل ما تمثله من حس عبقرى وفن وروعة وبذخ..

وعن عراقة القاهرة، يقول د. جمال حمدان: «القاهرة مدينة معتقة أكثر مما هى عتيقة. وهذه العراقة التاريخية مقروءة حتى اليوم فى لاند سكيب المدينة، فالقاهرة الحديثة تقع بين قوسين معلقين من التاريخ القديم، الفرعونى غربا والإسلامى شرقا، فعلى هضبة الأهرام والجيزة بقايا العصر الفرعونى وإن كانت معلقة كالحفريات، بينما على سفوح المقطم وعند أقدامه تعيش الأحياء الشرقية القديمة تاريخا إسلاميا مكدسا، فى حين ترقد المدينة الحديثة فى القاع المنخفض بين القوسين التاريخيين المرتفعين.. وهى بهذا كله خير نقطة فى مصر، تختزل تاريخ مصر جميعا».

وبعد فليس كتابى هذا غير باقة حب أهديها إلى القاهرة : درة الشرق.. اقتطفت زهراتها خلال جولتى بين عدد من كتب الرحلات والتاريخ والخطط، مصحوبة بمجموعة من الصور الفوتوغرافية النادرة، تمثل القاهرة القديمة والقاهرة الحديثة، من إبداعات: فرانسيس فريث ودى نرفال ومكسيم دوكان وچون جرين وڤيرنيه وچاك داچير ودى كلير.. وغيرهم، عانيت كثيرا من أجل الحصول على أكثرها، والتى لم يسبق لمعظمها أن نشر من قبل، لأضعها بين يدى القارئ، ليشاهد من خلالها.. القاهرة النابضة بالدفء والحياة.. الزاخرة بمواضع الجمال.. على أن القاهرة التى نعيشها اليوم، ليست بتلك التى نشأت وتطورت فى العصور الوسطى.. ذلك أن عصورًا متتالية منذ نشأتها، أضافت إليها الكثير من الخطط والآثار.. لكنها على امتداد تاريخها.. لم تخل من معانقة الإيمان والفكر والإبداع.

عرفه عبده على

القاهرة :
فى عيون الرحالة والجغرافيين المسلمين ..

من الحقائق المعروفة والتى نقرها عن عالمنا الإسلامى أنه.. عالم مدن، فتاريخ عالمنا هذا - فى جوهره - تاريخ مدن، وحضارته حضارة مدن وكذلك نظمه وقوانينه..

وكنتيجة لجاذبية وإغراء الحياة فى المدن، فقد انتشرت المدن فى عالمنا الإسلامى وتنوعت وأصبح لكل منها شخصيتها المتميزة وتاريخها الطويل.. فمع الشعور - إذا إنتقلنا من القاهرة إلى دمشق على سبيل المثال - أننا نعيش فى نفس الجو الحضارى، فلابد وأن نشعر بالتباين الواضح فى شخصيته الأولى عن الثانية..

وقد فطن مؤرخونا لتلك الحقيقة، فأكثروا من التأليف فى المدن وتواريخها وتطورها وفضائلها كما أرّخوا للدول والممالك.. وبعض هذه المؤلفات، أعمال علمية جليلة أنفق أصحابها فى تصنيفها السنوات الطوال.. فلدينا على سبيل المثال: تاريخ مكة للأزرقى، وفاء الوفا بالتعريف بمدينة المصطفى للسمهودى، خطط الشام لإبن عساكر، تاريخ بغداد للخطيب البغدادى، المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار للمؤرخ العلامة المقريزى.. وغيرها من المؤلفات التى تعد من المصادر الأساسية لتاريخنا الحضارى..

ولست بمعتقد أن هناك مدينة إسلامية كبيرة، لم يتناولها المؤرخون بالوصف

واستعراض تاريخها، هذا بالإضافة إلى مؤلفات الجغرافيين والرحالة، الحافلة بالحديث عن المدن ووصفها وهى محور حديثنا فى هذا الفصل، كما سنعرض إلى وصف بعض الرحالة والجغرافيين المسلمين لمدينة القاهرة ومشاهداتهم بها..

العوامل التى دفعت المسلمين إلى الرحلة :

كان لإتساع أرجاء الدولة الإسلامية، ما تطلب دراسة ووصف المدن والأقاليم، كجزء من أخبار المغازى والفتوحات، وتمهيدا لتطبيق أحكام الشريعة، وتسهيلا لمهمة الولاة، كما كان لوصف المدن والأقاليم أهمية خاصة من الناحية الاقتصادية، فقد ساعدت الدولة الإسلامية فى تحديد ثروة تلك البلاد ومعرفة قدرتها على دفع الجزية والخراج..

وقد كانت الرحله من أهم الوسائل لطلب العلم فى أوائل العصر الإسلامى، فقد كانت الكتب نادرة، وكانت الدراسة العملية، تقوم مقام المراجع والمؤلفات اليوم، وفضلا عن ذلك.. فقد تعددت مراكز الثقافة فى ديار الإسلام ، فكان رجال العلم ينتقلون من إقليم إلى آخر يدرسون على مشاهير الأساتذة، ويلتقون بأعلام الفقهاء المحدثين واللغويين وكذا الأطباء والفلاسفة والرياضيين(١).

ونروى لنا كتب علم الحديث، وكتب طبقات المحدثين، قصصا كثيرة عن المحدثين الذين قاموا برحلات شاقة فى سبيل جمع الأحاديث المحفوظة فى صدور الرواه المتفرقين فى أرجاء العالم الإسلامى(٢).

وقد حرص خلفاء الدولة العباسية - مع إتساع رقعة دولتهم - على معرفة أجناس دولتهم، وأساليب التحكم فيها، مما جعلهم يولون اهتماما خاصا بصورة الأرض وما احتوت من بحار وأنهار وجبال وغير ذلك من معلومات يتحتم معرفتها(٣)..

كما أدت حركة الترجمة إلى نهضة علمية كبيرة فى جميع العلوم العقلية، ومن بينها علم تقويم البلدان والاهتمام بوصف المسالك والممالك والعجائب، وهو ما اصطلح

(١) «الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى» : د. زكى حسن ، ص ٧.
(٢) «تاريخ التراث العربى»: فؤاد سزكين، جـ١ ص ١٠٤
(٣) «مروج الذهب» السعودى، جـ٢ ص ٣٦٤

على تسميته بالجغرافية الوصفية[1].

ولعل من أهم بواعث الرحلة وأعظمها شأنا عند المسلمين، تأدية فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد سجل النابهون من هؤلاء الحجاج مشاهداتهم ومشاعرهم، والأحداث التى صادفتهم، والطرق والدروب التى سلوكها فى مدونات عرفت بكتب الرحلة.

كما كان الإرتحال من أجل التجارة - التى إتسع نطاقها عند المسلمين فى العصور الوسطى - من العوامل الهامة التى دفعت المسلمين للترحال، وقد خلف لنا رحالة وجغرافيو المسلمين ثروة عظيمة هى خلاصة مشاهداتهم وتجارتهم التى اكتسبوها من أسفارهم فى جميع أنحاء العالم المعروف فى ذلك الوقت..

ومن هؤلاء الجغرافيين الرحالة المسلمين، نذكر على سبيل المثال: ابن حوقل، ابن خرداذبه، اليعقوبى، الهمذانى، المقدسى، البيرونى، ياقوت الحموى، ابن سعيد المغربى، أبو الفداء، العمرى وابن خلدون.. وغيرهم من الرحالة الجغرافيين..

ثم من مشاهير الرحالة: ابن جبير، ابن بطوطة، الرندى، التيجانى، السبتى التجيبى، ناصر خسرو، أسامة بن منقذ وعبد اللطيف البغدادى و عبد الغنى النابلسى.

ويجدر بالإشارة أن - المغرب - قد اضطلع بدور بارز فى تدعيم الجغرافية العربية، وإمدادها بالمعلومات التفصيلية عن شمال إفريقيا، بفضل البكرى والإدريسى ومعهما صاحب كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار إلى جانب فضل المغرب فى ابتكار «الرحلة الحجازية» بظهور كتب ابن جبير وتابعيه. فكان للمغاربة فضل تزويد المكتبة الجغرافية بالمعلومات المناسبة عن مصر كما رأوها. ولكن يؤخذ عليهم أنهم لم يستطيعوا التخلص من العنصر التاريخى ومن مادة العجائب، بل ربما غلب ذلك على الناحية الجغرافية البحته، فالتفتوا إلى غرائبها الأزلية، التى أنستهم - فى أغلب الأحيان -

(١) قسم البروفيسور» بلاشير R. Blachére فى كتابه «نخبة من أهم الجغرافيين العرب فى العصر الوسيط - Extraits des principaux géo graphes arabes du moyen - agé الجغرافية العربية إلى قسمين رئيسيين: الأول: الجغرافية الرياضية وتضم فرعين هما: علم الأطوال والعروض، ثم علم تقويم البلدان. والثانى: الجغرافية الأدبية أو الوصفية، وتشتمل على فرعين هما: علم الأطوال والعروض، ثم علم تقويم البلدان. والثانى: الجغرافية الأدبية أو الوصفية، وتشتمل على فرعين هما: علم المسالك والممالك، وعلم عجائب البلدان.

وقائع الحاضر(١).

وأول ذكر للقاهرة عند الجغرافيين، نجده فى مسالك وممالك ابن حوقل - الداعية الفاطمى - ونظرا لأنها كانت فى بداية نشأتها، فقد اكتفى بالإشارة إليها وبأنها: «مدينة أجدها أبو الحسن جوهر. فتى أمير المؤمنين ومصباح دولته»(٢) ولم يضف المقدسى المعاصر له، شيئا عنها(٣).

وبعد قرن من الزمان، لم يزد البكرى: إلا أنها على نحو ميلين من الفسطاط فى خرابه كانت مساكن لكتامه، وأن الحاكم الفاطمى بنى مسجدا عظيما فى الطريق ما بين الفسطاط والقاهرة. والغريب أن المتأخرين من جغرافيى القرون ٦، ٧، ٨. للهجرة، اكتفوا بالنقل، ولم يضيفوا إلى هذه المعلومات كثيرا، رغم الأحداث والتطورات التى شملت القاهرة والفسطاط، ويرجع الفضل إلى جغرافية «رحلة الحج» فى إكمال هذا النقص وإضافة معلومات جديدة لها قيمتها التاريخية والاجتماعية والأثرية، حيث اهتمت فى المقام الأول، بتسجيل أحوال المجتمعات وتقاليد الشعوب، كما هو واضح فى رحلات ناصر خسرو وابن جبير وعبد اللطيف البغدادى والحسن الوزان «ليون الإفريقى».

قاهرة القرن الحادى عشر..
كما صورها «ناصر خسرو»

لقد أحب «ناصر خسرو علوى»* مصر حباً جماً، حتى قيل أن تعصبه للمذهب الإسماعيلى، جعله يبالغ فى وصف مصر ويمجدها ويثنى عليها، كما أسرف فى الحديث عن ثراء المصريين وتقلبهم فى رغد العيش وتمتعهم بالأمان..!

---

(١) ملاحظات عن مصر: د. سعد زغلول عبد الحميد، مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، جـ٨، ص ٩٥ - ٩٦.

(٢) المسالك والممالك: ابن حوقل، ص ٩٧.

(٣) أحسن التقاسيم: المقدسى، ص ٢٠٠.

* ولد ناصر خسرو فى قياديان بالقرب من بلخ (٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م)ك نشأ فى جو مضطرب =

وقد دوّن ناصر خسرو وقائع رحلته يوماً بيوم، برع فى دقة وصفه للأماكن وبعض الاحتفالات، كما كان دقيق الملاحظة شديد العناية بتقصى الأخبار وروايتها، مما أثرى رحلته «سفرنامه»[1] .بالصور الحافلة بالمعلومات عن البلاد التى زارها..

فيقول فى وصفه للقاهرة:

«.. وقدرت أن فى القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف دكان - كلها ملك للسلطان - وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير مغربية فى الشهر، وليس بينها ما تقل أجرته عن دينارين، والأرابطة والحمامات والأبنية الأخرى كثيرة لا يحدها الحصر، وكلها ملك السلطان، إذ ليس لأحد أن يملك عقارا أو بيتا، غير المنازل وما يكون قد بناه الفرد لنفسه، وسمعت أن للسلطان ثمانية ألف بيت فى القاهرة ومصر، وأنه يؤجرها ويحصل أجرتها كل شهر، يؤجرونها للناس برغبتهم ثم يتقاضون الأجر فلا يجب شخص على شئ..

ويقع قصر السلطان فى وسط القاهرة[2]، وهو طلق من جميع الجهات، ولا يتصل به أى بناء، وقد مسحه المهندسون فوجدوه مساويا لمدينة «ميافا رقين» وكل ما

= سياسيا ودينيا، نال حظا وافرا من علوم عصره، وكان من أعظم شعراء الفرس، ناظر العلماء واتصل بهم، وقد صنف الكثير من المؤلفات، أهمها: زاد المسافرين وخوان الإخوان والرسالة ووجه ودين ثم سفر نامه وهى الأعمال المنثورة، أما الأعمال المنظومة فكانت: الديوان وسعادت نامه وروشنائى نامه، وقد أقام فى مصر ثلاث سنوات وثلاثة أشهر (١٠٤٧ - ١٠٥٠م) والتى كانت بالأصل سعيا وراء الحقيقة، حيث كان يوجد بها مذهبا دينيا عرف بنشاط دعاته فى خراسان.

(١) قام العلامة «شارل شيفر - Charles Schefer » بترجمة كتاب سفر نامة عن الفارسية مع التقديم والتعليق عليه، ثم ترجم هذه الرحله إلى العربية د، يحيى الخشاب: مطبوعات معهد اللغات الشرقية - كلية الآداب، عام ١٩٤٥.

(٢) يطلق «قصر السلطان» على مجموعة من القصور، منها القصر الصغير الغربى، والقصر اليافعى، وقصر الذهب، وقصر الأفيال، وقصر الظفر، وقصر الشجرة، وقصر الشوك، وقصر الزمرد، وقصر البحر، وهى كلها قاعات ومناظر من داخل سور القصر الكبير الشرقى، ويقال لها القصور الزاهرة، وكان هذا القصر فى الجهة الشرقية من القاهرة، وقد أمر ببنائه المعز لدين الله (٩٥٢ - ٩٧٥م) وتولى تنفيذه قائده جوهر الصقلى، وكان ابتداء بنائه مع وضع أساس سور القاهرة عام (٣٥٨ هـ / ٩٦٨م) وهذا القصر كان دار الخلافة وبه سكن الخلفاء الفاطميون إلى آخر أيامهم..

(المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: المقريزى جـ ٢ ص ٢١٤).

حوله فضاء، ويحرسه كل ليلة ألف رجل، خسمائة راجل وخمسمائة فارس، وهم ينفخون البوق ويدقون الطبل والكوس من وقت صلاة المغرب ويدورون حول القصر حتى الصباح، ويبدو هذا القصر من خارج المدينة، كأنه جبل، لكثرة ما فيه من الأبنية المرتفعة، وهو لا يرى من داخل المدينة لإرتفاع أسواره، وقيل أن به إثنى عشر ألف خادم مأجور، ومن يعرف عدد من فيه من النساء والجوارى؟! إلى أنه يقال أن به ثلاثين ألف آدمى. وهذا القصر يتكون من أثنى عشر بناء، وله عشرة أبواب فوق الأرض، فضلا عن أبواب أخرى تحتها. وأسماء أبوابه الظاهرة هى : باب الذهب، باب البحر، باب السريج، باب الزهومه، باب السلام، باب الزبرجد، باب العبد، باب الفتوح، باب الزلاقة، باب السرية.

وتحت الأرض باب يخرج منه السلطان راكبًا، وهذا الباب على السرداب المؤدى إلى قصر آخر خارج المدينة، ولهذا السرداب الذى يصل بين القصرين سقف محكم، وجدران القصر من الحجر المنحوت بدقة، تقول إنها قُدت من صخر واحد، ويتألف القصر من المناظر والإيوانات العالية، وفى داخله دهليز به دكك.

وأركان الدولة، والخدم، من العبيد السود أو الروم، والوزير رجل يمتاز عن الجميع بالزهد والورع والأمانة والصدق والعقل.

ولم يكن شرب الخمر مباحًا، أعنى أيام الحاكم، الذى حرم على النساء الخروج من بيوتهن، وما كان أحد يجفف العنب فى بيته لجواز عمل السيكى (نوع من الشراب) منه، ولم يكن أحدهم يجرؤ على شرب الخمر، ولا كانوا يشربون الفقاع، فقد قيل أنه مسكر، فهو محرم.

وللقاهرة خمسة أبواب : باب النصر، وباب الفتوح، وباب القنطرة، وباب الزويلة، وباب الخليج، وليس للمدينة قلعة، ولكن أبنيتها أقوى وأكثر إرتفاعا من القلعة، وكل قصر حصن، ومعظم العمارات تتألف من خمس أو ست طبقات.

ويجلب ماء الشرب من النيل، ينقله السقاءون على الجمال، والآبار القريبة من النيل عذب ماؤها، وأما البعيدة عنه فماؤها ملح، ويقال إن بالقاهرة ومصر إثنين وخمسين ألف جمل، يحمل عليها السقاءون الروايا، وهؤلاء عدا من يحمل الماء على ظهره فى الجرار النحاسية أو القرب، وذلك فى الحارات الضيقة التى لا تسير فيها الجمال.

وفى المدينة بساتين وأشجار بين القصور، تسقى من ماء الآبار، وفى قصر السلطان بساتين لا نظير لها، وقد نصبت السواقى لريها، وغرست الأشجار فوق الأسطح فصارت متنزهات....

وكانت البيوت من النظافة والبهاء، بحيث تقول إنها بُنيت من الجواهر الثمينة، لا من الجص والآجر والحجارة، وهى بعيدة عن بعضها، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر، ويستطيع كل مالك أن يعمل ما ينبغى لبيته فى كل وقت، من هدم أو إصلاح، دون أن يضايق جاره.

ويرى السائر خارج المدينة، ناحية الغرب، ترعة كبيرة تسمى «الخليج» حفرها والد السلطان، وله على شاطئيها ثلاثمائة قرية، ويبتدىء «فم الخليج» من مدينة مصر ويمر بالقاهرة، ويدور بها مارا أمام قصر السلطان، وقد شيد على رأسه قصران، أولهما «قصر اللؤلؤة»[1] وثانيهما «قصر الجوهرة».

وفي القاهرة أربعة جوامع : الأزهر وجامع النور وجامع الحاكم وجامع المعز، والأخير خارج القاهرة على شاطئ النيل.

---

(١) كان للخلفاء الفاطميين منظرة تعرف بقصر اللؤلؤة على الخليج بالقرب من باب القنطرة، وكان قصرا من أحسن القصور، وأعظمها زخرفة، وهو أحد متنزهات الدنيا المذكورة، وكان يشرف من شرقيه علي البستان الكافورى، ويطل من غربيه على الخليج، وكان غربى الخليج إذ ذاك ليس فيه من المبانى شئ، وإنما كان فيه بساتين عظيمة وبركة تعرف ببطن البقرة، فيرى الجالس فى قصر اللؤلؤة جميع أرض الطبالة وسائر أرض اللوق وما هو من قبيلها ويرى بحر النيل من وراء البساتين.. قال ابن ميسر: هذه المنظرة بناها العزيز بالله، ولماولى برجوان الصقلبى، وزارة الحاكم بأمر الله، سكن بمنظرة اللؤلؤة فى جمادى الأولى سنة ٣٨٨ هـ إلى أن قتل، وفى السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٤٠٢ هـ أمر الحاكم بأمر الله بهدم اللؤلؤة ونهبها، فهدمت ونهبت وبيع ما فيها..!(خطط المقريزى: جـ٢، ص ٤٦٧).

وقد كان للخلفاء الفاطميين الكثير من المناظر بالقاهرة وظواهرها، كما كانت لهم عدة منتزهات أيضا، ومن تلك المناظر: منظرة الجامع الأزهر ومنظرة الدكة ومنظرة المقس ومنظرة باب الفتوح ومنظرة التاج والخمس وجوه ومنظرة البعل ومنظرة الصناعة ودار الملك ومنازل العز ومنظرة بركة الحبش ومنظرة الأندلس وقبة الهواء و.منظرة السكره، وكان من منتزهاتهم قصر الورد بالخرقانية وبركة الجب.

ويصف بأسلوب شيق يأخذ باللب، احتفالات «فتح الخليج»[1].. .. .. ثم يمضى بنا فى وصفه للقاهرة، فيقول:

وللسلطان حديقة تسمى «حديقة عين شمس» على فرسخين من القاهرة، وهناك عين ماء عذبة سمى البستان بها، ويقال إن هذه الحديقة كانت لفرعون، وقد رأيت قربها بناية قديمة بها أربع قطع من الحجارة الكبيرة، كل قطعة مثل المنارة، وطول كل منها ثلاثون ذراعا، وكان الماء يقطر من رؤوسها، ولا يدرى أحد ما هى[2].

وفى الحديقة شجرة البلسان[3]، يقال أن أباء هذا السلطان أتوا ببذرتها من بلاد المغرب، وزرعوها فى الحديقة، ولا يوجد غيرها فى جميع الآفاق، وهى غير معروفة فى بلاد المغرب، ومع أن لهذه الشجرة حبا، إلا أنه لا ينبت حيثما زرع، وإذا نبت فلا يخرج الزيت منه، وهذه الشجرة مثل شجرة الآس، يشذبون غصونها بالنصل حينما تكبر، ويربطون زجاجة عند موضع كل قطع، فيخرج منه الدهن كالصمغ، وحين ينفذ ما فيها من دهن تجف، ويحمل البستانيون غصونها إلى المدينة ويبيعونها، ولحاؤها ثخين، وطعمه كاللوز حين يقشر، وينبت فى جزعها أغصان فى السنة التالية، فيعملون بها كما فعلوا فى السنة الغابرة.

ولمدينة القاهرة، عشر محلات، وهم يسمون المحلة «حارة» وهى حارات:

---

(١) عن احتفالات يوم «فتح الخليج».. راجع ذلك العرض المستفيض الذى قدمه المقريزى: الخطط: جـ٢ ص ٤٧. - ٤٧٩

(٢) يذكر عبد اللطيف البغدادى فى مؤلفة القيم: الإفادة والاعتبار.. ص ٤١ «.. وفى عين شمس المسلتان المشهورتان وتسميان مسلتي فرعون، ورأيت إحدى المسلتين وقد خرت وإنصدعت من نصفها لعظم الثقل وأخذ النحاس من رأسها، فقد كان على رأس كل مسلة قلنسوة نحاس إلى ثلاثة أذرع منها كالقمع.

(٣) يذكر أبو القاسم بن حوقل فى كتابه «صورة الأرض»: وبعين شمس إلى ناحية الفسطاط، نبت بزرع كالقضبان يسمى البلسم، يتخذ منه دهن البلسان، لا يعرف بمكان من الأرض إلا هناك، ويؤكل لحاء هذه القضبان، فيكون له طعم صالح وفيه حرارة وحروفة لذيذة. ص ١٦. - ١٦١، طبعة ليدن ١٩٣٨.
ويذكر البغدادى فى كتابه ص ٢٣، عن البلسان «وإنه لا يوجد اليوم إلا بها، بعين شمس، فى موضع محاط عليه، محتفظ به، مساحته نحو سبعة أفدنة، وإرتفاع شجرته نحو ذراع وأكثر من ذلك، وعليها قشران الأعلى أحمر خفيف والأسفل أخضر ثخين، وإذ مضغ ظهر فى الفم منه دهنية ورائحة عطرية وورقه شبيه بورق السنداب...».

برجوان[1]، وزويلة[3] والجودرية[3] والأمراء[4] والديالمة[5] والروم[6] والباطلية[7] وقصر الشوق[8] وعبيد الشرا[9] والمصامدة[10].

---

(1) تنسب إلى برجوان الصقلبى، الملقب بالواسطة ومدبر الدولة، كان من خدم العزيز بالله، ثم إرتفع شأنه فى عهد الحاكم بأمر الله، وتولى أمور مصر والحجاز والشام والمغرب.. وهذه الحارة كانت فى المنطقة التى يتوسطها اليوم شارع برجوان وحارة برجوان وما يتفرع منهما من العطف والأزقة بقسم الجمالية. (النجوم الزاهرة : جـ4 ص 48).

(2) هذه الحارة، كانت أكبر حارات القاهرة، نزلت بها قبيلة زويلة، ولم تزل تعرف بحارة زويلة أو حارة اليهود (شارع الموسكى) ويتخللها عدة شوارع وحارات وعطف، كان يسكن أغلبها اليهود. (النجوم الزاهرة: جـ 4 ص 52).

(3) تنسب إلى جماعة ينسبون إلى جوهر خادم المهدى، ويدل على موقعها المنطقة التى يخترقها شارع الجودرية وفروعه، وحارتا الجودرية الكبيرة والصغيرة وعطفة الجودرية، وتقع هذه المنطقة فى دائرة قسم الدرب الأحمر. (النجوم الزاهرة: جـ 4 ص 51).

(4) تغير إسمها فى عصر صلاح الدين، حين سكنها الملك المعظم توران شاه. وسميت درب شمس الدولة، ولم يزل يعرف إلى اليوم بحارة شمس الدولة بين شارع السكة الجديدة وشارع الحمزاوى الصغير. (جـ4 ص 52).

(5) هذه الحارة الكبيرة، كانت تشمل ثلاث حارات: حارة الكحكيين ودرب الأتراك وحارة خوش قدم، ويوجد اليوم بحارة خوش قدم، زقاق مشهور بحبس الديلم، وعرفت بذلك لنزول الديلم الذين صحبوا ألفتكين الشرابى مولى معز الدولة البويهى، حين قدم ومعه أولا معز الدولة وجماعة من الأتراك إلى القاهرة، وأيضا كانت هذه الحارة مسكنا للأمراء والأعيان، ولهذا سميت بحارة الأمراء (راجع الخطط التوفيقية: على مبارك. جـ2 ص 27 - 28).

(6) وهى حارتان: حارة الروم المشهورة اليوم بقسم الدرب الأحمر، وحارة الروم الجوانية - نسبة للأشراف الجوانيين - وتقع بقسم الجمالية وبداخلها حارة دير الأروام. (النجوم الزاهرة: جـ 4 ص 42).

(7) يدل على موضعها اليوم، شارع الباطلية وحارة الباطلية، فى الجنوب الشرقى للجامع الأزهر بقسم الدرب الأحمر، قال بن تغرى بردى: إن المعز لدين الله لما قسم العطاء فى الناس، جاءت إليه طائفة تسأله العطاء فقيل لهم: فرغ العطاء، فقالوا: رُحنا نحن بالباطل، فسموا بالباطلية وعرفت الحارة بهم. (النجوم الزاهرة: جـ4 ص 46).

(8) يعرف بهذا الاسم، شارع قرب أم الغلام خلف مسجد الحسين، وهو بالأصل قصر بناه الفاطميون فى تلك الجهة.

(9) عبيد الشرا كانوا إحدى فرق الجيش، وهى إحدى حارات حى الحسنية، وتشمل حارة حامد والمنشية الكبرى والصغرى والحارة الكبيرة والوسطى وهى التى كانت لعبيد الشرا والوزيرية والسوق الكبير وبين الحارتين.

(10) كانت هذه الحارة، بالقرب من بركة الفيل، والمصامدة إحدى الفرق الهامة فى الجيش المصرى فى عهد الفاطميين، وكان عددهم نحو عشرين ألف رجل.

مشاهدات إبن جبير بالقاهرة :

مما لا ريب فيه أن «ابن جبير»[1] كان رائدا فى ميدان الرحلات، نهج على منواله واقتبس منه الكثير من الرحالة والمؤرخين الذين أتوا بعده، وليس أدل على ذلك من تهافت القدامى من المؤرخين، بل والمحدثين والمستشرقين على الترجمة له وتحقيق ونشر رحلته.

وعن ريادة ابن جبير، والاهتمام بالترجمة له، يقول المؤرخ عبد القدوس الأنصارى[2]: «..ولا غرابة فى ذلك، فابن جبير من أوسع الرحالين الغرب فكرا وأشملهم ملاحظات وأجملهم اسلوبا وأنقاهم تعبيراً وأسلسهم بيانا، وأعمقهم استنتاجا وإدراكا، وأكثرهم اهتماما بأوضاع السياسية الإسلامية العامة فى زمنه، وأرشدهم اهتماما بتتبع أحوالها واستقصاء أدوائها وعلاجها».

(١) هو الأديب الفاضل الزاهد أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد جبير.. الكنانى، البلنسى الأصل، ثم استوطن غرناطة، ولد فى بلنسية سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٤م، وتوفى بالأسكندرية سنة ٦١٤ هـ / ٢١٧م؛
(ترجمة ابن جبير: مستفاد الرحلة والاغتراب للتجيبى، ص ٢٤٣، طبعة تونس) كما ترجم له لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه الإحاطة ص ٢٣

(٢) عبد القدوس الأنصارى: «مع ابن جبير فى رحلته» ص ١٦.

ومن خص ابن جبير بكير عنايته، المستشرق السوفيتى «كراتشكوفسكى»، فقال عن رحلة ابن جبير فى مستهل ترجمته له[1] التى تعد من أوسع وأهم التراجم الحديثة لابن جبير - أنها: «تمثل أهمية قصوى فى تصوير حياة ذلك العصر، فهى تقدم وصفًا حيًا لمصر والشام، عندما بدأت فيهما حركة التحرير الإسلامية ضد الصليبين، بزعامة نور الدين زنكى وولده محمود وصلاح الدين... وهى من الناحية الفنية، بلغت ذروة ما وصل إليه نمط الرحلة فى الأدب العربى».

وابن جبير هو مبتكر فن «الرحلة الجغرافية» فى رحلته التى بدأها من الأندلس حتى وصل مصر فى أوائل عهد صلاح الدين (أواخر عام ١١٨٢/٥٧٨) ودون ملاحظاته ومشاهداته فى البحر - أثناء رحلة المركب الذى نقله من سبته إلى الاسكندرية - وفى مصر ومكة والمدينة والشام[2].

ويتمايز ابن جبير فى وصفه: بقوة الملاحظة ودقة الرواية وتحرى الحقيقة بنفسه، ففى الفسطاط يحدد مكان إقامته بفندق «أبى الثناء» فى زقاق القناديل، بمقربة من جامع عمرو بن العاص، فى حجرة كبيرة على باب الفندق، ويزور القرافة، التى ينعتها بأنها[3] «إحدى عجائب الدنيا، لما تحتوى عليه من مشاهد أهل البيت رضوان الله عليهم، والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء ذوى الكرامات الشهيرة والأنباء الغريبة.. وأسماء أصحاب هذه المشاهد المباركة، إنما تلقيناها من التواريخ الثابتة عليها، مع تواتر الأخبار بصحة ذلك، والله أعلم بها، وعلى كل واحد منها بناء حفيل، فهى بأسرها روضات بديعة الإتفاق عجيبة البنيان».. «ومن العجب أن القرافه المذكورة، كلها مساجد مبنية، ومشاهد معمورة، يأوى إليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء، والإجراء على كل موضع منها، متصل من قبل السلطان فى كل شهر، والمدارس التى

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى: ترجمة صلاح هاشم: القسم الأول، ص ٢٩٩، ورحلة ابن جبير حققت ونشرت عدة مرات: أشهرها تحقيق وليم رايت William Wright سنة ١٨٥٢، ثم راجعها بعد ذلك بالاشتراك مع دوزى Dozy ، وحققها: روبرتسون سميث - Robertson smith ونقحها وطبعها: دى جويه De Geoje ، طبعة بريل، ليدن، ١٩٠٧، وهى التى أعتمدتها فى هذا الفصل، كما قام بتحقيقها : د. حسين نصار، ١٩٥٥.

(٢) ملاحظات عن مصر: د. سعد زغلول عبد الحميد، مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، جـ٨، ص ١٠٦

(٣) رحلة ابن جبير : ص ٤٦ - ٤٧

بمصر والقاهرة كذلك، وحقق عندنا أن الإجراء على ذلك كله نيف على ألف دينار مصرية فى الشهر».

وكان المقدسى قد وصفها[1] : «بأنها غاصة بالمساجد والسقايات الحسنة، كما كانت موضع خلوه وملجأ للعباد، وسوقا لطلاب الآخره».

ويزور ابن جبير المشهد الحسينى، فيقول عنه[2]: ذلك المشهد العظيم الشأن الذى بمدينة القاهرة، حيث رأس الحسين بن علي.. وهو تابوت فضة مدفون تحت الأرض، قد بنى عليه بنيان حفيل، يقصر الوصف عنه ولا يحيط الإدراك به، مجلل بأنواع الديباج، محفوف بأمثال العُمُد الكبار شمعًا أبيض... فيه من أنواع الرخام المجزع الغريب الصنعة، البديع الترصيع، ما لا يتخيله المتخيلون، ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون، والمدخل إلى هذه الروضة، على مسجد على مثالها فى التأنق والغرابة، حيطانة كلها رخام على الصفة المذكورة... ومن أعجب ما شاهدناه فى دخولنا إلى هذا المسجد المبارك، حجر موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل، شديد السواد والبصيص يصف الأشخاص كلها، كأنه المرآة الهندية الحديثة الصقل، وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك، وإحداقهم به وانكبابهم عليه وتمسحهم بالكسوة التى عليه، وطوافهم حوله، مزدحمين داعين باكين متوسلين إلى الله سبحانه ببركة التربة المقدسة ومتضرعين، ما يذيب الأكباد ويصدع الجماد، والأمر فيه أعظم، ومرأى الحال أهول نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم»..

ويمضى بنا ابن جبير فى وصفه، فيقول[3]: ومما شاهدناه بالقاهرة، أربعة جوامع، حفيلة البنيان، أنيقة الصنعة».. ولم يذكر ابن جبير هذه الجوامع بأسمائها! وهى: جامع عمرو بن العاص، جامع ابن طولون، جامع الأزهر، وجامع الحاكم. «.. ويأخذ الخطيب فيها مأخذ سنى، يجمع فيها الدعاء للصحابة وللتابعين ومن سواهم، ولأمهات المؤمنين زوجات النبى، ولعميه الكريمين حمزة والعباس.. ويلطف الوعظ ويرقق التذكير، حتى تخشع القلوب القاسية، وتتفجر العيون الجامدة، ويأتى للخطبة لابسا السواد - على رسم العباسية - وصفة لباسه: برده سوداء عليها طيلسان شرب أسود، وهو الذى يسمى

---

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم: المقدسى، ص ٢٠٩

(٢) رحلة ابن جبير : ص ٤٥ - ٤٦

(٣) المصدر السابق: ص ٥٠

بالمغرب الإحرام، وعمامه سوداء، متقلداً سيفاً، وعند صعوده المنبر، يضرب بنعل سيفه المنبر فى أول إرتقائه ضربة، يسمع بها الحاضرين، كأنها إيذان بالإنصات، وفى توسطه أخرى، وفى إنتهاء صعوده ثالثة، ثم يسلم على الحاضرين يمينا وشمالا، ويقف بين رايتين سوداوين، فيهما تجزيع بياض، قد رُكزتا فى أعلى المنبر، ودعاؤه فى هذا التاريخ للإمام العباسى: أبى العباس أحمد الناصر لدين الله.. ثم لمحيى دولته أبى المظفر يوسف بن أيوب صلاح الدين[1].

ويصف قلعة الجبل ويشاهد أعمال الحفر وإنشاء السور، فيقول[2]: «وشاهدنا أيضا بنيان القلعة، وهو حصن يتصل بالقاهرة، حصين المنعة، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة، والمسخرون فى هذا البنيان والمتولون لجميع إمتهاناته ومؤنته العظيمة، كنشر الرخام ونحت الصخور العظام وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور، ينقر بالمعاول نقراً فى الصخر، عجبا من العجائب الباقية الآثار - العلوج الأسارى من الروم - وعددهم لا يحصى كثرة، ولا سبيل أن يمتهن فى ذلك البنيان أحد سواهم..».

«ومما شاهدناه أيضا، من مفاخر هذا السلطان، المارستان الذى بمدينة القاهرة[3]، وهو قصر من القصور الرائقة حسناً وإتساعاً، أبرزه لهذه الفضيلة تأجرا وإحتسابا، وعين قيّما من أهل المعرفة، وضع لديه خزائن العقاقير، ومكنه من استعمال الأشربة، وإقامتها على إختلاف أنواعها، ووضعت فى مقاصر ذلك القصر، أسّرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكُسَى، وبين يدى ذلك القيم، خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم، وبإزاء هذا الموضع، موضع مقتطع للنساء المرضى، ولهن أيضا من يكفلهن، ويتصل بالموضعين المذكورين، موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد، أتخذت مجالس للمجانين، ولهم أيضا من يتفقد فى كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال، ويؤكد فى الإعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد».

ثم يصف ابن جبير جامع ابن طولون، ومنه نعلم أن المغاربة، كانوا يتمتعون

---

(١) المصدر السابق: ص ٥٠.
(٢) رحلة ابن جبير : ص ٥١.
(٣) المصدر السابق: ص ٥١.

بنوع من «الحكم الذاتى» بإذن السلطان صلاح الدين، فيقول[1]: «وبين مصر والقاهرة، المسجد الكبير المنسوب إلى أبى العباس أحمد بن طولون، وهو من الجوامع العتيقة، الأنيقة الصنعة، الواسعة البنيان، جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة، يسكنونه ويحلقون فيه، وأجرى عليهم الأرزاق فى كل شهر، ومن أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم: أن السلطان جعل أحكامهم إليهم. ولم يجعل يدًا لأحد عليهم، فقدموا من أنفسهم حاكمًا يمتثلون أمره، ويتحاكمون فى طوارئ أمورهم عنده».. ويفيض فى إبراز مآثر صلاح الدين واعتنائه بأمور المسلمين، بإنفاقه من بيوت الأموال على الجوامع والمساجد والمدارس والكتاتيب والمارستانات وروضات القبور.. ..

ويصف ابن جبير الأهرام بقوله[2].. «الأهرام القديمة، المعجزة البناء، الغريبة المنظر، المربعة الشكل، كأنها القباب المضروبة قد قامت فى جو السماء.. أقيمت من الصخور العظام المنحوتة، وركبت تركيبا هائلا، بديع الإلصاق، دون أن يتخللها ما يعين على إلصاقها، محددة الأطراف فى رأى العين، وربما أمكن الصعود إليها على خطر ومشقة.. لو رام أهل الأرض نقض بنائها لأعجزهم ذلك.. .. وعلى مقربة من هذه الأهرام، بمقدار غلوه، صورة غريبة من حجر، قد قامت كالصومعة، على صفة آدمى، هائل المنظر، وجهه إلى الأهرام، وظهره إلى القبلة مهبط النيل، وتعرف بأبى الأهوال»!

ويصف الجيزة بقوله[3]: «قرية كبيرة الشأن، حفيلة البنيان، لها كل يوم أحد، سوق من الأسواق العظيمة يجتمع إليها، ويعترض بينها وبين مصر جزيرة[4] (جزيرة الروضة) فيها مساكن حسان وعلالى مشرفة وهى مجتمع اللهو والنزهة، وبينها وبين مصر، خليج من النيل، يذهب بطولها نحو الميل ولا مخرج له، وبهذه الجزيرة مسجد جامع يخطب فيه، ويتصل بهذا الجامع - المقياس - الذي يعتبر فيه قدر زيادة النيل

---

(١) المصدر السابق : ص ٥٢

(٢) المصدر السابق : ص ٥٣

(٣) رحلة ابن جبير ك ص ٥٤

(٤) كانت هذه الجزيرة تعرف فى أول الإسلام «بالجزيرة» و «جزيرة مصر الفسطاط» وأحيانا «جزيرة الصناعة»؛ ولم يطلق عليها اسم «جزيرة الروضة» إلا مع مطلع القرن السادس الهجرى، عندما أنشأ بها الوزير الأفضل بن بدر الجمالى، بستان الروضة، فمنذ هذا التاريخ صارت تعرف =

عند فيضه كل سنة، واستشعار إبتدائه فى شهر يونية.. وهذا المقياس، عمود رخام أبيض مثمن، فى موضع ينحصر فيه الماء عند إنسيابه إليه، وهو مفصل على اثنين وعشرين ذراعًا، مقسمة على أربعة وعشرين قسمًا تعرف بالأصابع..».

= بجزيرة الروضة. ولمزيد من التفاصيل.
راجع: (خطط المقريزى : جـ٢ ص ١٧٧ - ١٨٥)؛ (الخطط التوفيقية: على مبارك، جـ ١٨، ص ٧ - ٢٦)؛ (د. أيمن فؤاد: وصف مدينة القاهرة ص ٣٣٣).
وفى زمن الإدريسى (إنتهى من رحلته فى ٥١١ هـ / ١١١٧م) كانت تسمى «دار المقياس» وفى وصفه لها، قال: «والنيل يأتيها من أعلى أرضها (الفسطاط) فيجتاز بها من ناحية جنوبها، وينعطف مع غربيها، فينقسم قدامها قسمين ثم يلتقيان على جزيرة صغيرة، وفى هذه الجزيرة مساكن كثيرة جليلة ومبان متصلة على ضفة النيل، وهذه الجزيرة تسمى - دار المقياس - ويجاز إليها على جسر فيه نحو ثلاثين سفينة، ويجاز القسم الثانى وهو أوسع من الأول، على جسر آخر وسفنه أكثر من سفن الأول أضعافًا، وطرف هذا الجسر يتصل بالشط المعروف بالجيزة». (الإدريسى : نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق، ص ١١٢، طبعة روما، ١٥٩٢:
(De Geographia Univers ali, Romae M. D. X CIIi

القاهرة فى فاتحة القرن الثالث عشر..
كما صورها البغدادى

يُعد عبد اللطيف البغدادى من الرحالة العلماء، ومفكر من أعلام عصره، فإلى جانب براعته فى الطب وعلوم القرآن والحديث وعلوم اللغة والفلسفة والمنطق،. فقد تميز بعقليته العلمية وبدقة ملاحظاته، التى بدت واضحة فى الأثر الذى خلفه لنا عن مصر: «الإفادة والإعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»[1].. فكان صورة طريفة صادقة، عنى فيها بالظواهر العلمية والاجتماعية والنفسية، أكثر مما عنى بالرواية والحوادث المتماثلة.

وامتاز أسلوبه بالإتجاه العلمى، الذى يغلب على تقييده لمشاهداته، مما يثبت أنه رأى وفحص ونقب فضلا عما يسمع، والميزة الثانية فى اسلوبه، فهى أنه إذا رأى له أمر وشك فيه أظهر ذلك فى كتابه[2]. فجاء مؤلفه هذا نوعاً من الدراسة العلمية.

وهذا الكتاب قسمان: يتناول الأول، خواص مصر العامة وما تفردت به من نبات

---

(١) ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية، عام ١٨١٠، المستشرق الفرنسى : «دى ساسى - ASilves de Sacy» وكانت مشاهدات البغدادى وملاحظاته عن مصر، قد أثارت اهتمام الباحثين الأوربيين فنشرت فى كتاب تحت إسم «مختصر تاريخ مصر» مترجماً إلى اللاتينية، مقرونا بالنص العربى، بإشراف المستشرق «جوزيف وايت» J. White فى عام ١٨٠٠؛ جامعة اكسفورد، وأول طبعة ظهرت بمصر كانت فى عام ١٢٨٦ هـ، ثم نشر بالمجلة الجديدة ١٩٣١.

(٢) الجغرافيا والرحلات : نقولا زيادة، ص ١٧٤.

وحيوان، ثم يتناول آثارها وعمائرها، والقسم الثانى بتناول أحوال النيل وحوادث الطاعون الذى اجتاح مصر عام ٥٩٧ هـ وحوادث العام الذى يليه.

وقد تفوق البغدادى على الكثير من المؤرخين والرحالة، بدقة البحث والوصف، والترفع عن الاستماع للترهات والخرافات التى يأباها المنطق العلمى السليم، فإذا تحدث عن النبات والحيوان فى مصر، تناول ذلك بالبحث والتحليل والمقارنة.. وحين تحدث عن النيل ومنابعه ومصبه وفيضانه ونقصه، تحدث باسلوب الجغرافى العالم..

وعبر البغدادى عن دهشته وإعجابه بالتراث الخالد.. من آثار وفنون. الذى أورثته مصر الفرعونية إلى مصر الإسلامية، فيصف عظمة وضخامة آثارها بقوله[1]: «وإذا رأى اللبيب هذه الاثار، عذر العوام فى اعتقادهم عن الأوائل، بأن أعمارهم كانت طويلة وجثثهم عظيمة، أو أنه كان لهم عصا إذا ضربوا بها الحجر، سعى بين أيديهم، وذلك أن الأذهان تقصر عن مقدار ما يحتاج إليه فى ذلك من علم الهندسة، واجتماع الهمة وتوفر العزيمة، ومصابرة العمل والتمكن من الآلات، والتفرغ للأعمال والعلم بمعرفة أعضاء الحيوان، وخاصة الإنسان، ومقاديرها ونسب بعضها من بعض وكيفية تركيبها، وبصفاتها وصنع بعضها من بعض..».

وطاف البغدادى بين الأهرام والمعابد والمقابر والتماثيل والمسلات، وقد بهرته هندستها وبديع صنعها، فيقول عن الأهرام[2]: «.. وأما الأهرام المتحدث عنها، المشار إليها، الموصوفة بالعظم، فثلاثة أهرام موضوعه على خط مستقيم بالجيزة، وبينها مسافات يسيره، وزواياها متقابلة نحو المشرق، وإثنان منها عظميان جداً وفى قدر واحد، وبهما أولع الشعراء، وشبهوها بنهدين قد نهدا فى صدر الديار المصرية، وهما متقاربان جدا، ومبنيان بالحجارة البيض، وأما الثالث فينقص عنهما بنحو الربع، لكنه مبنى بحجارة الصوان الأحمر المنقط الشديد الصلابة، ولا يؤثر فيه الحديد إلا فى الزمن الطويل، وتجده صغيرا بالقياس إلى ذينك، فإذا قربت منه وأفردته بالنظر هالك مرآه، وحسر الطرف عند تأمله.

وقد سلك فى بناية الأهرام طريق عجيب من الشكل والاتقان، ولذلك صبرت على مر الزمان، بل على مرها صبر الزمان، فإنك إذا تحريتها وجدت الأذهان الشريفة

---

(١) الإفادة والإعتبار: عبد اللطف البغدادى، ص ٥٧، طبقة دار قتيبة بدمشق، تحقيق أحمد غسان سبانو.

(٢) المصدر السابق: ص ٤٥

قد استهلكت فيها، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها، والملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثلا هى غاية إمكانها حتى أنها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالهم وتنطق عن علومهم وأذهانهم، وتترجم عن سيرهم وأخبارهم..» ثم يمضى فى وصف بناءها الهندسى..

كما يصف نقوشها الهيروغليفية فيقول: «.. وعلى تلك الحجارة، كتابة بالقلم القديم المجهول، الذى لم أجد بديار مصر، من يزعم أنه سمع بمن يعرفه، وهذه الكتابات كثيرة جداً حتى لو نقل ما على الهرمين فقط إلى صحف، لكانت زهاء عشرة آلاف صحيفة[1].

ثم يصف دقة تناسب رأس تمثال أبى الهول، فيقول: «.. وعند هذه الأهرام، صورة رأس بارزة من الأرض فى غاية العظم، يسميه الناس أبا الهول، ويزعمون أن جثته مدفونة تحت الأرض، ويقتضى القياس أن تكون جثته بالنسبة إلى رأسه، سبعين ذراعاً فصاعداً، وفى وجهه حمرة ودهان أحمر يلمع، عليه رونق الطراوة، وهو حسن الصورة مقبولها، عليه مسحة بلهاء وجمال، كأنه يضحك تبسماً. وسألنى بعض الفضلاء: ما أعجب ما رأيت؟ فقلت تناسب وجه أبى الهول..»[2].

ويصف البغدادى إرتقاء فنون العمارة فى القاهرة، فى ذلك العصر، فيقول[3]: «.. وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة، وترتيب فى الغاية، حتى أنهم قلما يتركون مكانا غفلا خاليا عن مصلحة، ودورهم أفيح وغالب سكناهم فى الأعالى، ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة، وقلما تجد منزلا إلا وتجد فيه باذاهنج[4]. وباذاهنجاتهم كبار واسطة للريح عليها تسلط، ويحكمونها غاية الإحكام، حتى أنه يغرم على عمارة الواحدة منها مائة دينار إلى خمسمائة.. وأسواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة، ويبنون الحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الآجر، وشكل طوبهم

---

(١) المرجع السابق : ص ٤٨ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٩ .

(٣) المرجع السابق : ص ٦٨ .

(٤) باذاهنج : لفظة فارسية بمعنى منفذ التهوية، ويوجد بأعلى المبانى، وهو عبارة عن فتحة تمتد من أعلى المبنى حتى تصل إلى فناء الدار أو صحنه، على أن يكون فى النهاية الشمالية أو الغربية للمبنى، ويعرف فى مصر باسم (الملقف) أما إذا وجدت فى منتصف الدار، فإنه يطلق عليها إسم (الشخشيخة) وهو ما كان شائعا فى بيوت وقصور العصر العثمانى.

على نصف طوب العراق، ويحكمون قنوات المراحيض حتى أنه يخرب الدار، والقناة قائمة، ويحفرون الكنف إلى العين، فيغبر عليها برهة من الدهر طويلة، ولا يفتقر إلى كسح..

وإذا أرادوا بناء ربع أو دار ملكية أو قيسارية، استحضر المهندس، وفوض إليه العمل، فيعمد إلى العرصة وهى تل تراب أو نحوه، فيقسمها فى ذهنه ويرتبها بحسب ما يقترح عليه، ثم يعمد إلى جزء من تلك العرصة فيعمره ويكمله، بحيث ينتفع به على انفراده ويسكن، ثم يعمد إلى جزء آخر، ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال الأجزاء من غير خلل ولا إستدراك».

وصف حمامات القاهرة

تعد الحمامات عنصراً هاماً فى البنية الأساسية للمدينة الإسلامية، يضاف إلى المسجد الجامع والسوق ودار الإمارة.. وكانت حمامات القاهرة من أجمل حمامات الشرق، وقد وجدت فى رحلة عبد اللطيف البغدادى: «الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر». أدق وصف لحمامات القاهرة..فيقول*

«وأما حماماتهم، فلم أشاهد بالبلاد أتقن منها وصفاً ولا أتم حكمه ولا أحسن منظراً ومخبراً، أما أولا فإن أحواضها يسع الواحد منها، ما بين راويتين إلى أربع روايا وأكثر من ذلك. يصب فيه ميزايان ثجاجان حار وبارد، وقبل ذلك يصبان فى حوض صغير جداً مرتفع، فإذا إختلطا فيه جرى منه إلى الحوض الكبير، وهذا الحوض نحو ربعة فوق الأرض، وسائره فى عمقها، ينزل إليه المستحم فيستنقع فيه.

وداخل الحمام مقاصير بأبواب، وفى المسلخ أيضا مقاصير لأرباب التخصص، حتى لا يختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عوراتهم. وهذا المسلخ بمقاصيره حسن القسمة، مليح البنية، وفى وسطه بركة مُرخّمة وعليها أعمدة وقبة، وجميع ذلك مزوق السقف، مفوف الجدران مبيضها مرخم الأرض بأصناف الرخام مجزع باختلاف ألوانه، وترخيم الداخل يكون أبدا أحسن من ترخيم الخارج، وهو مع ذلك كثير الضياء مرتفع الأزاج، جاماته مختلفة الألوان ضافية الأصباغ، بحيث إذا دخله الإنسان، لم يؤثر الخروج منه، لأنه إذا بالغ بعض الرؤساء أن يتخذ دارا لجلوسه وتناهى فى ذلك، لم تكن أحسن منه.

وفى موقده حكمة عجيبة، وذلك أن يتخذ بيت النار، وعليه قبة مفتوحة بحيث يصل إليها لسان النار، ويُصف على أفاريزها أربع قدور رصاص، كقدور الهراس لكنها أكبر منها، وتتصل هذه القدور قرب أعاليها، بمجاور من أنابيب، فيدخل الماء من مجرى البير إلى فسقية عظيمة، ثم منها إلى القدر الأولى، فيكون فيها بارداً على حالة، ثم يجرى منها إلي الثانية فيسخن قليلا، ثم إلى الثالثة فيسخن أكثر من ذلك، ثم إلى الرابعة فيتناهى حَره، ثم يخرج من الرابعة إلى مجارى الحمام، فلا يزال الماء جارياً وحاراً بأيسر كلفة وأهون سعى وأقصر زمان، وهذا العمل حاكوا به فعل الطبيعة فى بطون الحيوان وطبخها الغذاء...

---

* «الإفادة والإعتبار..» عبد اللطيف البغدادى ص ٦٩ - ٧١.
* راجع وصف حمامات القاهرة، لإدوارد وليم لين، ص.

ويفرشون أرض الأتون، التى هى مقر النار، بنحو خمسين أردبا ملحا، وهكذا يفعلون بأرض الأفران، لأن الملح من طبعه حفظ الحرارة».

القاهرة

كما رآها ابن خلدون

في وصفه للقاهرة، التى وصل إليها أول ذى القعدة من سنة ٧٨٤ هـ، ليتولى قضاء مصر، قال ابن خلدون:

«..رأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر[١] من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسى الملك، تلوح القصور والأواوين فى جوه، وتزهر الخوانك[٢] والمدارس بآفاقه، وتضئ البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة[٣]، ومدفع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل سيحه[٤]، ويجبى إليهم الثمرات والخيرات ثجه[٥]، ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم.

ومازلنا نحدث عن هذا البلد، وبعد مداه فى العمران، واتساع الأحوال، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا، حاجهم وتاجرهم، بالحديث عنه، سألت صاحبنا قاضى الجماعة بفاس، وكبير العلماء بالمغرب، أبا عبد الله المقرى، فقلت له: كيف هذه القاهرة؟ فقال: من لم يرها، لم يعرف عز الإسلام.

وسألت شيخنا أبا العباس ابن ادريس، كبير العلماء ببجاية مثل ذلك، فقال :

---

(١) المدرج : الطريق. والذر: النمل الأحمر الصغير.

(٢) جمع خانقاه : بالقاف والكاف، وترسم «خانكة» أيضا: مسكن للصوفية المنقطعين للعبادة والأعمال الصالحة، وأول خانقاة بمصر، كانت خانقاة الصالحية، وقد خصصها صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٩هـ، للفقراء الصوفية الوافدين من بلاد بعيدة، وجعل لها أوقافا.

(٣) يشير ابن خلدون هنا، إلى ما يقص حول نهر النيل، من أنه أحد أنهار الجنة، كدجلة والفرات وسيحان. (خطط المقريزى، جـ١ ص ٨٠ - ٨١) على أن ابن خلدون لم يلتفت إلى هذا، حين تحدث عن هذه الأنهار فى مقدمته، وقد نقد ياقوت فى معجمه، هذه الأقاصيص ووصفها بأنها «حديث خرافة».

(٤) السيح : الماء الجارى على الأرض.

(٥) الثج : الصب الكثير. وفى القرآن : «وأنزلنا من العصرات ماء ثجاجا» سورة النبأ : ١٤، وثجيج الوادى: سيله.

(١) قال المقريزى : «... قال شيخنا الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون : أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب!»(الخطط : جـ١ ص ٧٩).

(٢) تجدر الإشارة بأن «ذم أهل مصر» كان مرادفا أيضا لفضائلهم، بدأه الجاحظ ونقل عنه المتأخرون عندما قال: «أهل مصر أعقل الناس صغارا وأحمقهم كبارا»! كذلك لما جاء أبو دلامة إلى مصر، وعندما عاد إلى العراق، سئل عنها فقال : «ثلثها كلاب وثلثها تراب وثلثها دواب، فقيل له: فأين الناس؟ قال : فى الثلث الأول»! وأورد المقدسى أن مشايخهم لا يتورعون عن شرب الخمر، ولا نساؤهم عن الفجور «للمرأة زوجان.. مع سمرة وقبح لسان»! ثم يأتى العبدرى بعد ذلك، ويبالغ فى ذم أهل مصر، ويذكر ما قاساه ابن جبير بالاسكندرية، ويخص القاهرة وأهلها بهجائه، فالقاهرة كما رآها: «مدينة كبيرة القطر، وساكنها يحاكى عدد الرمل، وهى مع ذلك تصغر عن أن يسطر ذكرها في سطر»! ثم يستطرد قائلا: «وحسبها شرًا أنها وعاء لحثالة العباد ونفاة البلاد، سم الغش ممزوج فى عسل النحل، خرجت عمارتها عن الحد المألوف، وزادت كثيرا على القدر المعروف، أما بغضهم للغريب وتمالؤهم على ذلك، فأمر لا يحيط به علما، إلا من عاينه، ما رأيت بالمغرب الأقصى والأندلس على شكاسة أخلاقهم»! ويضيف أيضا: «وحق لمدينة، وضع أساسها عبد الزنادقة - غلام بنى عبيد - لعنهم الله، أن تجمع أخلاق العبيد وأحوال الزنادقة»، «قل ما ترى من أهلها، رجلا صافي اللون، إلا كان من غيرها» !

القاهرة فى نهاية القرن الثالث عشر

كما شاهدها التجيبى السبتى

عزم القاسم بن يوسف بن محمد على التجيبى السبتى[1]، على الإرتحال إلى المشرق، بغرض تأدية فريضة الحج، ولا يعرف تاريخ بداية إنطلاقه إلى هذه الرحلة - نظرا لافتقاد الجزء الأول - من مصنفه المعروف بإسم «مستفاد الرحلة والإغتراب»[2] حيث لم يصل إلينا إلا مجلد واحد، يصف فيه رحلته ومشاهداته بالديار المصرية وجده ومكة المكرمة..

غير أنه سجل تاريخ لقائه بالشيخ «إبن دقيق العيد» الذى أخذ عنه بالمدرسة الكاملية بالقاهرة، وذلك فى السادس من جمادى الأولى عام ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦م.

ويقول فى وصفه للقاهرة، بعد أن يتحدث عن بناء وتخطيط جوهر الصقلى لها، وقصر الخليفة، وقلعة صلاح الدين.. «وفيها الإيوان العجيب الشأن، العظيم البنيان،

---

(١) ولد التجيبى بمدينة سبته عام (٦٧٠هـ / ١٢٧١) فى عهد دولة بنى مرين، تنقل بين مدن المغرب الأقصى حيث المراكز الثقافية المختلفة، حفظ القرآن، ودروس علم القراءات وكتب التفسير وعلوم اللغة والنحو، وعلوم الحديث والسنن والفقه والتصوف، وقد ضمن رحلته أشتاتا مما أفاده من لقاء علماء عصره وما روى عنهم.

(٢) «مستفاد الرحلة والإغتراب» تحقيق : عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب بليبيا وتونس، ١٩٧٥.

القائم على أعمدة الرخام الهائلة، البديعة الشكل، المعدومة النظير.. على نحو ما وصف عن إيوان كسرى».. ..

«وهذه المدينة المعزية حافلة الأسواق، عظيمة الترتيب، تشتمل من المخلوق على عدد لا يحصيهم إلا خالقهم ورازقهم جل وتعالى الذى أحصى كل شئ عددا، ما رأينا قط مدينة أكثر ناساً منها، ولا بلغنا أن فى المعمورة، مدينة على قدرها، فيها من البشر قدر ما فى هذه، ولا ما يقارب ذلك الأمر فى كثرة ناسها ونزلائها، واختلاف أجناسهم وبلدانهم أكثر مما يقدر[1].. ..

«وبنى فيها الأمراء والملوك وذوو اليسار، المدارس المنيفة الهائلة، المزخرفة بالذهب الإبريز، المفروشة بالرخام المجزع البديع الصنعة، ورتبوا أرزاقاً جمه من أوقاف عظيمة وقفوها من عقار وغيره، ينعاش منها أهل العلم على طبقاتهم واختلاف مذاهبهم ومعلوماتهم، فبسبب ذلك أيضا كثر طلاب العلم بها».

ويمضى بنا فى وصفه للقاهرة فيقول :

---

(١) فى سنة ٧٣٦ / ١٣٣٥ قام خالد بن عيسى البلوى الأندلسى، برحلته الحجازية، وفى القاهرة أعطانا تفصيلات مطولة - أكثر من سابقيه - عن المبانى والأسواق والمساجد والمدارس والمصانع، كما أمدنا بإحصاءات توصل إلى نقلها عن المسئولين: فالمراكب الموجودة فى النيل ..١ ألف مركب، والجمال الداخلة إلى القاهرة بالماء ..٢ ألف جمل كل يوم، إلى جانب ٦٠ ألفا من الدكاكين الخاصة بالسقائين داخل المدينة. أما عن القرافة التى أصبحت من المعالم الشهيرة بالقاهرة يقول : «هى بلدة كبيرة منفردة بذاتها مستقلة بأسواقها ومساجدها، بها قبور النبيين! ومشهد الإمام الشافعى وبجوار مدرسة عظيمة» وينزل بالقرب من الجامع الأعظم المشهور جامع ابن طولون، ويتردد على جامع عمرو، ويسجل زيارته لمشهد الحسين ويبدى دهشته لشدة الزحام، ومشهد السيدة نفيسة العلم ومشهد السيدة رقية وتربة زيد بن الحسين خارج القاهرة. وقد أثار مارستان قلاوون، إعجاب البلوى، فقال عنه: «لو لم يكن للقاهرة ما تذكر به إلا المارستان وحده لكفاها، وهو قصر عظيم من القصور الرائقة حسنا وجمالا واتساعا، لم يعهد مثله لقطر من الأقطار، أحسن بناء ولا أبدع إنشاء ولا أكمل إنتهاء فى الحسن.. والمارستان يستقبل ...٤ مريض فى اليوم، وكل حاجات المرضى متوفرة فيه من الأشربة والأكحال والضأن واللبوس، ويشرف عليه الأطباء الماهرون والنظار والخدام... ثم يقول : ما وقعت عينى على مثله ولا سمعت أذنى بشبيهه وشكله». (ملاحظات عن مصر : مصدر سابق، ص ١٠٩ - ١١٠).

«وبهذه القاعدة العليه، مارستان عظيم القدر (١)، شهير الذكر، يقصر عنه أعظم قصر من قصور الملوك، معد للمرضى وذوى العاهات، إبتناه الملك الأجل المجاهد قلاوون الصالحي الملقب بالمنصور ووقف عليه أموالا عظيمة، ورتب فيها الأطباء والخراج، ومن يعالج أمر المرضى، ويتفقد أحوالهم بكرة وعشيه، وجعل فيها من عقاقير الهند كثيراً مما لا يكاد يوجد إلا فى خزائن الملوك وذخائرهم، رفقا من الله تعالى بالمرضى فى هذه المدينة، وفيه من الكسى والأغذية ما يناسب ذلك، وبنى أيضا هذا الملك الأجل، بإزاء ذلك المارستان، وعن يمين الداخل إليه، روضة عظيمة، وضع فيها قبة سامية فى الهواء، مزخرفة بالذهب الإبريز، ورتب فيها طائفة من القراء، وجملة وافرة من أرباب العلوم وأجرى لجميعهم أرزاقا جمة، من أوقاف عظيمة وقفها عليها، وبها هو مدفون رحمه الله، عاينا قبره هناك..

وابتنى أيضا، قبالة هذه التربة، مدرسة حافلة عن يسار الداخل للمارستان المذكور، مزخرفة بالذهب، وفيها أيضا جماعة من أهل العلم..

ولهذه المواضع الثلاثة، باب واحد يشرع فى الشارع المعروف بشارع - بين القصرين - وهذا الشارع هو أعظم موضع فى هذه المدينة وأشرفه، وهو من عجائب

---

(١) بدأ تشييد هذا المارستان فى أول ربيع الآخر سنة ٦٨٢ هـ، وكان سبب بنائه أن السلطان المنصور قلاوون، لما توجه وهو أمير إلى غزو الروم فى عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٧م، أصابه بدمشق قولنج عظيم، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من مارستان نور الدين الشهيد، فبرئ من مرضه، ثم شاهد هذا المارستان وأعجب به، ونذر إلى الله إن أتاه الملك أن يبنى مارستانا، فلما تسلطن شرع فى ذلك، فوقع اختياره على الدار القطبية - دار الملك المفضل قطب الدين أحمد ابن الملك العادل أبو بكر الأيوبى - حيث عوض ذريته عنها بقصر الزمرد برحبه باب العيد (خطط المقريزى - جـ٢ ص ٤٠٦).

ولنتأمل جيدًا وصف «جومار» لأساليب العلاج الراقية داخل هذا المارستان - دون أدنى مقارنة بما يحدث فى مستشفيات القاهرة على مشارف القرن الحادى والعشرين! - فيقول : «.. وقد خصص لكل نوع من الأمراض قاعة خاصة، يشرف عليها طبيب مخصص، وكان كل من الجنسين يشغل قسمًا مستقلاً من المبنى، كما كان يقبل به جميع المرضى، أغنياء كانوا أم فقراء بدون تمييز، كما أن الأطباء الذين كانوا يستقدمون من جميع أنحاء الشرق كانوا يعاملون بكرم زائد، كذلك فقد ألحقت بالمنشأة صيدلية مزودة بكل ما يلزم، كما أن المرضى المصابين بالأرق كانوا ينقلون إلى قاعة منفصلة حيث يستمعون إلى عزف موسيقى جيد الإيقاع أو يتولى رواه مدربون تسليتهم بحكاياتهم، ويقال أن المريض الواحد كان يتكلف دينارا فى اليوم ويخصص لخدمته شخصان، وفور أن يسترد المريض صحته، يتم عزله عن بقية المرضى، ويسمح له بالاستمتاع بمشاهد الرقص، ويعرض أمامه فصول ضاحكة، وأخيرا فإنه يمنح عند مغادرته للمارستان خمس قطع ذهبية (دنانير) حتى لا يضطر أن يلجأ على الفور إلى الأعمال الشاقة»! (وصف القاهرة وقلعة الجبل : ترجمة د. أيمن فؤاد، ص ١٩٦).

الدنيا حسنًا واتساعًا وزخرفة مبان، وكثرة مدارس، عن يمين وشمال، وبه روضات الملوك الهائلة المنظر، إلى غير ذلك من محاسنه التى تعجز عن وصفها، وهذا الشارع يمتد من باب زويلة إلى باب الفتوح، وما أعلم له فى الدنيا نظيرًا.

وفى داخل هذه المدينة، جامعان : أحدهما فى شرقيها، وهو المعروف بجامع الحاكم، وهو غاية فى الكبر، قل أن يوجد فى الحواضر الكبار جامع على قدره، بناه الحاكم بأمر الله أبو علي.. .. والجامع الآخر بغربيها. وهو دون هذا فى الكبر، ويعرفونه بالجامع الأزهر[1]. وبإزاء المدينة فى أرباضها جملة جوامع للخطبة، وبين مصر والقاهرة، الجامع العظيم الشأن المنسوب لأبى العباس أحمد بن طولون رحمه الله تعالى، وهو الذى بناه، وأنفق فيه أموالا عظيمة.. (مائة وعشرون ألف دينار)..

واعتنى بإصلاحه، الملك الأجل حسام الدين والدنيا أبو الفتح لاچين، الملقب بالمنصور، وأنفق فيه أموالاً عظيمة، عاينا فيه من الصنّاع جملة كثيرة، ووضع فيه قبة جعل فيها طيقان صفر صغارا على عدد ساعات الليل والنهار مفتحة، فإذا مرت ساعة، إنغلق الطاق الذى هو لتلك الساعة، وهو تدبير عجيب، ولا تزال كذلك تنغلق الأبواب كلها، وتنقضى الساعات، ثم تعود إلى حالها الأول[2]!!

---

(١) أحيل القارئ إلى العديد من الدراسات التى تناولت تاريخ وعمارة الجامع الأزهر، منها : تاريخ الجامع الأزهر : محمد عبد الله عنان، ١٩٥٨ مساجد القاهرة ومدارسها : د. أحمد فكرى؛ ١٩٦٦ : تاريخ المساجد الأثرية : حسن عبد الوهاب ١٩٤٦؛ لمحة فى تاريخ الأزهر : محب الدين الخطيب ١٣٤٥ هـ؛ رسالة فى تاريخ الأزهر : مصطفى بيرم ١٣٢١ هـ؛ الأزهر بين الماضى والحاضر : د. منصور رجب ١٩٤٦؛ الأزهر وما حوله من الآثار : د. عبد الرحمن زكى ١٩٧.؛ الأزهر تاريخه وتطوره: وزارة الأوقاف ١٩٦٤؛ مساجد مصر وأولياؤها الصالحون : د. سعاد ماهر، الأزهر، جامعا وجامعة : عبد العزيز الشناوى.. وغيرها.. بالإضافة إلى خطط المقريزى وبدائع الزهور لابن إياس وتاريخ الجبرتى وحسن المحاضرة للسيوطى والخطط التوفيقية لعلى مبارك..

(٢) تفرد التجيبي السبتى بذكر أمر هذه «الساعة الشمسية» أو المزولة، دون أىّ من الرحالة، أو ممن أرخوا لهذا الجامع! وقد إختفت هذه الساعة الرائعة الى كانت تزين قبل كسرها جامع ابن طولون، منذ سنة ٦٩٦ هـ، وكانت تفيد رواده بالوقت الذى مضى من شروق الشمس وما تبقى إلى غروبها، وكانت تحدد ميقات صلاتى الظهر والعصر، وقد اختفت أثناء البحوث التى أجراها عليها العلماء الفرنسيين إبان حملة نابليون وقد رسمها أحد أعضاء البعثة رسمًا دقيقا، وكانت هذه الساعة الشمسية تفوق فى دقتها وصنعها، ثلاث من نظيراتها موجودة بمتاحف اسبانيا، ويرجع عهدها إلى العصر الإسلامى بالأندلس، وهناك دراسة منشورة عن ساعة جامع ابن طولون مع صور توضيحية» انظر : مجلة تاريخ العلوم العربية، المجلد الثانى عدد ٢؛ تشرين الثانى ١٩٧٨ - جامعة حلب ؛ L. janin et D.King: Le colaire solaire de la mosquée d'iln Tulun au Caire, p.331 - 357.

.. .. ولهذه المدينة عدة أبواب[1]، منها : باب زويلة وهو أعظمها، ومنه كان دخولنا لهذه المدينة، وهو أقصر أبوابها، منه يمر على الممر الأعظم الفضى إلى شارع بين القصرين، ولا يزال ازدحام الناس فى هذا الباب أبدا دائما، ومنها الباب المحروق، وباب القراطين، وباب البرقيين (البرقية)، وباب النصر، وباب الفتوح، وباب الشعرية، وباب القنطرة، وباب البحر، وباب الخوخة، وباب السعادة، وباب الفرج.

لقلعتها أبواب[2]، منها : باب القرافة، وباب السر، وباب الإصطبل، ومنه يدخل الملك.

وأمر هذه المدينة عظيم، وخطرها جسيم، ومبانيها مرتفعة رائقة، وبضاعتها نافقه، إنما أشرنا إلى نبذة من وصفها، والله يبقيها دار إسلام، ويحرسها ويكلؤها وسائر بلاد الإسلام والمسلمين بمنه وكرمه».

(١) لمزيد من التفاصيل، راجع «خطط المقريزى» : جـ١ ص ٣٨١ - ٣٨٣.

(٢) عن تاريخ قلعة الجبل، راجع : صبح الأعشى للقلقشندى : جـ٣ ص ٣٧٢ - ٣٧٨، تاريخ ووصف قلعة القاهرة : كازانوفا، ترجمة : أحمد دراج؛ وصف قلعة الجبل : كريزويل، ترجمة : جمال محرز ومراجعة د. عبد الرحمن زكى، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لإبن فضل الله العمرى : تحقيق د. أيمن فؤاد ص ٧٩ - ٨٤، خطط المقريزى : جـ٢ ص ٢٠١ : ٢٣٢.

صفحة جديدة ٨١

المقريزى..

وقاهرة القرن الخامس عشر.

انتهت مصر الإسلامية فى القرن الخامس عشر، إلى طور من الضعف والدعة، وكانت هذه المرحلة خاتمة تطورات وانقلابات عديدة، سياسية واجتماعية.. وكان الركود السياسى والاجتماعى الذى ساد مصر آنذاك، مقدمة لأفدح خطب نزل بها وباستقلالها وبحضارتها وبحياتها الاجتماعية.. وأعنى الغزو العثمانى.

وحل بالمجتمع المصرى يومئذ، كافة مظاهر الإنحلال الفكرى والأخلاقى، كنتيجة طبيعية لإنحلال النظم العامة للدولة وفساد الطبقات الخاصة.. وكأنما لم تكن أقدار المجتمعات أكثر من مصير سلطان أو أمير، ولم تكن مصاير الشعوب أكثر من هوى يضطرم به الحاكم..!

وكان المقريزى[1] زعيم هذه المدرسة التاريخية الباهرة، التى أزدهرت بمصر خلال

---

(١) هو تقى الدين أحمد بن على عبد القادر بن محمد ويعرف بالمقريزى، ولد بالقاهرة عام ٧٦٦ هـ/١٣٦٤م، وتوفى بها فى عام ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م.. وأهم مؤلفاته: «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»؛ «السلوك، فى دول الملوك»؛ «اتعاظ الحنفاء، بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء»، «المقفى أو التاريخ الكبير».. «درر العقود المفيدة فى تراجم الأعيان المفيدة»؛ «عقد جواهر الأسفاط، فى ملوك مصر والفسطاط» و «البيان والإعراب، عما بمصر من الأعراب» وغيرها..

القرن الخامس عشر، وخصت مصر وتاريخها بأعظم جهودها.. والتى أخرجت لنا : العينى وأبو المحاسن ابن تغرى بردى والسخاوى وابن إياس، ومازالت آثارها بين أيدينا، أعظم تراث تلقيناه عن تاريخ مصر الإسلامية[١].

وإذا لم يكن المقريزى، أول مبتدع لتاريخ الخطط، فهو بلا ريب أعظم مؤرخيها جميعًا، وأغرزهم مادة، وأقواهم عرضا، وأوفرهم جلدًا ومثابرة فى الاستقصاء، فقدم لنا عرضا مستفيضا لجغرافية مصر والقاهرة والنيل، وصورًا هامة ودقيقة لتاريخ مصر السياسى والاجتماعى والاقتصادى والعمرانى والفكرى، منذ الفتح الإسلامى..

وقدم لنا المجتمع القاهرى فى أثوابه المختلفة، زاهية وقاتمة، وعنى بشرح نظمه السياسية والإدارية والاقتصادية، ورسوم البلاط القاهرى فى عصوره المختلفة، والحياة العامة والخاصة للخلفاء والسلاطين، ومواكبهم ومآدبهم وأخلاقهم.. كما تناول خطط القاهرة القديمة، وتطوراتها الجغرافية والعمرانية، وأحياؤها وآثارها.. من مساجد وقصور ورياض ومدارس وزوايا وتكايا وأسبلة وحمامات وخلجان وبرك ومقابر ووكالات وأسواق وشوارع وسجون وثكنات، وكل ما احتوت من بذخ وبهاء وفن.. كما عرض لحياة الشعب الخاصة، وعادات وتقاليد أفراده فى المعاملات والملبس والمأكل، وأفراحهم وأتراحهم، وجدهم وهزلهم.. مع بيان واضح وأسلوب رائع يخلب الألباب، فكانت «خطط المقريزى» أثرا خالدا وموضعًا للتقدير من كل مؤرخ ومفكر، ومازالت إلى يومنا هذا، من أنفس المصادر فى تاريخ مصر والقاهرة الإسلامية.

ومن خلال وصف المقريزى، نستطيع أن نكون صورة واضحة المعالم، لما كانت عليه القاهرة فى القرن الخامس عشر، فيقول[٢]:

«وتحوى مصر والقاهرة، من الجوامع والمساجد، والربط والزوايا والمدارس، والدور العظيمة والمساكن الجليلة، والمناظر البهجة والقصور الشامخة، والبساتين النضرة والحمامات الفاخرة، والقياسر المعمورة بأصناف الأنواع. والأسواق المملوءة مما تشتهى الأنفس، والخانات المشحونة بالواردين، والفنادق الكاظة بالسكان، والترب التى تحكى القصور، مما لا يمكن حصره ولا ما يعرف ما هو قدره».

لم تعد القاهرة فى القرن الخامس عشر، ذلك المجتمع المحدود القاصر على رجال البلاط بين قصور الفاطميين الباهرة، فقد إمتدت من جميع الإتجاهات، إلا من جهة

---

(١) مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية : محمد عبد الله عنان، ص ٤٤

(٢) خطط المقريزى : جـ١ ص ٣٦١

المشرق، لتتعدى بوابيتها الشماليتين، وتكونت الضاحية الجديدة التى أطلق عليها «الحسينية» إنتشرت بها الدور والمساجد، وامتد العمران إلى الغرب فيما بين سور القاهرة الفاطمية ونهر النيل، الذى إنحسر ماؤه، تمهيداً لظهور ميناء جديدة عرفت باسم «بولاق» ثم إنتشرت حركة العمران فوق ذلك الجزء الذى كان فيما مضى، مجرى للنيل، ونشأت القصور والمناظر والبساتين النضرة، بطول حافة النيل، من منية السيرج إلى موردة الخلفاء.. ثم حدث أن تحطمت سفينة كبيرة تسمى «الفيل» تركت فى مكانها، ونتج عن ذلك أن تكونت جزيرة رملية سميت «جزيرة الفيل».. هذا من جهة الغرب.

أما من الجهة الجنوبية، فيما بين سور القاهرة الفاطمية والقلعة وجامع إبن طولون، والتى لم يكن بها حتى عهد صلاح الدين، سوى البساتين والمنازل الصيفية والغدران التى تنشأ من فيضان النيل، فقد ازدحمت بالبيوت والقصور التى شيد معظمها المماليك.

«وفى واقع الأمر، لم يكن هناك كبير فرق بين قاهرة القرن الخامس عشر، وتلك القاهرة التى زارها وكتب عنها، أو صورها الرحالة والكتاب والفنانون الأوربيون أمثال: ولكنسون Wilkinson وبورخاروت Burc_hardt وإدوارد لين E. Lane وجون فيليب John philip وهاى Hay وكارتر Carter فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، والتى كانت لا تزال تحتفظ بأهم خصائصها فى العصر الوسيط، وقبل أن تنمو الأحياء الأوربية على ضفاف النيل»[1]..

لقد كانت القاهرة فى القرن الخامس عشر، مدينة الجمال والتناسق المعمارى، وقصور المماليك القديمة، والتى مازالت آثار بعضها ممثلة فى بقايا قصر «بشتاك»[2] والبوابة الضخمة لدار «يزبك» الملاصقة لجامع السلطان حسن، وبعض قصور قايتباى وقصر الأمير ماماى (بيت القاضى) كانت فى أوج بهاءها ذلك العصر.

---

(١) «سيرة القاهرة» ستانلى لين بول، ترجمة: حسن وعلى إبراهيم حسن، ص ٢١٣.

(٢) قال المقريزى : «هذا القصر من أعظم مبانى القاهرة، فإن إرتفاعه فى الهواء أربعون ذراعاً، ونزول أساسه فى الأرض مثل ذلك، والماء يجرى بأعلاه، وله شبابيك من حديد، تشرف على شارع القاهرة، وينظر من أعلاه عامة القاهرة والقلعة والنيل والبساتين وهو مشرق جليل مع حسن بنائه وتأنق زخرفته والمبالغة فى تزويقه وترخيمه وكان بأسفله حوانيت يباع فيها الحلوى وغيرها..» ولمزيد من التفاصيل بشأن هذا القصر، راجع خطط المقريزى : جـ٢، ص ٧٠ - ٧١.

وكانت أحياء القاهرة، لا تزال تفصلها عن بعضها البعض، أبواب خشبية ضخمة[1]، توصد على سكان الحى، حينما يرخى الليل سدوله، وكانت الأسواق تظللها الحصر أو الأسقف الخشبية، كما كانت المشربيات الرائعة الصنع تطل على الشوارع..

وقد وصف لنا المقريزى فى خططه[2]: ٣٧ حارة أو حياً، ٣٠ خطاً، ٦٥ شارعاً أو درباً، ٢١ زقاقا وخوخة، ٤٩ ميدانا أو رحبة، ٥٠ سوقاً، ٢٣ قيساريه (سوقاً كبيرة)، ١١ خاناً أو فندقاً أو وكالة، ٥٥ قصرا شهيراً، ٤٤ حماماً عاماً، ٢٨ بستاناً، ١١ ميدانا للسباق وكثيرا من منازل النزهة (منظرة).

ولا يزال كثير من شوارع القاهرة، تحتفظ بأسمائها القديمة مثل: الصليبة، بين القصرين، حارة برجوان، سوق السلاح، خان الخليلى، الدرب الأصفر، الحبانية والخرنفش وغيرها..

وقد لعبت القاهرة - آنذاك - دوراً خطيراً فى التجارة العالمية، فكانت بموقعها الفريد، ملتقى تجارات الشرق والغرب، وعاد هذا النشاط التجارى على تجار القاهرة وأهلها، بالثراء والأرباح الهائلة، وكنتيجة لانتعاش وازدهار تجارة الترانزيت بين الهند

---

(١) «وكان لكل حارة باب (بوابة) عند مدخل الشارع المؤدى إليها، وقد ظل بعضها باقيا حتى الآن مثل بوابة - حارة المبيضة - التى أنشئت عام ١٦٧٣، هى والسبيل والوكالة المجاوران لها، وهى عبارة عن قوس من البناء يعلوه صف من الفتحات، ويغلقه مصراع كبير من الخشب المقوى بعوارض حديدية، وكان يحرس هذه الأبواب خفراء وصفهم الرحالة الأوربيون بسبب - تخشبهم الأسطورى - بأنهم يبدون وكأنهم مقيدو القدمين، كأى حصان جامح بواسطة قيد، مفتاحه بين سكان الحارة، حتى يكونوا مطمئنين.. وفى العادة كانت ثمة نقط للحراسة من بعض رجال الإنكشارية، تكمل نظام حراسة الأحياء، وهذه الأبواب التى كانت تغلق بأقفال خشبية (حنبه) لم تكن فى الحقيقة مخصصة للقيام بأى دور دفاعى أوقات الحرب، وإنما فقط لتأكيد الأمن الليلى، بمنع تجوال اللصوص الطارئين، فما أن يحل الليل، حتى تغلق أبواب الحارات، وكان على أولئك الذين يرغبون فى التنقل - فى تلك الساعة - أن يحملوا الفوانيس. ولم تكن البوابات تفتح إلا لأبناء الحارة نفسها، وللزوار المعروفين منهم مقابل جُعل متواضع للبواب، وكان هذا النظام يمكن السلطات من مراقبة تحركات الأشخاص الذين ترتاب فيهم..».
(فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية: أندرية ريمون، ترجمة: زهير الشايب، ص ٢٢ - ٢٣).

(٢) سيرة القاهرة : ستانلى لين بول، ترجمة حسن وعلى إبراهيم حسن، ص ٢٢٢.

وأوربا - والتى كانت مصدرا هاما لثروة البلاد فى عصر سلاطين المماليك - فقد ازدحمت القاهرة بالوكالات والخانات والأسواق.. وكان خان «مسرور» من أشهر وأجل خانات القاهرة، كذلك خان الخليلى أو البازار التركى، وخان السبيل وخان الحمزاوى، وفندق بلال المغيثى، وفندق دار التفاح، ووكالة قوسون، ووكالات قايتباى والغورى.. وحينما وصف إدوارد لين القاهرة فى عام ١٨٣٥، كان يوجد بها مائتى وكالة.

ومن أشهر وأعظم أسواق القاهرة «قيسارية جهادكس».. وفى النصف الأول من القرن الخامس عشر، كان فى الشارع الأعظم (المعز لدين الله) من باب الفتوح إلى باب زويله، الأسواق الآتية : سوق باب الفتوح، سوق الرواسين، سوق حارة برجوان، سوق الشماعين، الدجاجين، بين القصرين، سوق السلاح، القفيصات وحل محلها سوق النحاسين، سوق باب الزهومة، السيوفيين، الصنادقيه، الوراقين، وإذا تركنا تقاطع الشارع الأعظم مع شارع الأزهر، حتى باب زويلة، كانت الأسواق التالية: المهامزيين واللجميين، الجوخيين، الشرابشيين، الحوائصيين، الحلاويين، الشوايين، الخلعيين.. وقد اندثرت بعض هذه الأسواق، وتنوعت تجارة البعض الآخر..

صفوت عبد شلال

القاهرة بعيون ليون الإفريقي في القرن السادس عشر :
مدينة القاهرة العظمى العجيبة*

من المشهور المؤكد أن القاهرة إحدى كبريات مدن العالم العجيبة، وسأصف لكم بالتفاصيل مظهرها وموقعها، تاركاً جانباً كل الأكاذيب التى تذاع عنها هنا وهناك..

* «وصف إفريقيا»: الحسن بن محمد الوزان الفاسي، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، ص ٢٠٣ - ٢٢١، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية.

وجاء فى ترجمة المؤلف: الحسن بن محمد الوزان الفاسي، شخصية عربية إسلامية فذة، إجتمع له من الخصال العلمية والإنسانية، ما جعل الغربيين المسيحيين يقدرونه حق قدره، ويستفيدون من تأليفه الجغرافى فى عصر النهضة، بل يعتمدونه كمصدر أساسى عن أفريقيا طوال العصر الحديث، أما العرب المسلمون فلم يعرفوا عالمهم الوزان، ولم يعرفوا به، وأغفلوا كتابه القيم فى زوايا النسيان!

ينتسب الحسن الوزان إلي قبيلة بنى زيات الزناتية، الواقع موطنها فى أقصى غرب بلاد غماره من سلسلة جبال الريف المغربية، بين ساحل البحر المتوسط ومجرى وادى لاو، عاشت أسرته حقباً من الزمن فى «الفردوس المفقود»، ولد بمدينة غرناطة، قبيل سقوطها فى أيدى الأسبان، وسنة ولادته على الأرجح (٨٨٨هـ / ١٤٨٣) أى قبل سقوط غرناطة بنحو عشر سنوات. وانتقل صغيراً مع أسرته إلى فاس، حيث درس على أعلام القرويين : علوم اللغة وآدابها والعقائد والفقه والتفسير والقراءات والحديث والسير والحساب والفلك والمنطق وما إلى ذلك من العلوم المعروفة عند المسلمين.. وناظرا الفقهاء والقضاء.. فأظهر نبوغاً مبكراً، لفت إليه أنظار سلطان =

فلنبدأ باسمها : فالقاهرة كلمة عربية، لكنها محرفة فى اللغات الأوروبية، ومعناها التى تَقْهر، مؤسسها فى العصور الحديثة عبد من الصقالية يدعى «جوهر الكاتب».

والواقع أن المدينة - أعنى المدينة المسورة - تضم نحو ثمانية آلاف كانون، وفيها تسكن الأسر الكريمة، وتتدفق الثروات الواردة من كل جهة، ويوجد المسجد الجامع

= فاس - محمد الوطاسى - المعروف بالبرتغالى، فقربه إليه ونظمه فى سلك رجال بلاطه. وأسند إليه - على حداثة سنة - مهام سياسية خطيرة، هذه المهام بالإضافة إلى النشاط التجارى لأسرته، دفعته إلى القيام برحلات عديدة داخل المغرب وخارجه، وتسجيل مشاهداته فى مذكرات شبه يومية، غدت أساس كتابه «الجغرافيا العامة» وكتاب وصف إفريقيا هو القسم الثالث من هذا الكتاب، الذى ألفه بالعربية، ثم ترجم هذا القسم إلى الإيطالية. ويضم وصف إفريقيا تسع رحلات: ١ - رحلة إلى الشواطئ الغربية القريبة من فاس. ٢ - رحلة إلى وسط المغرب. ٣ - رحلة إلى بلاد السودان. ٤ - رحلة إلى الأطلس الكبير. ٥ - رحلة إلى بلاد حاحا. ٦ - رحلة من مراكش إلى سوس. ٧ - رحلة إلى الحجاز. ٨ - رحلة إلى الأستانة. ٩ - رحلة إلى البلاد الليبية والتونسية فى طريق عودته إلى المغرب..

بعد أدائه لفريضة الحج، توجه إلى الأستانة للقاء السلطان سليم الأول، سفيرا من قبل ملك فاس محمد الوطاسى، غير أن سليماً كان قد خرج بجيوشه للإستيلاء على الشام ومصر، فلحق به الوزان، وحضر معه المعارك الرهيبة التى إنتهت بهزيمة المماليك فى مصر، فى ٢١ ربيع الأول ٩٢٣ / ١٣ إبريل ١٥١٧؛ ومكث فى زيارة مصر بضعة أشهر، إلى أن خرج السلطان سليم من الاسكندرية، فصعد هو مع النيل إلى السودان، ثم أبحر إلى جده.

ومن المعروف أن البابا ليون العاشر (léonx, jean de Médicis) من بابا وات عصر النهضة الذين عملوا على إحياء العلوم والآداب والفنون، فقدم إليه العالم العربى الشاب الحسن الوزان. وسرعان ما وثقت الصلة بينهما، لذكاء الوزان وسرعة تأقلمه مع البيئة المسيحية، فهو «موريسكى» فتح عينيه فى غرناطة، والكنائس بأساقفتها وطقوسها منبثة فى أرجائها... فكان مدركا أنه من المستحيل أن يحيا حياة إسلامية فى معقل المسيحية، ولما كان فى واقع الأمر - أسيرا - فقد تظاهر بالتمسح وحمل إسم مالكة وحامية البابا، فصار يدعى AJ. léonS أو يوحنا الأسد الغرناطى وليون الافريقى.

ومما يدل على استمرار إسلام الحسن الوزان وثبات عقيدته طوال الثلاثين عاما التى قضاها أسيرًا فى إيطاليا: الصبغة الإسلامية المتحلية فى كتابه وصف إفريقيا، فكلما تحدث عن عادة أو عيد أو غير ذلك مما يخص المسلمين، نسبة إلى نفسه مع جماعة المسلمين قائلا: «عندنا» وهذا كثير فى الكتاب، بينما لم ينسب لنفسه شيئا مع المسيحيين، بخصوص الطقوس الدينية، ولو مرة واحدة. أيضا اهتمامه بالملامح الإسلامية في المدن والقرى التي زارها، وإعتزازه بالتعرف على حملة الشريعة الإسلامية من فقهاء وقضاه. التواريخ المذكورة فى وصف إفريقيا كلها هجرية =

الشهير المعروف بالجامع «الأزهر» أى اللامع.

تقوم المدينة فى سهل عند قدم جبل يسمى «المقطم» على بعد نحو ميلين من النيل، وتحدق بها أسوار جميلة متينة ذات أبواب بديعة مصفحة بالحديد، أشهرها ثلاثة: واحد يسمى «باب النصر» فى الجهة الشرقية بإتجاه الصحراء التى يقطعها الذاهب إلى البحر الأحمر، وآخر يدعى «باب زويلة» يفضى إلى النيل وإلى المدينة القديمة، وثالث يعرف بـ «باب الفتوح» ويؤدى إلى بركة كان يجتمع فيها الحجيج قبل ذهابهم فى القافلة، وإلى المتلكات المزروعة.

وفى المدينة عدد كثير من الصناع والتجار، يقيمون بالأخص فى زقاق يمتد من باب النصر إلى باب زويلة. وهناك يوجد معظم نبلاء القاهرة، وعدد من المدارس التى تثير الإعجاب بأبعادها وحسن بنائها وزخرفتها، وكذلك عدد من المساجد المنسجمة البديعة، منها جامع الحاكم ثالث الخلفاء الشيعيين الذين تولوا الحكم بالقاهرة. وهناك أيضا عدد لا يحصى من المساجد الأخرى المعروفة، لكن لا حاجة إلى ذكرها واحداً واحداً، بالإضافة إلى عدة حمامات مبنية بفن معمارى عظيم.

ويضم حى يسمى «بين القصرين» دكاكين يباع فيها اللحم الناضج، وهى ستين دكانا، كلها مجهزة بأوان من قصدير، وتباع فى أخرى مياه مصنوعة من جميع أنواع الأزهار، مذاقها رفيع جداً، ولذلك يشرب منها جميع النبلاء، ويحفظها الباعة فى قوارير جميلة جداً من الزجاج أو القصدير مصنوعة بشكل فنى، وتأتى بعدها دكاكين أخرى تباع فيها حلويات معروضة بطريقة حسنة. ومختلفة عما يباع عادة فى أوروبا، وهى نوعان : نوع بالعسل ونوع آخر بالسكر، ثم يأتى الفاكهانيون الذين يبيعون الفواكه المجلوبة من الشام، كالإجاص والسفرجل والرمان، إلخ.. .. مما لا ينبت فى مصر، وبين هذه الدكاكين، دكاكين أخرى مبعثرة تباع فيها الفطائر والبيض المقلى والجبن المقلى، وقرب هذه الدكاكين حى يسكنه الصناع الذين يزاولون مختلف المهن الشريفة.

= إلا مرات قليلة ورد فيها التاريخ الميلادى. ثم تمسكه بإسمه الإسلامى، بالرغم من مرور سنين عديدة على أسره وتداول اسمه المسيحى، فكان يوقع كتبه ورسائله فى نابولى وروما هكذا «العبد الفقير إلى الله مؤلفه يوحنا الأسد الغرناطى، المدعو قبل الحسن بن محمد الوزان الفاسى» وماذا يمكن لأسير فى مثل ظروفه أن يفعل أكثر من ذلك للتعبير عن حنينه إلى ماضيه الإسلامى!

وبعيداً من هناك، توجد المدرسة الجديدة التى بناها السلطان الغورى الذى هلك فى الحرب ضد سليم امبراطور الترك. وبعد هذه المدرسة تأتى فنادق القماش، ويضم كل فندق كمية من الدكاكين، تباع فى الفندق الأول منسوجات أجنبية من الطراز الأول، كقماش بعلبك الذى هو من القطن المتناهى فى الدقة، وقماش الموصل - أى نينوى - الذى يدهش بدقته وصلابته، ويتخذ منه جميع الشخصيات والأعيان قمصانهم والغطاء والخمار الذى يضعونه على العمامة، ثم تأتى الفنادق التى يباع فيها أجمل قماش إيطاليا، مثل الطلس الدمقسى، والمخمل، و (طفطه) الخز الصقيل، والديباج، وأستطع أن أؤكد أننى لم أر مثلها فى إيطاليا حيث تصنع.

وبعيداً من هناك، توجد فنادق الثياب الصوفية المستوردة كذلك من جميع بلاد أوربا، كأجواخ البندقية وميورقة، وأجواخ «المرش» الإيطالية، وتباع أيضا الشملان إلخ.. ..

ونصل شيئا فشيئا إلى باب زويلة، لنجد كذلك عدداً لا يحصى من الصناع، وقرب هذا الزقاق فندق يسمى «خان الخليلى» حيث يقيم التجار الفرس، ويشبه هذا الفندق، قصر أمير كبير، فهو مرتفع كثيراً متين البنيان، له ثلاث طبقات، فى الطابق الأرضى حجرات يقتبل فيها التجار زبائنهم ويتجرون فى السلع الثمينة. ولا يملك فى هذا الفندق مستودعات إلا التجار الذين لهم موارد عظيمة، وتشتمل سلعهم على التوابل والأحجار الكريمة ومنسوجات الهند كالكريب..

وفى الجانب الآخر من الزقاق الرئيسى، حي يقيم فيه بائعو العطور، كالزباد والمسك والعنبر وصمغ جاوه. وهذه المواد كثيرة حتى أنه إذا أراد أحد أن يشترى من تاجر أوقية من المسك، عرض عليه مائة رطل، وهذا شئ مدهش! وعلى جانب من هذا الزقاق الرئيسى ما يفضى إلى حى يباع فيه الورق الجميل الصقيل، والتجار الذين يبيعون هذا الورق يبيعون أيضا الأحجار الكريمة، يحملها دلال من دكان إلى دكان معلناً الثمن للمزاد.

وعلى نفس الزقاق ما يفضى إلى حى الصاغة، وهم يهود تمرُّ بين أيدهم ثروات عظيمة، ويقيم فى حى آخر، تجار يبيعون بالتقسيط كمية وافرة من المنسوجات الفاخرة التى استلموها من أهل المدينة ومن الأعيان، وليست هذه المنسوجات قباءات ولا سترات ولا خمارات، بل هى قطع عجيبة ذات قيمة فائقة، وقد شاهدت من جملتها هناك زينة خباء أو شبكة صيد سوداء مخيطة بالإبرة، مغطاة كلها بشبكة من الجواهر،

قال لى البائع إن الجواهر تزن خمسة وأربعين رطلاً مصريا، وبيعت الزينة وحدها بدون الجواهر بعشرة آلاف دينار أشرف، ورأيت فى هذه الدكاكين عدة أشياء أخرى بأثمان مماثلة.

وفى القاهرة بيمارستان كبير بناه «بيبرس» أول سلطان من المماليك، له دخل يبلغ مائتى ألف دينار أشرف، وهو مفتوح للجميع، يجد فيه المريض كل التسهيلات والعلاجات الطبية، وجميع ما يحتاج إليه حتى الشفاء، لكن إذا مات فيه أحد آلت جميع أمواله إلى البيمارستان!.

الرَّبَض المعروف بباب زويلة

وهو ربض كبير جدًا، يضم نحو أثنى عشر ألف كانون، يبتدئ عند باب زويلة، ويمتد غربًا على مساحة ميل تقريبًا، جنوبًا إلى قلعة السلطان، وشمالا إلى الربض المعروف بباب اللوق. وسكان ربض باب زويلة هذا من الطبقة الراقية كأهل المدينة، وللكثير منهم دكان فى الربض ومسكن فى المدينة أو عكس ذلك.

ويشتمل الربض على عدد من المساجد والزوايا والمدارس، وبالأخص المدرسة الشهيرة التى أسسها السلطان حسن، وهى عالية القباب متينة البنيان. بشكل عجيب، حتى أنه إذا حدث أن ثار سلطان على سلطان آخر، فإن الذى لا يحتل القلعة، إذا عمل بحذق على الاستيلاء على المدرسة تحصن فيها وهاجم منها القلعة التى فيها السلطان الآخر، لأن المدرسة لا تبعد عنها بأكثر من نصف مرمى بندقية.

الرَّبَض المعروف بجامع طولون

هو ربض آخر يتاخم السابق شرقًا، ويمتد غربًا إلى الخرائب المجاورة للمدينة القديمة، وهذا الربض بناه قبل أن تبنى القاهرة المدعو «طولون» وهو مولى لأحد خلفاء بغداد ونائبه بمصر، كان رجلاً حكيما حذرًا، ترك المدينة القديمة وأقام فى هذا الربض، وبنى فيه قصرًا فخما عظيمًا، وجامعًا لا يقل عنه فخامة، وفى هذا الربض، عدد كثير جدًا من الصناع والتجار، لا سيما من بلاد البربر.

رَبَض باب اللوق

هو أيضا ربض كبير على بعد نحو ميل من سور القاهرة، ويضم نحو ثلاثة آلاف

كانون، وسكانه صناع وتجار من كل صنف، فيه ساحة كبيرة يوجد بها قصر فسيح ومدرسة عجيبة بناهما مملوك إسمه «يزبك» كان فيما مضى مستشاراً لأحد السلاطين، وسميت الساحة من أجل ذلك «الأزبكية» يجتمع فيها عادة جميع سكان القاهرة، كل يوم جمعة، بعد الصلاة والخطبة، لأنهم يجدون فى ذلك الربض بعض المسليات القبيحة كالحانات والعاهرات، ويجتمع أيضا فى هذه الساحة، عدد كبير من البهلوانيين، وبالأخص من يرقصون الإبل والحمير والكلاب، وهو منظر ممتع حقاً.. .. ..

ويشاهد أيضاً فى ساحة الأزبكية، ضاربون بالسيف والعصا ومصارعون، وأشخاص آخرون يتغنون بالوقائع بين العرب والمصريين أثناء فتح مصر، فما يقال ويعمل هناك من حماقات وفكاهات وكلام بذئ، كل ذلك لا يدخل تحت عَد، ويسلىّ الناس، لكنه يتعذر كل ذلك فى مؤلف كهذا.

ربض بولاق

بولاق ربض كبير جداً، بعيد بنحو ميلين عن المدينة المسورة، لكن توجد على طول الطريق المؤدية إليه بيوت وطاحونات تديرها الدواب، وهذا الربض القديم جداً مشيد على ضفة النيل، وفيه نحو أربعة آلاف كانون، يضم عدداً كثيراً من الصناع والتجار خصوصاً منهم بائعى الحبوب والزيت والسكر.

وفى هذا الربض أيضا، بنايات حسنة من مساجد ومنازل ومدارس والدور المبنية على ضفة النيل بالأخص جميلة جداً، ويتمتع الناظر من نوافذها برؤية السفن الآتية عن طريق النيل إلى مرسى القاهرة الواقع فى هذا الربض، وترسو فيه أحيانا قرابة ألف زورق، لا سيما فى إبان الحصاد. وهناك يقيم المكاسون الذين يراقبون السلع الواردة من الإسكندرية ودمياط. إلا أن الضرائب التى تؤدى عن هذه السلع خفيفة. إذ سبق أن أدى عليها أصحابها رسوم المكس لدى إرسائها فى الشاطئ، ولا تؤدى الضريبة بأتمها إلا عن البضائع الوافدة من مصر لا غيره.

ربض القرافة

القرافة ربض بشكل مدينة صغيرة، على مسافة رمية حجر من الجبل، ونحو ميلين من أسوار المدينة، وفيه نحو ألفى كانون، كان قديماً عامراً أكثر مما هو عليه فى

الوقت الحاضر، إذ يكاد يكون خرباً، وفيه عدة أضرحة لأشخاص يعتقد العامة لحماقتهم أنهم أولياء! وهى أبنية شاهقة ذات قباب بهية، مزخرفة من داخل، بنحوت متنوعة وألوان مختلفة، أرضها مفروشة بأرفع الزرابى، وجدرانها مكسوة بالسجف، يأتى كثير من أهل القاهرة وضواحيها، صباح كل يوم جمعة، لزيارة هذه الأضرحة تبركا ويتصدقون فيها كثيرا.

المدينة القديمة المعروفة بمصر العتيقة

هى أول مدينة بنيت فى عصر المسلمين، أسسها عمرو بن العاص، قائد عمر ثانى الخلفاء الراشدين، وبناها على ضفة النيل، وليست مسورة، لكنها على شكل ربض كبير يمتد على طول النيل، وفيها عدة قصور جميلة عالية، لا سيما القصور الواقعة على ضفة النهر، وجامع عجيب هو جامع عمرو، المدهش بجماله وكبره وإتقانه، وفيها كذلك ما يكفى من الصناع من مختلف الحرف.

وهناك يوجد ضريح السيدة الصالحة نفيسة، التى يجلها المسلمون كثيرا، وهى إبنة زين العابدين بن على، ولما رأت هذه السيدة أن أهلها الأقربين حرموا أسرتها من الخلافة، إستولى عليها اليأس، وغادرت الكوفة ببلاد العرب وجاءت لتسكن هذه المدينة، ويعتبرها الشعب المصرى من الصالحات لإنتسابها إلى بيت محمد (صلى الله عليه وسلم) ولتقواها ونسكها، ولذلك شيد عليها فى عهد الخلفاء الشيعيين أقربائها، ضريح حافل مزدان اليوم بزرابى الحرير ومصابيح الفضة.. .. ..

وفى خارج الحاضرة المسورة أضرحة السلاطين، وهى جميلة فخمة، متقنة الصنع شامخة البنيان، ذات قباب كبيرة، وقد فتح أحد السلاطين فى عهد قريب محجة بين جدارين عاليين، تبتدئ عند أحد أبواب المدينة، وتسير حتى مكان الأضرحة، وفى طرف هذين الجدارين برجان عاليان، يقيم فيهما الحرس الذى يرقب ورود السلع الآتية من جبل سيناء.

وعلى بعد نحو ميل من هذه الأضرحة، توجد الأراضى الزراعية المعروفة بـ «المطرية» حيث يوجد بستان الشجرة الوحيدة التى تنتج البلسم، إذ لا يوجد فى العالم كله شجرة سواها، وهى مغروسة فى وسط عين ماء تشبه بئراً، وتشبه أوراقها أوراق الكرم إلا أنها أصغر منها، وحسب ما سمعته فإنه إذا نقص ماء العين مثلاً، جف النبات حالاً، ويكون الأمر أسوأ لو سقى بماء آخر، وهذه من عجائب الطبيعة.

وفى وسط النيل، تجاه المدينة القديمة، جزيرة تسمى «المقياس» لأن فيها الآلة التى تقيس فيضان النيل، فالخصب أو المحل اللذان سيسود أحدهما مصر منوطان بالفيضان، وهي تجربة لا تخطئ توصل إليها قدماء المصريين.. .. ..

وتقام بالقاهرة حفلة كبرى فى الأيام الأولى لفيضان النيل، يرتفع أثناءها ضجيج الصراخ والموسيقى، حتى لكأن المدينة تنقلب رأسا على عقب، تأخذ كل أسرة زورقاً تزينه بأرفع القماش وأزهى الزرابى، وتتزود بكمية وافرة من المؤن والحلويات ومشاعل من الشمع جميلة جداً. ويكون جميع السكان فى الزوراق يتسلون حسب إمكاناتهم، ويشارك السلطان نفسه فى الاحتفال مع أمرائه الكبار وضباطه، فيذهب إلى قناة مسورة تدعى القناة الكبرى، وهناك يتناول شاقوراً، ويشرع فى هدم الجدار، ويفعل كبار الشخصيات فعله حتى يتهدم جزء الجدار الذى كان يمنع وصول الماء، فيتدفق النيل حالاً فى القناة بقوة كبيرة وينتشر من هناك فى باقى القنوات بالضواحى والمدينة المسورة، بحيث أن القاهرة تكون ذلك اليوم شبيهة بالبندقية، فيمكن الذهاب بالزوراق إلى جميع الأماكن المسكونة وكل أطراف مصر، ويستمر الاحتفال سبعة أيام وسبع ليال، بحيث أن التاجر أو الصانع ينفق كل ما ربحه أثناء السنة، فى هذا الاسبوع، على الطعام والحلويات والمشاعل والعطور والمغنين، وهذا الحفل من بقايا حفلات قدماء المصريين.

وفى خارج القاهرة، قرب ربض باب زويلة، توجد قلعة السلطان المشيدة على رأس جبل المقطم، أسوارها شاهقة متينة، وتكتنفها قصور بديعة يعجز القول عن وصفها، وهى مفروشة بقطع من المرمر مختلفة الألوان منسقة بكيفية عجيبة، وسقوفها كلها مكسوة بالذهب وأحسن الألوان، ونوافذها مزدانة بالزجاج الملون مثل ما يشاهد فى بعض أماكن أوربا: وأبوابها الخشبية منقوشة بفن رائع مزدانه بالألوان مموهة بالذهب.

وكانت هذه القصور مخصصة إما لأسرة السلطان نفسها، أو لنسائه أو لحظاياه، أو لبعض خصيانه أو حرسه. ومنها ما كان السلطان يقيم فيها ولائمه الرسمية أو يقتبل فيها السفراء، وتجرى فيها المراسم الكبرى، وكانت قصور أخرى مخصصة للموظفين المكلفين بتدبير شؤون البلاط، لكن ذلك كله إختفى اليوم، وقد أمر السلطان سليم بحذفه.

شفيق جرجس شحاتة

الجبرتي والقاهرة :

كان العلامة الشيخ «عبد الرحمن الجبرتى» ينظر إلى مجتمعه بمنظار ثاقب، وكان قلمه أداة للتصوير والتقدير، ولذا فهو يعد فى طليعة مؤرخى مصر الإسلامية، بل هو فى تقدير الكثير من العلماء، من أعظم مؤرخى العالم الإسلامى، فتاريخه «عجائب الآثار، فى التراجم والأخبار» مجمع فريد لتاريخ مصر السياسى والاجتماعى، وأحوال المدينة الإسلامية «مصر القاهرة» فى الفترة من عام ١٦٩٥ إلى عام ١٨٢١، دونه باسلوب الحوليات واليوميات.

كان الجبرتى مؤرخا لمصر من منطلق «قاهرى» وبوحى من تركيبه الاجتماعى، فهو حضرى بورجوازى غير راض عن الطبقة المملوكية، التى إستشرى خلالها الفساد، ولا عن القاعدة الشعبية، سواء في المدن أو الريف، ولا عن الغزاة العثمانيين كذلك، فهو يعيش فى إطار «إسلامى عام» ولكن مع «خصوصية» لكيان مصر..

وفى تاريخه الزاخر بالتفاصيل الممتعة، يقدم لنا صورة واقعية صادقة عن خطط القاهرة الإسلامية - بالرغم من أنه لم يكن من مؤرخى الخطط كالمقريزى[١] - إلا أنه يجعل تعيين المواقع والأماكن، ظاهرة واضحة فى روايته، فلا يورد حادثا من حوادث

(١) مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية : محمد عبد الله عنان، ص ٦٥

الحرب أو الثورة، أو المواكب والحفلات العامة، إلا قرنه بتحديد الشوارع والميادين والدروب والمنازل، بحيث يمكننا - من خلال روايته - أن نصور معالم القاهرة فى عصره جلية واضحة، وأن نتعرف بالمقارنة فى خططها وأحيائها المعاصرة، على كثير من أحيائها وخططها منذ أكثر من قرنين ونصف القرن، وأن نصل المعالم والمواقع والأسماء المعاصرة، بما كانت عليه فى ذلك العهد. كذلك يعنى الجبرتى بما أقيم بالقاهرة - خلال العصر الذى يؤرخ له - من معاهد ومساجد وقصور وبساتين وخطط، وما دثر منها وما استجد، وما غيرت معالمه..

كما يفرد الجبرتى فصلاً خاصاً على ما أحدثه الفرنسيون - إبان الاحتلال - فى بعض خطط القاهرة، من محو وتغيير وإنشاء اقتضته الأغراض العسكرية، وما دمر أو أزيل أو شوه من أحيائها ودروبها، فكان هذا كثيراً مما ابتليت به القاهرة، بالإضافة إلى ما أصابها من إهمال طوال حكم العثمانيين (١٥١٧ - ١٨٠٥).

والجبرتى فى تاريخه، الذى يمثل فى ذاته أثرا فنياً رائعا، بإنسجام عناصره المتباينة فى تركيب متوازن، قد أفرد عناية خاصة واهتماماً كبيراً. بتاريخ الحياة الاجتماعية فى مصر، مما ميز تاريخه بخصوصية، لم تغب عن أذهان المؤرخين الأوربيين.. فتذكر دائرة المعارف الإسلامية[1]. «أن تاريخ الجبرتى له أهمية اجتماعية كبيرة لأنه صورة مفصلة دقيقة عن حياة الشرقيين، وقد أفاد منه - أدوار لين - وهو يعلق على الطبعة التى أخرجها من ألف ليلة وليلة»[2].

وإذا كان الاتجاه الحديث المتصل بالدراسة السيولوجية والسيكلوجية للمجتمعات والشعوب، يعتمد أساسا على المنهج الوضعى أو (المونوجرافى) وعلى إستقصاء الحقائق موضوعياً، فلقد كان الجبرتى من الرواد القلائل فى هذه الدراسات المونوجرافية لمجتمع القاهرة، بتعرضه لسلوك السكان بالوصف والدراسة والتحليل، ومنهجه الوصفى تفصيلى، مبنى على الملاحظة المباشرة، والملاحظة بالمشاركة. كذلك فقد إعتمد على إستخدام الوثائق التى تشمل البيانات الإجمالية عن حياة المدينة، بالاضافة إلى الدراسات الاستقصائية التى إعتمد فيها على الإخباريين الموثوق بكلامهم. كما كان معنياً بتسجيل ما رآه وما سمعه، حريصاً على تمحيص الخبر والتدقيق فى مصدره

1 - Macdonald (Art. Djabarti) Encyclop aedia of islam, vol 1, p. 986
2 - Lane, Ed. W., The Thousand a one night Arabian, 3 vols, London, 1883

وصحته، كما حرص على أن يفرق بين ما يعتقد أنه حقيقة وما يشك فيه، وحين يصدر أحكامه على ظواهر سلوكية معينة، سواء بالإدانة أو بالاستحسان، يستخدم عبارات يستدل منها على أنها أحكام قيمية استندت إلى معايير ذاتية أو جمعية[1].

وقد تناول الجبرتى الظواهر الاجتماعية والثقافية المختلفة الخاصة بمجتمع القاهرة - والتى يعتبر بعضها عاماً فى خصائصه - ولا يخلو منها مجتمع من المجتمعات فى فترات الانتقال وأثناء الحروب والثورات، من هذه الظواهر : ضعف وسائل الضبط الاجتماعى، زيادة حجم المشكلات للمجتمع القاهرى، والعلاقات بين طبقاته وأفراده، والعلاقات بين الرجل والمرأة، وظاهرة تحرر المرأة القاهرية ..

وإذا كان تصادم العادات والتقاليد من أعمق الأسباب التى أوجدت هوه بين الفرنسيين الوافدين، والمصريين الذين ينتمون إلى مجتمع شرقى إسلامي، له تقاليده المغايرة تماماً لتقاليد المجتمعات الغربية الأوربية.. فإن مؤرخنا الجبرتى لم يخف إنبهاره بذلك التيار الثقافى الجديد الوافد، الذى أحدث ما يمكن أن نسميه «فجوة ثقافية» عند إلتقاء الحضارتين، حضارة يمثلها ذلك التيار الوافد، بما تملكه من وسائل العلم والتكنولوجيا الحديثة، كما ملكت المنهج العلمى فى البحث والتجريب، والحضارة الأخرى بما تملكه من ثقافة تقليدية تعتز بها ولها جذور ضاربة فى التاريخ، وتبدو جامدة فى العادات والتقاليد وأنساق التفكير.

ملامح القاهرة فى عصر الجبرتى :

ظلت حدود القاهرة فى عصر الجبرتى، على ما كانت عليه فى أيام المماليك الجراكسة، فكان باب الحديد، نهاية حدود مبانيها جهة الشمال الغربى. والأزبكية وبولاق[2]، كذلك كان الطريق بينها وبين مصر القديمة، يكاد يخلو من العمران.

---

(١) المجتمع القاهرى على عهد الحملة الفرنسية كما صوره الجبرتى : د. حكمت أبو زيد، ص ٣٤٣

(٢) كان الطريق الذى يصل ما بين بركة الأزبكية وبولاق، يمر فوق قنطرة المغربى، القائمة فوق خليج الطوابة (الخليج الناصرى القديم) مخترقاً التلال الموازية للخليج والتى حل محلها بعد إزالتها: مدرسة الفنون الإيطالية (معهد ليوناردو دافنشى) ومستشفى (فاروق) الجلاء للولادة، والذى أشرف على تمهيده «لوبير - la pére » كبير مهندسي الطرق، الذى صاحب الحملة الفرنسية فى مصر، وقام بغرس الأشجار على جانبيه، تسهيلا لمرور الجيش الفرنسى وسمى شارع بولاق ثم شارع فؤاد الأول، وبعد الثورة : ٢٦ يوليو.

وإشتملت القاهرة على مساحات شاسعة من الأراضى الفضاء، والحقول والخرائب، وإنتشرت أحياءً ارستقراطية[1] تحيط ببركة الفيل، والبركة الناصرية شمال حى السيدة زينب، وبركة الأزبكية، وقريباً من نهر النيل، تتناثر البساتين والمزارع..

ثم أصاب القاهرة - فى أيام الحملة الفرنسية[2] أشنع الدمار والتخريب، وأفظع الانتقام فى أعقاب الثورات، التى كان يشنها أهل المدينة ضد الفرنسيين.

إن تاريخ القاهرة الطويل[3]. وحداثة تجددها وانبعاثها، يقدمان لنا - مع ذلك - شيئاً متناقضاً فأمامنا مدينة ذات ماض عظيم يمتد إلى أكثر من ألف عام، بيد أن أمامنا أيضاً وجوداً مادياً، يبدو معظمه أقدم من عمره الحقيقى، ذلك لأن القاهرة التى رسم خريطتها - علماء الحملة الفرنسية - فى أعقاب سنة ١٧٩٨، كانت فى الواقع «قاهرة العصور الوسطى» قاهرة القرن الخامس عشر دون تطور يذكر، حينما كانت تغطى مساحة تقدر بخمسة أميال مربعة حول سُرتها، تشتمل على : قاهرة القرن العاشر الفاطمية، مضافاً إليها ضاحيتان تعملان مينائين لها، هما : مصر القديمة وريثة الفسطاط جنوبا، ثم بولاق التى نهضت فى القرن الرابع عشر، بعد أن كانت قرية متواضعة شمالا.

---

(١) لمزيد من التفاصيل، راجع : أندرية ريمون «فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية» ترجمة : زهير الشايب، فصل هام بعنوان : «جغرافية الأحياء الارستقراطية فى القاهرة فى القرن الثامن عشر، ثم العوامل الرئيسية فى تطورها» ص ١٦٤ - ٢١٨.

(٢) أخرب الفرنسيون الكثير من أخطاط القاهرة، وشمل هذا التخريب أحياء كاملة، منها : الأزبكية، وما حول بركة الرطلى، والركيبة وابن طولون والصليبة والجمالية والدرب الأحمر وبولاق وغيرها.. وكما قال الجبرتى : توالى الهدم والخراب وتغيير المعالم وتنويع المظالم.. فهدموا تلك الأخطاط والجهات والحارات والدروب والحمامات والمساجد والزوايا والتكايا والمزارات، والدور والقصور والحوانيت.. راجع الجبرتى : جـ٣ ص ٢٩ - ٣٤، ص ٩٧، ص ١٠٤ - ١٠٥، ص ١٠٩، ص ١٥٩ - ١٦٣، ص ١٦٧ - ١٧٧.

(٣) خطط القاهرة فى أيام الجبرتى : د. عبد الرحمن زكى ، ص ٤٧٤.

القاهرة فى عيون الرحالة الأوربيين..

فى القرن الرابع عشر

شهد القرن الرابع عشر - حسبما أعتقد - تطوراً ملحوظاً فى الاتجاهات العامة للرحالة الأوربيين، فلم يعد الحج إلى بيت المقدس، والتبرك بمخلفات السيد المسيح، وزيارة الأراضى التى شهدت كل ما يرتبط بالعقيدة المسيحية.. هو كل ما يجتذب هؤلاء إلى عالم الشرق.

لم تعد كتب الرحالة قاصرة على تحقيق المواضع الجغرافية التى وردت فى التوراة والأناجيل، وذكر المعلومات التاريخية الخاصة بها.. والبحر الأحمر الذى عبره موسى، والجبل الذى تلقى موسى على قمته التوارة، والأنهار الأربعة التى تنبع من الجنة!

فقد شهد القرن الرابع عشر، تحولا جذرياً، فى طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب، فعندما سقطت عكا - آخر المعاقل الصليبية - عام ١٢٩١، وعدم استطاعة أوربا الإعداد لحملة صليبية جديدة، فقد كان على الغرب الأوربى أن يبحث عن وسيلة جديدة للقضاء على القوة الإسلامية، ممثلة فى دولة سلاطين المماليك، وهى قوة ترتكز على أسس اقتصادية فى المقام الأول. فكان أن اتجه الغرب الأوربى إلى تطبيق الحصار الاقتصادى على مصر والشام، باعتباره سلاحا أجدى، يتواءم مع ما آلت إليه ظروف أوربا آنذاك.. كمرحلة تمهيدية، يعقبها الاحتلال العسكرى لمصر، ثم الاستيلاء على الأراضى المقدسة، دون خشية أى تهديد من جانب مصر.. وفكرة تحييد وإضعاف مصر،

لضمان أمن وسلامة الصلبيين فى بلاد الشام، تؤكد وثوق الصلة بين الهدف الاقتصادى والهدف العسكرى.. والوثوب إلى موقع مصر الاستراتيجى للهيمنة على الطريق إلى الهند.

وعلى هذا الأساس، يمكن تفسير ظاهرة كثرة أعداد الذين وفدوا إلى الشرق ومصر بصفة عامة، وإلى القاهرة بصفة خاصة، فى ضوء المتغيرات الى طرأت على الفكرة الصليبية الغربية».. فقد تناولوا كثيراً من الموضوعات الى تتعلق بما يمكن أن نسميه «الأمن القومى». مثل نظام الحكم، وجهاز الدولة الإدارى، ووصف القلاع والحصون والأسوار، والموانى المصرية وأسهل طرق الوصول إليها، والتحصينات بها، والنظم الحربية للمماليك وتكوينات جيوشهم ونوعية تسليحهم، وأهم الطرق التى تربط القاهرة بباقى المناطق الحيوية كالاسكندرية ورشيد ودمياط، وعوامل القلاقل الداخلية، والحرف والصناعات، إلى جانب العادات والتقاليد والمعتقدات.. وكلها معلومات تمثل - دون شك - أهمية قصوى للمشتغلين بالإعداد للحروب والحملات.

بل الأخطر من ذلك، أن بعض هؤلاء الرحالة، قد وصل الأمر إلى حد التغلغل داخل النظام الحربى للسلطنة، مثل الرحالة «سيرجون ما نوفيل» الذى حل بمصر عام ١٣٢٢م وبقى بها حتى ١٣٤١م ، حيث عاش فى قلعة القاهرة كواحد من جنود السلطان، بل وشارك فى كثير من الحروب التى شنها المماليك ضد البدو[1]!

وفى إتجاه آخر، ومنذ بدايات القرن الرابع عشر، يلاحظ أن نظام الحكم فى دولة المماليك بدأ يخفف من القيود الشديدة المفروضة على تحركات الأجانب، ومنعهم من التغلغل فى الوجه القبلى، بهدف ألا يتعرفوا على أسرار طرق التجارة مع الهند.. فعندما قام الرحالة الفرنسى أوجير Ogier ، بالتغلغل فى الوجه القبلى والصحراء الشرقية، فى الفترة من ٢٥ نوفمبر ١٣٩٥ إلى ٢ ديسمبر من نفس العام، روى فى مشاهداته : ليس هناك حصون أو قلاع أو استحكامات دفاعية بامتداد البحر الأحمر، ولا يتجاوز الأسطول الرابض فى مرفأ السويس، ثمانية وعشرين مركباً حربياً، زود كل منها بأربعة مجانيق، ويقوم عليها بحارة لم يستخدموا البوصلة فى حياتهم، وقد لاحظ أن الطريق لم يكن آمنا، مثل الطريق إلى دير سانت كاترين، بسبب كثرة غارات البدو

---

1. Thomas Wright : Early Travels in Palestine, p. 144 - 146.

ضد الأغراب خاصة..[1].

وقد ساهمت كتابات هؤلاء الرحالة، فى إزدياد محصول المعلومات الجغرافية لدى الأوربيين، والتى كان محورها الأساسى، وصف المسالك والطرق المؤدية من أوربا إلي بيت المقدس، ثم تبلورت إلى وصف طبوغرافى لبلاد الشام ومصر..

ومع إزدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب، بدأت المدن الإيطالية الاهتمام بدراسة ووضع خرائط مفصلة لمعالم حوض البحر المتوسط، كما وضعت خرائط - بالنسبة لمصر - توضح معالم ووصف الطريق من الاسكندرية أو دمياط إلى ميناء بولاق.

على أن مشاهدات وملاحظات هؤلاء الرحالة، قد شملت كثيرا من المعلومات التى بدت غريبة وطريفة، فى حين لم يحفل كثير من الرحالة والجغرافيين العرب - بما سجله الأوربيون - واعتبروه أمراً مألوفاً وغير جدير بالتسجيل، غير أن كتابات هؤلاء، قد ألقت كثيرا من الضوء على الجوانب المختلفة لحياة القاهرة..

فيذكر الرحالة «ڤيتز سيمون - Vitz Simon» الذى زار المدينة فى عام ١٣٢٤م، أن القاهرة تبلغ فى حجمها، ضعف حجم مدينة باريس على الأقل، ونحو أربعة أمثالها من حيث تعداد السكان، وقد قدر عدد سكانها آنذاك بنحو ..٨ ألف نسمة [2].

ويصف الأعداد الهائلة فى شوارع القاهرة، من الحمير والجمال والخيل والبغال، فلا أحد يسير على قدميه سوى الفقراء، وعلى نواصى الشوارع، يقف كثير من الأولاد بحميرهم المسرجة الجميلة، إلى جانب الآلاف من الباعة الجائلين، مثل باعة الحلوى والفواكه والخبز والمشروبات المتنوعة المحلاة بالسكر، وهى أحلى من مثيلاتها فى كل العالم! ومن عادات أهل القاهرة، ألا يطبخوا طعامهم فى منازلهم، وإنما يحصلون على ما تشتهيه أنفسهم سواء من الباعة الذين كانوا يفترشون الأرض فى الشوارع والأسواق وبجوار المساجد، يعرضون شتى صنوف الطعام، أو من حوانيت «الشرائحية» الذين يقدمون بطهى ما يرسل إليهم من لحوم وخضروات، مقابل أجر معين.

هناك أيضا، الأعداد الهائلة من الجمال التى تذرع الشوارع حاملة الماء لتوزيعه على السكان، والآلاف من السقائين المثقلين بقربهم الجلدية، والحلاقون الذين يجوبون

1 - Atiya (AS) : The Crusade in the later Middle Ages, p.181

2 - Frescobaldi : A visit to the Holy places, p. 99

الشوارع وقد ثبتوا المرايا إلى صدورهم..

وكان أهم ما يسترعى انتباه الرحالة فى ذلك العصر، أن شوارع القاهرة كانت تعج بالناس من مختلف الأجناس والأديان والمكانة الاجتماعية، بحيث يستطيع - الخبير بأحوال الشرق - أن يتعرف على ديانة أى فرد فى الشارع، فبينما يرتدى المسلمون الزى الأبيض، يرتدى المسيحيون الملابس الزرقاء، أما اللون الأصفر فكان يدل على اليهود.. وحجم العمامة يدل على المكانة الاجتماعية لصاحبها[1].

ويقول الرحالة «جوسى» الذى حل بالقاهرة عام ١٣٨٤م، أن مساحة القاهرة تبلغ ثلاثة أمثال مساحة باريس، وهى ذات شوارع ضيقة وملتوية وقصيرة، وبعض هذه الشوارع مغطي بألواح من الخشب أو بالأقمشة الثخينة، اتقاء لحرارة الشمس فى الصيف، والتى بسببها يغلق كثير من التجار حوانيتهم، فتكاد تبطل الحركة، ويبقي الناس داخل منازلهم، وخلال الليل تضاء المدينة بمصابيح يعلقها أصحاب الدور أمام بيوتهم..

ولم يخف إعجابه الشديد بسوق القصبة، وكثرة وتنوع المعروضات بها، والمنازل الرائعة، الضخمة العالية، العامرة بالسكان، التى تحيط بهذه السوق الشهيرة[2].

أما الرحالة «بيلوتى» الذى عاش بمصر فى الفترة من العام ١٣٩٦ حتى ١٤٣٨، فيقول عن القاهرة، أنها من أكبر مدن العالم التى شاهدها، وبسبب كثرة عدد سكانها، ترى أعداداً كبيرة منهم يقيمون فى الشوارع، وأمام أبواب المنازل ينام عشرات من الناس.

وقد استرعى انتباه بيلوتى - وغيره من رحالة ذلك العصر - اهتمام سكان القاهرة بالتفريخ الصناعى، حيث اعتادت النساء أن يذهبن إلي «معامل التفريخ» بما لديهن من بيض الدجاج والبط والأوز، حيث يوضع ذلك البيض فى أفران خاصة - تسع الواحدة منها ألف بيضة - والذى يشترط فيها أن يكون جيداً وطازجاً، وتنقسم هذه الأفران إلى طابقين : يوضع البيض فى الطابق العلوى، فى فتحات مستديرة الشكل، ويغطى جيداً بروث الحيوانات - وربما توصلوا بالممارسة إلي أن التخمرات البكترية الناتجة عن استخدام الروث تؤدى إلى رفع درجة حرارة البيض.. ثم تأتى النساء

1 - Marglíouth : Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 161

2 - Frescobaldi : Avisit to the Holy places, p. 107

بعد فترة تتراوح بين اسبوعين وثلاثة أسابيع، ليتسلمن الكتاكيت التى خرجت إلى الحياة، بهذه الطريقة الصناعية[1].

ويسجل بيلوتى دهشته لكثرة اعداد الأسرى والأرقاء والجوارى فى القاهرة، كما سجل مشاهداته فى أسواق النخاسة، المخصص بعضها للرقيق الأسود والبعض الآخر للرقيق الأبيض، وشاهد عمليات إختبار العبد أو الجارية، وعملية المساومة حول السعر بين البائع والمشترى[2]... ويذكر العلامة المقريزى أن السلطان الناصر قلاوون، قد أكثر من الأسرى الذين جلبهم من بلاد الأرمن، وأنزل الكثير منهم بقلعة الجبل، وجماعة أخرى بخزانة البنود. فملأ أولئك الأرمن خزانة البنود حتى بطل السجن بها، وعمرها السلطان مساكن لهم، وتوالدوا بها[3].

ويتحدث عن شمائل أهل القاهرة فيقول :

يتصف سكان القاهرة بدماثة الخلق، تتضح فى علاقتهم فيما بينهم، ومن المؤكد أن الطبيعة قد أثرت فى سلوكيات السكان وأخلاقهم، يجنحون دائما إلى المسالمة ويبتعدون عن الانفعال الشديد، معتدلون فى كل أمورهم، خاصة فى مساكنهم، وهم علي جانب كبير من الذكاء والظرف، ويلقون الغرباء بحرارة ومودة شديدة، وهم فى الغالب يتميزون بالرقة والعذوبة، لذا فهم ينعمون بسعادة يفتقدها الكثيرون[4].

ومن المشاهدات الطريفة التى توضح لنا مظاهرات وثراء سكان القاهرة، فى القرن الرابع عشر وحتى منتصف القرن الخامس عشر، والتى تلاشت بسبب ما ألم بمصر من أوبئة وطواعين وما نتج عنها من أزمات اقتصادية، ما يرويه الرحالة «سيجولى» من أن أهل القاهرة - رجالا ونساء - كانوا مولعين باستخدام الطيب والعطور، فيذكر أنه التقى بأحد تجار مدينة كانديا. والذى يقيم بالقاهرة، فأخبره حديثاً عجباً : أن رجال ونساء القاهرة ينفقون فى شراء الورود التى يزينون بها صدورهم وفى شراء الأعشاب العطرية.. والمسك والعنبر وماء الورد وما إلى ذلك من أنواع التبرج، فى اليوم الواحد فقط، نحو ثلاثمائة دينار ذهبى[5].

---

1 - Dopp : L'Egypte au commemcement du Quanzieme Siecle, p. 38

2 - Prescott : Once To Sinai, p. 167 - 168

(٣) «السلوك لمعرفة دول الملوك» المقريزى : جـ٢، ق ٣، ص ٦٣.

4 - Dopp : Op. cit. p. 67

5 - Frescobaldi : Avisit to The Holy Places, p 176

وحتى تكتمل صورة القاهرة فى ذلك العصر - فى أذهاننا - فلنتعرف على وصف العلامة المقريزى لها، فى النصف الأول من القرن الرابع عشر. فيقول :

«.. واتصلت عمائر مصر والقاهرة، فصارا بلداً واحداً، يشتمل على البساتين والمناظر والقصور والدور والرباع والقياسر والأسواق والفنادق والخانات والحمامات والشوارع والأزقة والدروب والخطط والحارات والأحكار والمساجد والجوامع والزوايا والربط والمشاهد والمدارس والترب والحوانيت والمطابخ والشون والبرك والخلجان والجزائر والرياض والمنتزهات، متصلا جميع ذلك بعضه ببعض من مسجد تبر إلى بساتين الوزير، قبلى بركة الحبش، ومن شاطئ النيل بالجيزة إلي جبل المقطم، ومازالت هذه الأماكن فى كثرة العمارة وزيادة العدد، تضيق بأهلها لكثرتهم، وتختال عجباً بهم لما بالغوا فى تحسينها. وتأنقوا فى جودتها وتنميقها، إلى أن حدث الفناء الكبير فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة، فخلا كثير من هذه المواضع، وبقي كثير أدركناه»[1].

---

(١) خطط المقريزى : جـ ١ ، ص ٣٦٥

منشورمريت شال

الرحالة الأوربيون ..
وقاهرة القرن الخامس عشر

كما رأينا.. فقد كانت مشاهدات الرحالة فى القرن الرابع عشر، خير دليل، على تغير أهداف الرحالة، فلم يعد الحج إلى بيت المقدس وحده هو الذى يجتذبهم، وخرجت مؤلفاتهم عن ذلك النطاق الضيق المنحصر فى تسجيل إنطباعات الحجاج. وإتخذت منحى علمى إزداد وتنوع بمرور الزمن، كما عمدت إلى تصحيح المعلومات والخرائط الجغرافية، وتطوير المعرفة التاريخية، وجمع المعلومات الخاصة بشئون التجارة وتفاصيل الحياة الاجتماعية، وكل ما يخدم الأهداف السياسية فى الصراع مع الدولة الإسلامية.. بالإضافة إلى الروايات الأدبية المليئة بالأخبار العجيبة والمغامرات المسلية فى عالم الشرق العجيب، القوى، الثرى.. .. عالم ألف ليلة وليلة!

إزدادت مساحة القاهرة فى بداية القرن الخامس عشر، وبالتحديد فى عام ١٤٠٣م، نتيجة لما إصطلح المؤرخون على تسميته بعملية «طرح البحر» ويقصد بها ظهور أراض جديدة بسبب إنحسار النيل عن الساحل، بتأثير قوة إندفاع مياهه وقت الفيضان.. فقال المقريزى فى نهاية حديثه عن خطط بولاق : لما كانت سنة ٨٠٦ هـ إنحسر ماء النيل عن ساحل بولاق، ولم يزل يبعد حتى صار على ما هو عليه الآن... وناحية بولاق عامرة وتزايدت بها العمائر وتجددت فيها عدة جوامع وحمامات وربوع.. ومما ذكره المقريزى عن تحول النيل إلى جهة الغرب، أمكن تحديد تلك الأرض الجديدة فى المسافة الواقعة بين شارع ٢٣ يوليو (فؤاد الأول سابقا) عند تقابله بشارع المطبعة الأهلية، وبين النقطة التي يتقابل فيها شارع أبو الفرج بشارع جزيرة بدران فى شمال عنابر السكك الحديدية، وفى هذا الطرح يقع جامع سنان باشا ومركز شرطة بولاق وعنابر السكك الحديدية[1].

ومن الرحالة الدين تحدثوا عن إتساع حجم القاهرة، بما يفوق الكثير من المدن

---

(1) «القاهرة» : د. عبد الرحمن زكى ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

الأوربية التى زاروها، الرحالة الألمانى «فيلكس فابرى» الذى زار القاهرة عام ١٤٨٣، فقال عنها : أن مساحتها تعادل مساحة باريس سبع مرات، أو مساحة مدينة - أولم . الألمانية أربعا وثمانين مرة[١] وقال عنها الفرنسى «ڤان زى جوز» عام ١٤٨٣ م أيضا، أنها - بلاشك - أكبر مدينة عرفها فى العالم، وأنها قد بلغت حداً من الإتساع بحيث لا يستطيع إنسان أن يقوم بجولة فى أنحائها، فى أقل من إثنتى عشرة ساعة - ممتطياً دابة - ويلتقى طرفيها بنهر النيل، بينما يبتعد قلبها عنه كثيراً، وأحد طرفيها هو المنطقة المسماة «مصر القديمة» بينما يمتد الطرف الآخر إلى منطقة آهلة بالسكان تسمى «بولاق».. وقدر سكان القاهرة بما يزيد عن المليون ونصف مليون، وكثير من المنازل تضم ثلاث أو أربع أسرات، حيث لا يمكن أن تتسع المدينة - رغم ضخامة حجمها - لمثل هذا العدد من السكان لذا ترى كثيراً من الناس يسكنون حول المدينة [٢].

وكان الرحالة «جلبرت دى لانوى» الذى زار القاهرة عام ١٤٢١، قد وصفها مكتظة بالسكان والتجار من كل أنحاء العالم، وأن أسوار المدينة كانت تبدو لمن يمر بها غير مرئية، نظراً لازدحام المنازل فى الأحياء الملاصقة لتلك الأسوار[٣].

ويذكر الرحالة «باسيل» الذى حلّ بالقائرة عام ١٤٦٥ : أن القاهرة تحوى أربعة آلاف شارع ودرب، ولكل منها بابان وحارسان، وبعض الشوارع تضم نحو خمسة عشر ألف مسكن، ولكل شارع سوق كبيرة، تفى بالاحتياجات اليومية للسكان[٤].

ويقول الرحالة اليهودى «موشلام بن مناحيم الفولتيرى» الذى زار القاهرة فى ١٤٨١، أن عدد أحياء القاهرة قد بلغت أربعاً وعشرين حياً، بما فيها القاهرة القديمة التى يطلق عليها «الفسطاط» ولكل حارة أو حى - شيخ- تعددت مسئولياته والتى منها : مساعدة السلطات فى فرض النظام، وتحديد وتحصيل الضرائب، والإبلاغ عن

1 - Margoliouth : Cairo, Jerusalem and Damas cus, P. 156

2 - Van de Joose : le Voyage en Egypte, p. 16 - 20

3 - Atiya : The Crusade in the later Middle Ages, p. 129

٤ - المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك : د. سعيد عاشور، ص ٨٤.

المواليد والوفيات اليومية، وتنظيم عملية فتح وغلق الحوانيت، ومراعاة الأمن ومنع جرائم السلب والنهب وتداول الخمور[1].

وقال إنه إذا أضيفت أربعة مدن إلي روما وميلان وبادوا وفلورنسا، فإنها لن تستوعب معاً مثل عدد سكان القاهرة..

ووصف نساء القاهرة، أنهن إعتدن أن يزين أجسادهم بالنقوش المختلفة «الوشم» ويخضبن أيديهن وأرجلهن بالحناء.

ويصف الأديب الرحالة «عوبديا» شوارع وأسواق القاهرة فى عام ١٤٨٧، بأنها تتميز بنوع من الأمن الداخلى، فالناس يمشون فى الشوارع دون أن يحملوا سلاحاً - على العكس من الأوربيين - كما يمكن التجول فى هذه الشوارع المضاءة ليلاً بالمصابيح[2].

كما تحدث عن أحياء القاهرة، وتقاليد أهلها وشمائلهم وأعيادهم، متناولاً الأوضاع الاجتماعية لأهل الذمة وخاصة اليهود، وقال أن هناك نحو سبعمائة عائلة يهودية بالقاهرة، وأن من طبائعهم الظهور بأنهم أفقر أهل البلاد. ويتجولون كشحاذين، ويبدون تواضعا أمام المسلمين، وليس من شيمتهم الكرم، بالرغم من أن أنهم يملكون الكثير وعلى الأخص القطع الذهبية[3].

ويحدثنا فريسكو بالدى عن عادات أهل القاهرة فى التنزه والتسلية، وبولاق ومصر القديمة كانتا من أكثر المناطق المطلة على النيل إجتذابا لهم - خاصة فى فصل الصيف - كما كان الأمراء والتجار والأعيان يمتلكون الكثير من القوارب البديعة الفاخرة، التى يستقلونها فى المناسبات والأعياد، وكانت هناك أماكن مثل الأزبكية وميدان القلعة، يجتمع بها الناس فيستمعون إلى الموسيقي ويشهدون الألعاب النارية وألعاب الحواة ومروضو الحيوانات[4]..

وأكد بالدى أن نساء القاهرة كن يتمتعن بقسط من الحرية، بل أن كثيراً منهن يمارسن الأعمال التجارية، ويركبن الخيول الرائعة، ويتجولون فى كل أنحاء البلاد من

---

1 - Adler : Jewish travellers, p. 166- 167

2 - Adler : Op. cit. p. 228

3 - Adler : op. cit . p. 225 - 227

4 - Fresco baldi : Avisit to the Holy places, p. 44

أجل إنجاز أعمالهن[1]، وكثير منهن يتمتعن بالجمال والجاذبية، كما يشاركن فى المناسبات العائلية، ويخرجن إلى أماكن المتعة واللهو والاحتفالات العامة، وقد تفنن فى إظهار ملاحتهن والعناية بزينتهن.

ويصف فيلكس فابرى مظاهر احتفاء أهل القاهرة بشهر رمضان ولياليه[2]، حيث تكثر الأنوار فى الشوارع والأزقة والمساجد، ويوقد التجار الشموع فى محالهم، وينطلق الأطفال فى كل شوارع القاهرة، حاملين الشموع والقناديل والفوانيس المختلفة الأشكال والألوان[3]. كما لو كان العالم كله فى احتفال صاخب، وتكثر مهرجانات المرح والتسلية فى الميادين، وينغمس الجميع فى ألوان مختلفة من الحلوى، وتظل المطابخ والمقاهى مفتوحة طوال الليل ، وتتبادل الأسر الزيارات واللقاءات، كما يكثر الإحسان والتصدق على الفقراء فى هذا الشهر..

أما عن المسحراتى، فقد إعتقد «سيجوالى» أنه أحد رجال الدين الإسلامى! وقال أنه كان لكل حى من أحياء القاهرة، مسحراتى خاص به، يطوف شوارع الحى قارعاً طبلته، منادياً الناس بأسمائهم لكي ينهضوا من النوم لتناول طعامهم، متغنياً بأناشيد خاصة بشهر رمضان.

كما استرعى إنتباه - سيجولى - التقليد الخاص بـ «شوار» العروس وحفلات الزواج[4]، فيقول: فى اليوم السابق على الزفاف، يرسل العريس - حسب قدراته المادية - إلى منزل العروس، بضعة رجال يحملون أثاث الزوجية، المكون فى الغالب من سرير ومفروشات وأوانى وأباريق دمشقية - من أبدع ما يصنع فى العالم - وأقمشة

1 - Fresco baldi : op. cit. p. 46

2 - Prescott : once to sinie, p. 124

٣ - قال المقريزى عن سوق الشماعين : «هذا السوق من الجامع الأقمر إلى سوق الدجاجين، كان يعرف فى الدولة الفاطمية بسوق القماحين وأدركت سوق الشماعين من الجانبين معمور الحوانيت بالشموع الموكبية والفانوسية والطوافات، لا تزال حوانيته مفتحة إلى نصف الليل.. .. وكان به فى شهر رمضان موسم عظيم لكثرة ما يشترى من الشموع الموكبية التى تزن الواحدة منهن عشرة أرطال فما دونها ومن المزهرات العجيبة الزى المليحة الصنعة، ومن الشمع الذى يحمل على العجل ويبلغ وزن الواحدة القنطار وما فوقه، كل ذلك برسم ركوب الصبيان لصلاة التراويح، فيمر فى ليالى رمضان من ذلك ما يعجز البليغ عن حكاية وصفه، وقد تلاشى الحال فى جميع ما قلنا لفقر الناس وعجزهم» الخطط : جـ ٢ ، ص ٩٦.

4 - Fresco baldi : op. cit . p. 167 - 168

وصناديق للثياب رائعة الصنع، وفى الليل تتجمع النساء من الأهل والجيران فى منزل العروس، فينشدن ويطلقن الزغاريد، ويقوم البعض منهن بتجميلها وتزيينها، وإلباسها ثياب رائعة مختلف ألوانها، وعادة ما ترتدى العروس سبع حلل مصنوعة من القطن - وهو من أجود أقطان العالم - ثم يذهبن بها فى موكب حافل إلى منزل الزوجية.. ما بين الزغاريد وقرع الطبول والموسيقى الصاخبة، وحينما تولف إلى داخل المنزل، تناول سيفاً أو خنجراً معقوفاً وتعطيه إلى العريس ثم تسحبه من غمده وتناوله إياه، ثم تتجه إلى إحدى قاعات المنزل التى أعدت لهذه المناسبة، فتجلس فوق مقعد خاص مغطى بالحرير، وتلتف حولها النساء بالرقص - وقد إرتدين أفخر ثيابهن - الواحدة تلو الأخرى، وقبل أن تبدأ إحداهن الرقص، تقدم إلى العروس مقداراً من النقود أو هدية ذهبية تضعها على جبهة العروس ثم تبدأ رقصتها، فتأخذ العروس هذه الهدية وتضعها فى إناء بجوارها، وعندما تنتهى إمرأة من رقصها، تقوم أخرى وهكذا...

قاهرة القرن السابع عشر..

كما صورها دى تيفنو

فى عام ١٦٥٦، زار القاهرة، الكاتب والرحالة - دى تيفنو . J. De Théve-not - وقد تحدث عن مشاهداته فى كتابه : «رحلات فى أوربا وآسيا وافريقيا»[1] فأفاض فى وصفه للحياة الاجتماعية للقاهريين، ومناظر النيل، والشوارع والأسواق فى الأحياء الوطنية، والمساجد والمارستان وسور القاهرة والمنازل والبرك..

وعندما فكر دى تيفنو فى أن يعرف امتداد القاهرة، وطولها وعرضها، ركب حماراً ودار حول المدينة والقلعة، فقطع تلك المسافة فى ساعتين وربع الساعة!.. ثم قطع المسافة من أول خليج القاهرة إلى آخره، سيراً على قدميه، فكانت ٥.١ آلاف خطوة، وجعل كل خطوة، قدمين ونصف القدم.. ذاكراً بأنه شاهد خلال جولته هذه، بعض المناطق الخالية، والعديد من البساتين والبرك التى شيدت حولها الدور والقصور.

وبالقرب من الطريق المؤدية إلى بولاق، استرعى انتباهه، حى أسماء لزبيكة «الأزبكية» وقال أن الماء يبقى فيه نحو أربعة أو خمسة أشهر كل عام، وأقيمت حول

---

(1) Thévenot, J., Voyages de M. de théventot en Europe Asia et Afrique, Amsterdam, 1727,5 vol.

وقد صدرت فى باريس عام ١٩٨٠، طبعة حديثة مصححة بتعليقات لهذه الرحلة:

Voyage du levant; notes par Stephane Yerasianos, pairs 1980

البركة، قصور رائعة الجمال، للبكوات وأمراء البلاد، ليمكثوا بها بضعة أيام من حين إلى آخر، طلبا للراحة والاستجمام.

وعبر دى تيفنو عن دهشته لازدحام الشوارع بالناس، فى كل وقت، وإحساسه بالضياع وسط الطرقات الملتوية المتربة، وضيقه بزحام الكلاب والنوق والحمير، وطبقات الغبار الكثيف التى تتصاعد فتحجب عنه السماء، وبزحف الناس عليه وسط المئات من القصور والمساجد والوكالات والأحجار المتآكلة والأخشاب المهترئة، ومنازل الفقراء المملوءة بالنساء والأطفال، بالرغم من أن وباء الطاعون قد أباد نحو مائتى ألف من سكان القاهرة، إلا أن أحداً لن يشعر بنقص فى عدد السكان.

ووصف سور القاهرة، بأنه جدران جميلة قوية عريضة متناسقة، شيدت بأحجار ناصعة البياض، كأنها بنيت منذ عهد قريب، وكان بتلك الجدران فتحات مزخرفة، وأبراج لا يبعد أحدها عن الآخر، أكثر من مائة خطوة، ويمكن أن يحتشد فيها كثير من الرجال، كما كانت هذه الجُدر عالية جدًا، غير أن بعضها كان مطمورًا بين الأنقاض.

وقال أن كل حى من أحياء القاهرة، قد احتوى عدة شوارع ودروب وأزقة، وكل حى يحرسه رجلان، رُبط كل منهما بالآخر بسلسلة! وكان الرجال الذين عهدت إليهم هذه المهمة، يقدمون عليها عن طيب خاطر، ولأنهم كانوا يتقاضون أجراً طيباً. وكان وكيل حاكم الحى (شيخ الحارة) يحتفظ بمفاتيح الأقفال..

وقد استرعى انتباهه، كثرة المساجد العظيمة، الفخمة البناء، ذات الأفنية والأبواب الضخمة الجميلة، والتى تعلوها المآذن العالية المشوقة.

ثم وصف خليج القاهرة، الذى كان ينضب عنه الماء، ثلاثة أشهر فى السنة، كما وصف المنازل التى كانت تشيد دون أن يراعى في بنائها إنشاء مدينة! إذ لم يكن هناك لائحة للتنظيم، فكل إنسان يبنى داره حيث شاء! وتبعاً لذوق مهندسه دون أم يكترث بخط الشارع أو استقامته!

وبيوت القاهرة تتكون من عدة طوابق، لها أسقف مسطحة، مرآها الخارجى كان قبيحا، غير أن بداخلها كان مزداناً بالألوان الذهبية والزرقاء، خاصة بيوت وقصور البكوات والأمراء، حيث كانت تحتوى مخادع بديعة وقاعات كبيرة رائعة، تزدان بالرخام ومزخرفة بالذهب، ولها حدائق، يجرى بها الماء، تتوسطها نافورات بديعة..

ويصف شارع البازار - أجمل شوارع القاهرة - والذى كانت تقام به سوق، يومى الاثنين والخميس، وفى نهايته شارع قصير عريض يسمى «خان الخليلى» والذى كان

يحوى سوقا للنخاسة، يباع فيها الرقيق الأبيض من الرجال والنساء، أما الأرقاء السود فكانوا يباعون فى خان آخر بالقرب منه..

وعلى مسافة ليست بعيدة من خان الخليلى، كان يشاهد مستشفى للمجاذيب (مارستان قلاوون) متصل به واحد من أكبر جوامع القاهرة (مسجد السلطان قلاوون)..

وبتلك الجهات إنتشرت مصانع السجاد، التى تضم عدداً كبيراً من الصناع المهرة، وكثير من الصبية، وكانوا ينتجون أفخر أنواع السجاد، الذى يصدر إلى الآستانة وأوربا.

ثم تحدث عن الخراب الذى شمل مصر القديمة، الواقعة على مسافة نحو كيلو مترين من القاهرة، على ضفاف النيل، إلا أن بعض الأبنية الجميلة مازالت قائمة، مثل كنيسة أبو سرجة ودير مار جرجس، وكان بها مجرى المياه الذى كان يجلب فيه ماء النيل إلى القلعة، وفى أعلى هذا المجرى، ثمانية سواقى ترفع الماء، فتصبه فى حوض كبير، يتدفق منه إلى القلعة.

ويذكر دى تيفنو بعضاً من مشاهد الحياة الاجتماعية لأهل القاهرة، مثل التقاليد الخاصة بزيارة القبور، حيث إعتادت النساء أن يذهبن إلى المقابر، حاملات معهن الزهور والريحان، ليضعنها فوق القبور، مساء الخميس أو ظهر يوم الجمعة..

كما يصف احتفالا أقيم بمناسبة ختان طفل، كان يجلس وحده على ظهر حصان، وقد احتشد حوله جمع من الناس، يرقصون ويغنون..

ثم يصف مشهد زفاف، والجلبة المصاحبة له، بينما موسيقاه تصم الآذان، يتهادى موكب العرس، محفوفاً بالمشاعل، يضم عروساً محجبة ومتوجه بإكليل مرتفع من الكشمير الأحمر المرصع بالحلى، تخطو كالشبح تحت مظلة وتساندها جاريتان..!

منشور جريدة شمال

القاهرة فى ..
القرن الثامن عشر

إجتذبت القاهرة خلال القرن الثامن عشر، جمهرة من الرحالة والأدباء والفنانين، فإستهوت هؤلاء بتاريخها الحافل.. بغموض آثارها الفرعونية وعظمة مشاهدها الإسلامية.. فعبروا عن مشاعرهم الذاتية أمام تلك الصور والمشاهد، كما سجلوا إنطباعاتهم عن دقائق الحياة الواقعية.. بعيداً عن أساطير الحياة فى قصور «ألف ليلة وليلة»..! غير أن هذه التفاصيل الدقيقة، لم يلبث الزمن أن عدا على أكثرها، ولم يبق ما يذكرنا بها إلا تلك الصفحات التى سجلها هؤلاء..

ومن الأهمية أن نشير إلى أن كتابات الرحالة الأوربيين عن مصر وبلاد الشام وتركيا، لم تعد تعبيراً عن عوالم الخيال الأسطورية، بل غدت تعبيراً صريحاً أو - مغلفاً - عن عالم السياسة والواقع. فمنهم من أقام أعتباراته السياسية على حجج دينية، فخلط بين ما هو عقلانى وما هو روحانى!..

وبينما رأى البعض أن الإسلام هو أكثر العقائد تقدمية فى تاريخ الإنسانية، فقد رآه أكثرهم معوقاً للحضارة.. ومنهم من إرتأى لأوربا - رسالة نبيلة - ينبغى عليها تحقيقها وهى رسالة نشر المدنية "la mission civilisatrice" فى الشرق، حتى لو تطلب ذلك اللجوء إلى القوة العسكرية!..

ومنهم من رأى فى الشرق تربة خصبة، تزدهر فيها الرزائل المقرونة بطغيان الحكام ذوى السيطرة المدمرة القصيرة العمر، وينظر نظرة عامة - بعيدة عن الموضوعية والإنصاف - لسجايا وأخلاق أهل القاهرة، وما هى فى الواقع إلا صورة مصغرة لعالم الشرق، قوامها الجهل والتخلف والإنحلال، وسلوكيات تحركها مبادئ شيطانية!

كذلك من الأهمية أن ننوه بأن مصر - بصفة خاصة - قد شهدت خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر، نوعية جديدة من الرحالة، الذين موّلت رحلاتهم، جمعيات وهيئات علمية وشركات عالمية، يضعون أمامها ثمار رحلاتهم من دراسات وملاحظات، فقد أرسلت «شركة الهند الشرقية» مجموعة من الرحالة، لإكتشاف الطريق البرى إلى الهند، كما مولت «هيئة تنمية كشف مجاهل إفريقيا» رحلات الكثير من الرحالة الجغرافيين، الذين مرّوا جميعاً بمصر، كما تبلور إهتمام انجلترا بشئون مصر، فى تأسيس «الجمعية المصرية» التى مولت كثيراً من رحلات ودراسات الرحالة الإنجليز

الذين وفدوا إلى القاهرة، إلى جانب «الجمعيات الإنجيلية» التى تكلفت نفقات الرحالة المبشرين.

وكما أشرت - من قبل - إلى إنكماش رحلات المغامرات والرحلات الدينية التى تستهدف الحج زيارة البقاع المقدسة، حيث تطورت نوعية الرحلات إلى «رحلات علمية».. فى إطار ما يمكن أن نسميه «التوظيف السياسي» لأهدافها ونتائجها.

وتمثل رحلة «كارستن نيبور - C. niebuhr » حلقة هامة فى سلسلة الرحلات العلمية[1].

عندما تولدت فكرة إرسال أحد علماء اللغات السامية إلى الدول العربية.. «سعياً وراء المدلولات الواقعية لبعض نصوص الكتاب المقدس الغامضة»[2].. على أن يتولى البلاط الملكى الدنماركى الإنفاق على هذه الرحلة، ثم تطورت الفكرة وتقرر إيفاد بعثة علمية متكاملة، ضمت علماء متخصصين فى اللغات السامية والجغرافيا والعلوم الطبيعية والطب ورساماً.. وكان أن وقع الاختيار على كارستن نيبور..

إجتمعت هذه البعثة فى كوبنهاجن، ثم إنطلقت لأداء مهمتها فى ٧ يناير عام ١٧٦١، وتنتقل نيبور مع رفاقه أولاً، ثم وحده بعد وفاتهم، من القسطنطينية إلى مصر، إلي اليمن والهند وبلاد فارس، ثم إلى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين.. وعاد عن طريق القسطنطينية مخترقاً أوربا الشرقية إلى ألمانيا، حيث وصل إلى كوبنهاجن فى نوفمبر من عام ١٧٦٧.. ثم شرع فى الإعداد لنشر النتائج والمعلومات التى توصل إليها فى رحلته، فكان أن ظهر المجلد الأول من كتابه : «وصف البلاد العربية - Beschr eilung von Arabien ، ثم نشر الجزء الثانى من الرحلة فى عام ١٧٧٨، وظل المجلد الثالث - مخطوطاً - حتى نُشر بعد وفاته، فى عام ١٨٣٧[3].

قال نيبور فى وصفه للقاهرة : «مدينة القاهرة.. طولها ساعة وتبعد مسافة ثلاثة أرباع الميل الألمانى من بولاق والنيل، وربع ميل من مصر القديمة، وتقع معظم أجزائها فى سهل رملى عند أسفل جبل المقطم وطرفه الأقصي.. والحق أن القاهرة فسيحة، إلا أن هذا لا يعنى أنها مزدحمة بالسكان على قدر سعتها.. والسائر فى

---

(١) ألمانيا والعالم العربى : ترجمة د. مصطفى ماهر، فصل «رحالة بحاثة ألمان فى البلاد العربية» ص ٢٧٨.

(٢) «رحلة إلى مصر» كارستن نيبور ترجمة : د. مصطفى ماهر، ص ١١.

(٣) نفس المصدر : ص ١٤ - ١٥.

العاصمة المصرية، يجد فيها بركاً كثيرة جداً، عندما تمتلئ بالماء يشبه منظرها - بحيرات صغيرة كثيرة - كذلك تشغل المساجد بكثرتها حيزاً كبيراً.

وقد أتيحت لى فرصة التوغل فى المنطقة بين الخليج وبركة الفوالة ورؤية كل شئ فيها بدقة، وليست البيوت فى القاهرة، بارتفاع البيوت الأوربية، وأغلبها فى الأحياء الصغيرة، مبتناه من الطوب اللبن، من طابق واحد.. والغريب الذى لا يرى من القاهرة، سوى شوارعها الرئيسية، يجد هذه الشوارع مزدحمة نهاراً بالناس، خاصة وأن الشوارع هنا ضيقة، كما هو المألوف فى المدن الشرقية.. ..

والمورستان Muristan مستشفى للمرضى والمجانين، ولمن شاء أن يقرأ فى الكتب العربية التى تصف القاهرة، سيجد تفاصيل كثيرة عن الأموال الضخمة المخصصة لرعاية هذا المستشفى والكثير من المساجد الكبيرة، إلا أن إنفاق هذه الأموال، كثيراً ما يجرى على نحو يثرى به القائمون بأمره ثراءً متزايداً.. وهذا المستشفى يقوم بكل ما يحتاج إليه المريض، لم يغفلوا منه شيئا حتى الاستماع إلى الموسيقى..!».

«والوكالات والخانات، عبارة عن مبان محاطة بأسوار كبيرة منيعة، وفيها حجرات كثيرة صغيرة، ومخازن للبضاعة مخصصة للتجار، وهى كثيرة جدا بالقاهرة.

كذلك تكثر الحمامات العامة، وشكلها الخارجى ليس جميلاً، ولكنها بالداخل فسيحة ونظيفة وجميلة ويكسو أرضيتها - غالبا - الرخام الثمين، وكل واحد من الخدم مكلف بمهمة خاصة، حيث يحيطون من يرغب بالاستحمام، بألوان من الطقوس، يعجب لها الأوربى الذى لم يألفها.. ..».

ومما إسترعى إنتباهه.. منشآت عامة (أسبلة) يجد فيها من يرغب بالماء، حاجته بدون مقابل، وبعضها يمتاز بجمال عمارته، ويعمل بها رجال مهمتهم ملء أكواز من النحاس اللامع - بالماء - ووضعها تجاه الشارع أمام سياج من القضبان..

ويتناول نيبور فى وصفه للقاهرة، البرك التى تقوم عندها حدائق ذات بهجة، وقصور رائعة ذات أسوار عالية للأمراء والأعيان.. كما وصف القلعة وسور القاهرة وأبراجه.. وبئر يوسف الشهير - الذى يعتبره جميع الرحالة أحد الأعاجيب الكبرى بالقاهرة - وقصر يوسف الذى تتم به صناعة كسوة الكعبة الثمينة، ثم إرسالها إلى مكة كل عام، وتحدث عن ضاحية القرافة ومساجدها العظيمة وأضرحة الخلفاء.. وآثار هليوبوليس فى الشمال الشرقى من القاهرة، وشجرة البلسان بالمطرية، والتى قال عنها «أن المسيحيين الشرقيين يحيطونها بكثير من التبجيل.. ولكن الإنسان يضلل نفسه

أشد التضليل، إذا صدق أن هذه الشجرة هى نفسها التى كانت قائمة قبل ١٨٠٠ سنة، عندما انفرجت وضمت العائلة المقدسة أثناء هربها فى مصر..»[1].

ويعتقد نيبور بأن بولاق هى مدينة «ليتوبوليس - Litopolis » التى تحدث بها المؤرخون والأدباء الإغريق[2].. ويقول عنها : بولاق الآن مدينة كبيرة نسبيا، وهى أهم ميناء للقاهرة، وجميع البضائع الي تجلب من دمياط ورشيد، عبر النيل، إلى العاصمة، وكذلك التى تصدر من القاهرة إلى البحر المتوسط - تمر من هنا - ولهذا أقاموا فى بولاق، أكبر جمرك فى مصر كلها، وبها أيضا مخازن الأرز والملح والخشب والزعفران.. وللسلطان هنا دار يختزن فيها القمح الذى يرسله إلي مكة والمدينة، فى كل عام، وبها أيضاً دار قديمة لصناعة وصيانة السفن..

ويصف بمدينة الفسطاط.. الجمرك وشونة تخزين القمح، وجامع عمرو بن العاص، وحصن بابليون[3]، وبعض الكنائس والأديرة، ومجرى العيون، وجزيرة الروضة ومقياس النيل..

---

(١) «رحلة إلى مصر» كارستن نيبور، ترجمة د. مصطفى ماهر، ص ٢٢٤

(٢) المصدر السابق : ص ٢٢٦

(٣) شيد الفرس هذا الحصن فى عهد «قمبيز» منذ أكثر من ألفى عام، ثم جدده الرومان وجعلوه رمزاً لحضارتهم، وأضافوا إليه بعض التعديلات فى عهد الإمبراطوار «أوجستين» ثم فى عهد «تراجان» والأباطرة من بعدهما، حيث رابطت فيه حامية، مهمتها تحقيق الأهداف الحربية والسيادة التجارية، وقد ذكره «ديودور الصقلى» فى تاريخه عن مصر، حوالى عام ٥٠ ق. م ، وقال «إسترابو» الإغريقى، عندما زار مصر سنة ٢٥ ق. م : «رأيت فى عين شمس، المنازل العظيمة التى كان يقطن بها الكهنة الذين درسوا الفلسفة وعلوم الفلك، وأن من يتجه من عين شمس، فى النيل جنوبا، يصل إلى بابليون وهو موقع حصين».. ولا تزال بعض أبراج هذا الحصن، تتحلق حول جدران المتحف القبطى، وهى على نمط البناء الرومانى، وتتكون من خمسة مداميك من الحجر الجيرى الأبيض، يتلوها ثلاثة مداميك من الطوب الأحمر، وكثير من أحجاره مأخوذة من مبان فرعونية، مازالت نقوش هيروغليفية واضحة على البعض منها. وجدار الحصن من الجهة الجنوبية عبارة عن برجين كبيرين مستديرين، يبلغ إرتفاع كل منهما نحو عشرين متراً، بينهما أحد أبواب الحصن، وعلى أحداهما «كنيسة المعلقة» الأثرية، وفى الجهة الغربية برجان آخران كبيران، بينهما مدخل المتحف القبطى، وأحدهما تشغله كنيسة «مارى جرجس» الرومانى، والآخر قائم بحديقة المتحف. وقبل أن تصبح مصر ولاية رومانية، كان يطلق على منطقة مصر العتيقة اسم «بابيلون مصر» كما ورد فى النصوص اليونانية والقبطية، وهى تسمية أكاديه (أشورية) بمعنى «باب الله» أى دار أمان، واتخذت فيما بعد عاصمة للرومان.

ويعود بنا نيبور، لنسترجع تلك الصورة الزاهية، فى بدايات عصر سلاطين المماليك، والتى حدثنا بها بعض المؤرخون والرحالة، عن الرواج الاقتصادى الذى شهدته القاهرة، نتيجة لإزدياد حجم التبادل التجارى مع المدن الأوربية وبلاد آسيا وإفريقيا.. فانعكست نتائجه على أسواق القاهرة، التى كانت تموج بالحركة والنشاط وتكتظ بمختلف السلع والمنتجات.

فيقول نيبور[1]: «ولما كانت مصر تتمتع بموقع ممتاز للتجارة، كان من الطبيعى أن يجد الإنسان فى القاهرة، عدداً كبيراً من التجار الأغنياء، الذين يمارسون تجارة واسعة دائمة مع أوربا وآسيا وافريقيا، وتتلقى مصر عن طريق الخليج العربي، كل ما تحتاج إليه تقريبا من الهند وبلاد فارس وبلاد العرب، وينقل النيل التجارة مع النوبة، وتتصل التجارة من ناحية البحر المتوسط، مع سوريا وتركيا وبلاد البربر وأوربا. أما البلاد التى لا تصل إليها الرحلات البحرية، فتأتى منها كل عام، قوافل كبيرة محملة بالبضائع الثمينة، تقايض عليها لتحصل على السلع التى تفتقر إليها[2].

وبينما تتم أعمال التجارة لدينا - غالبا - عن طريق المراسلات، ويلتقى التجار فى المدن الكبيرة، فى أوقات معلومة فى البورصة، فإن التجار الشرقيين يرحلون هم أو عبيدهم لعقد الصفقات التجارية، ويقيم جميع من يأتون من بلد واحد ويتجرون فى بضاعة واحدة، فى وكالة كبيرة أو خان، ومعظم التجار الأوربيين يقيمون فى شارع واحد بالقاهرة - أى فى مكان معلوم - وبالقاهرة وسطاء كثيرون، يسهلون مهمة

---

(١) «رحلة إلى مصر» كارستن نيبور، ترجمة د. مصطفى ماهر، ص ٢٥٦ - ٢٥٧

(٢) «.. بالرغم من أن عدد البيوتات الأوربية التى استقرت فى القاهرة والاسكندرية قد أصبح محدوداً، إلا أنها كانت كافية للقيام بنشاط كبير فى مجال المعاملات التجارية بين مصر وأوربا.. وكان أهم فرع من فروع التجارة المصرية، هو استيراد وتصدير البن القادم من الجزيرة العربية، وكانت السفن تقوم برحلة سنوية من السويس، متجهة إلى جده، لتحمل من هناك البن الذى كان عرب اليمن قد جلبوه إليها، كما كانت تحمل الأقمشة والتوابل والبخور القادمة من الهند.. وكانت القوافل القادمة من دارفور وسنار وبلاد النوبة، تجلب إلى مصر - بخلاف العبيد السود من كلا الجنسين - أصنافا عديدة من المواد الثمينة مثل تراب الذهب والعاج والمسك =

البائع فى التعرف إلى المشترين، كما ييسرون على المشترى، الوصول إلى المنتجات التى يبحث عنها، بالإضافة إلى أن المسافرين القادمين فى قافلة أو يتأهبون للسفر معها، يجدون راحة كبيرة فى الإقامة بمساكن متقاربة، تتيح لهم تبادل الكثير من الخدمات الصغيرة..».

= والأبنوس والعنبر وريش النعام والصمغ.. وتشمل تجارة التصدير المصرية أساساً، الأرز والبن والأقمشة وجلود الماعز والقطن والسكر والقمح والعقاقير الطبية والخضروات الجافة والحنة.. .. وكان ميزان العلاقات التجارية بين مصر وأوربا، دائما فى صالح مصر، إذا لم تكن مصر تدفع أموالاً على الإطلاق، وكان المقابل دائما يتم فى صورة بضائع، بينما كانت أوربا مضطرة فى معظم الأحيان إلى دفع الأموال، وكانت فرنسا ترسل الأصواف والأسلحة والمواد اللازمة لصناعات الحدايد والنحاس، أما البندقية فكانت تصدر إلى مصر، العملات الذهبية الإيطالية (Séquins) والخرز والمرايا، وكانت ألمانيا ترسل البورسلين والأوانى الزجاجية.. وتجارة قوافل إفريقيا لم تكن تتطلب قطعة واحدة من النقد، فكانت هذه القوافل تجلب العبيد والصمغ وسن الفيل وتراب الذهب - كما سبق القول - وتحصل فى مقابل ذلك على الأصواف الفاخرة والمجوهرات والأسلحة النارية المصنوعة فى أوربا..».

(وصف مصر - المصريون المحدثون : ج. دى شابرول، ترجمة : زهير الشايب، جـ١، ص ٢٣٥ - ٢٣٧) وكتب «چومار» عن أحوال التجارة بالقاهرة، فقال : «.. ومازالت تجارة القاهرة إلى اليوم متسعة جداً، برغم تراجعها الشديد منذ إكتشاف رأس الرجاء الصالح. والقاهرة تتاجر مع إفريقيا الداخلية ومع آسيا ومع أوربا، وبها عدد كبير من الأسواق والمتاجر العامة أو المعارض الدائمة والوكالات المخصصة للتجارة الخارجية والداخلية على السواء، ويتراوح عدد هذه الوكالات ما بين ..١٢و ..١٣ وكالة، ويحمل عدد كبير من الشوارع التجارية، أسماء مستمدة من البضائع التى تباع أو توزع بها».

(وصف القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة : د. أيمن فؤاد، ص ٩٣ - ٩٤).

ساڤارى : C.E. SAVARY

شكلت أساطير الإغريق وقصص الرحالة «إسترابو».. النزعة الوجدانية والخلفية الثقافية للرحالة الفرنسى «كلود إتيين ساڤارى» فاعتزم القيام برحلة إلى مصر، التى إجتذبته بحضارتها العريقة وتراثها الإنسانى الخالد، فوصل إليها عام ١٧٧٦ واستقر بها ثلاث سنوات، وأثمرت هذه الرحلة كتابه «رسائل عن مصر»[1].. وكتاب تضمن ترجمة لمعانى القرآن، ثم كتاب عن قواعد الدين الإسلامى تحت عنوان Morale de Mahomet : ، ووضع أجرومية للغة العربية والعامية، وترجم بعض قصص ألف ليلة وليلة إلى الفرنسية.

لقد أبدع ساڤارى فى تصوير مصر، التى شغف بها حبا، أيما إبداع، وكأنها «الجنة التى وُعد المتقون».. ويجرى قلمه بما تفيض به روحه الرومانسية الحالمة، فى أسلوب كأنه السحر، فيعتنى بالطبيعة الخلابة لأرض مصر، فيصف فى بهجه لياليه القمرية على

(1) C.E. SAVARY : Lettres sur l'Egypte, paris 1785 - 1786, 3 vols.
فى الجزء الأول يتحدث ساڤارى عن مصر القديمة والحديثة، وأحوالها الاجتماعية ونظم الدولة، وغزو القديس لويس لدمياط، نقلا عن چوانفيل، ويخصص الجزءين الثانى والثالث من رسائله : لوصف رحلته إلى صعيد مصر، ومدنه وآثاره وواحاته ومناخه، وشئون مصر التجارية والزراعية، وديانة المصريين القدماء، كما يتناول النيل وخواصه الطبيعية.

ضفاف النيل، والحدائق النضرة بجزيرة الروضة. حيث تتناثر أشجار التمر حنة والبرتقال والجميز.. وأحواض الزهور التى تعبق الجو بأريجها العطر.. والمحظيات الشركسيات اللاتى يخطرن بين الخمائل، فى دل وفتنة، مترنمات بأنغام حانية..

وفى كلمات لا تخلو من صفاء التأمل، معبرة عن نزعته الوجدانية تجاه مصر وعظمة تاريخها، فيقول فى مواجهة أهرامات الجيزة: ليس هناك فى العالم بأسره، ما يفوق هذا المشهد، جمالا وإجلالاً وتأثيراً.. إنه ليسمو بالروح ويحضها بقوة على التأمل.. ويعبر عن عظيم إعجابه بذلك التراث الباهر ويزداد شغفاً بالتعمق فى وجدان مصر وتقاليد شعبها، الذى يستمسك بعقيدته الإسلامية، والتى شكلت ونسقت حياته وفقاً لنُظُمها..

ومن بين المشاهد التى برع سافارى فى وصفها، مشهد استقبال «الباشا» الذى اختاره السلطان فى استانبول، واليا على مصر، فكان هذا المشهد تقليداً خاصاً بمصر، وحين وصول الوالى الجديد إلى الاسكندرية أو رشيد، يرسل نبأ قدومه إلى ديوان القاهرة، فيختار كبير المماليك «شيخ البلد» وفداً لاستقباله، حاملين معهم الهدايا الثمينة، وعندما يصل الوالى الجديد إلى ميناء بولاق، يجد بانتظاره مظاهرة بحرية رائعة، تضم كبار المماليك، والصناجق.. بينما تخفق الأعلام والبيارق، وتدوى المدافع.. وبنهاية مراسم الاستقبال، يسلم إليه مفتاح القلعة، مقر الحكم والسلطان.

فيصف سافارى هذا المشهد قائلاً :

«شاهدت بعينى، وصول الباشا ودخوله المدينة، فى موكبه وزينته، رأيت هذا الموكب، تتقدمه فصائل من الجنود المشاة، يسيرون فى صفين وموسيقاهم أمامهم، وفوق رؤوسهم تخفق الأعلام، يليهم نحو خمسة آلاف من الفرسان، يسيرون فى نظام بديع، حاملين الرماح الطويلة، مرتدين ملابس فاخرة فضفاضة لامعة، وشواربهم ضخمة.. فكان لهم مشهد حربى، يبعث الروعة فى النفوس، ثم يلى هؤلاء الفرسان، كوكبة من البكوات الأمراء، بملابسهم الرائعة، يمتطون صهوات الجياد العربية الأصلية، يحيط بهم حاشيتهم من المماليك، ورأيت جباه خيول الأمراء مرصعة باللؤلؤ والأحجار الكريمة، وسروجها مزدانة بقطع من الذهب، وكل «بك» يسير فى موكب على هذه الصفة، فكانت مواكبهم - مجتمعة - غاية فى الرونق والفخامة، يزينها الفرسان بجمال ملابسهم، وحسن استوائهم على متون جيادهم.. ويسير الباشا الهوينا. ممتطياً جواداً كريماً، وقد وضع على عمامته، ريشة من قطع الماس الكبيرة، يتوهج سناها فى أشعة

الشمس، تتقدمه باقة من مائتى فارس، وفرقة للموسيقى..».

وكانت لبركة «الأزبكية» شهرة ذائعة كمنطقة جذب للنزهات الخلوية والملذات والتصييف والمتع الليلية[1] وقد أبدع المؤرخون والرحالة والشعراء فى وصفها، فيقول عنها سافارى وقد شهد بها إحتفالات كسر الخليج :

«كان أكثر الإزدحام - بطبيعة الحال - عند الأزبكية، وهى أوسع مناطق المدينة، ويبلغ محيطها أكثر من نصف فرسخ، وتكون بحيرة واسعة محاطة بقصور البكوات، وهى أجمل بيوت المدينة، ومضاءة بأضواء مختلفة الألوان، وتسبح فوقها آلاف من المراكب ذات صوار تتدلى منها المصابيح المضيئة، مكونة هالة من أضواء متحركة، تتغير مشاهدها كل لحظة، وعند قدوم الليل، نرى كثيراً من المراكب الذهبية اللون، الخاصة بكبار الشخصيات، يتنزهون بها مع زوجاتهم، ولا يمضى يوم دون أن

---

(١) «فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية» أندرية ريمون، ترجمة زهير الشايب، ص ١٩٣ - ١٩٤.. تنسب «الأزبكية» إلى الأمير سيف الدين أزبك بن ططخ الأشرفى الظاهرى، الذى كان يقطن بالقرب من هذه المنطقة. فأراد أن ينشئ مناخاً لخيوله وجماله، فمهد ما كان بها من كيمان، وحفر بها البركة المنسوبة إليه وأجرى إليها الماء من الخليج الناصرى، وجدد عمارة قنطرة خليج الذكر، وبلغ ما أنفقه مائتى ألف دينار، وأنشأ بها جامعا وعدداً من القصور والأسواق والحمامات والحوانيت، حتى صارت «مدينة على إنفرادها» كما قال ابن اياس، وذكر على مبارك أن مساحة البركة كانت ٦٠ فدانا، وقد هدم جامع أذبك إبان تنظيم ميدان العتبة وفتح شارع القلعة (محمد على) وردمت البركة فى سنة ١٨٦٤، بعد أكثر من أربعة قرون من حفرها، وأنشئت حديقة الأزبكية، ونفذت بها الجبلاية الصناعية، وزرعت بها الأشجار النادرة، وأشرف على تصميمها وتنفيذها المهندس «باريل بك» وهو الذى نظم حدائق الأورمان وسراى الجيزة، وأنشئ بها مسرح كوميدى، وفى سنة ١٨٦٩ أنشئت دار الأوبرا، التى احترقت عام ١٩٧٢، وفى عام ١٨٧٣ أقيم تمثال إبراهيم باشا، وفى عام ١٨٩٩ أنشئ فندق الكونتنتال.. وكان يحيط بحديقة الأزبكية سور ضخم تتخلله أبواب، ومساحتها كانت نحو ٢١ فدانا، وقد سميت الشوارع المواجهة للأبواب بأسمائها - بعضها باق إلى الآن - فشارع الباب الشرقي يواجه موقف الأتوبيسات العامة بنهاية شارع ٢٦ يوليو، وشارع الباب البحرى يصل إلى شارع نجيب الريحانى، وفى ٢٧ إبريل عام ١٩٥٤، إمتد شارع ٢٦ يوليو، ليخترق الحديقة ويقسمها إلى شطرين، وفتحت أبوابها لجماهير الشعب كى تنعم بها، بعد أن أزيلت أسوارها، وأقيم بها مسرح للعرائس، ومسرح ٢٦ يوليو، أما مسرح الأزبكية (المسرح القومى) فقد كان موجوداً من قبل، وكانت تديره شركة مصر للتمثيل والسينما - إحدى شركات بنك مصر، وكان بالحديقة بجوار المسرح، مكانا يستخدم سينما فى الهواء الطلق صيفا، ومكانا للباتيناج شتاءً، وأقيمت =

تطلق فيه الألعاب النارية أو دون أن يسمع فيه عزف الموسيقى، وتفتح المشربيات والستائر، ويرى فى النوافذ كثير من سيدات الطبقة الراقية، لم يكن يتاح لعين أن تلمح إحداهن فى الأوقات العادية.. إن هذا فى الحقيقة، واحد من أجمل المناظر التي يمكن لليل أن يهبه للعيون..».

ويقدم لنا سافارى صورة شائقة لقلعة القاهرة، فيقول : للقلعة مدخلين تحرسهما ثلة من الإنكشارية، وستة مدافع موجهة نحو مسكن الباشا، ذلك لأن هؤلاء الإنشكارية يمالئون البكوات المصريين، الذين يفرضون إرادتهم على الباشا. وبداخل القلعة، قصر سلاطين مصر السابقين، قد غلب عليه العفاء والخراب، إلا من بعض الأعمدة الفخمة والجدران الزاهية، وفى أحد أبهائه المهجورة، تصنع الكسوة النبوية التى يحملها أمير الحج كل عام، ويسكن الباشا قصراً يطل على «قرة ميدان» وممثل السلطان هذا، ليست له سلطة فعلية، بل هو أداة طيّعة فى أيدى الأمراء يحركونه طبقا لأهوائهم، وهو سجين بالقلعة لا يستطيع أن يغادرها دون إذن منهم. ويسكن الإنكشارية قصر صلاح الدين، وقد بقيت منه أطلال تدل على عظمته السالفة، وأربعون عموداً من الجرانيت الأحمر، وإلى جانبه توجد منظرة عالية تشرف على القاهرة، يُرى منها مشاهد المدينة الرائعة بميادينها ومآذن مساجدها وحدائقها.. ويبهره المشهد فيقول : «إن هذه البلاد الرائعة، التى كانت أزماناً، ملاذ العلوم والآداب والفنون، يحتلها اليوم شعب جاهل بربرى، يسومها التردى والإنحطاط، أجل إن الطغيان ليسحق بنيره الحديدى أجمل بلاد العالم، ويبدو أن شقاء الإنسان يزداد بنسبة ما تقدمه الطبيعة لإسعاده»!

= بها بعض الكازينوهات.. ولمزيد من التفاصيل عن بركة الأزبكية ونشأة حى الأزبكية وتطوره العمرانى،

راجع : بدائع الزهور: ابن إياس جـ٣، ص ٤١١ - ٤١٣؛ النجوم الزاهرة: ابن تغرى بردى جـ ١٥ ص ٣٨٣؛ موسوعة مدينة القاهرة، ص ١٠ - ١١؛ عجائب الآثار للجبرتى : جـ١ ص ١٩٢، ٢٠٤، ٢٠٨، ٢٦٥، ٣١٢، ٣٧٩، ٤١١/جـ٢ ص ١٧٧ / جـ٣ ص ١٥، ١٠١، ٢٤٣، ٥٩٧؛ الخطط التوفيقية : على مبارك جـ٣ ص ٦٧ ؛ تخطيط القاهرة وتنظيمها: حسن عبد الوهاب ، محاضرة بالمجمع العلمى المصرى ١٩٥٥.

ويخص سافارى الحياة فى مجتمع القاهرة، بالكثير من عنايته، ويفرد لها عدة رسائل شيقة فيصف المصرى بالكسل، يميل إلى الحياة الناعمة الهادئة، فلا يعرف صخب الحياة الأوربية وضجيجها، ونظام الأسرة المصرية عريق فى المحافظة، ويحظى رب الأسرة بكل مظاهر التكريم والإجلال، لا سيما فى شيخوخته، ويعيش أفراد الأسرة جميعا فى منزل واحد، ويجتمعون سويا حول مائدة الطعام، جلوسا على البُسط، وبعد الغذاء يأوى الرجال إلى الحرملك، وفى المساء يتريضون فى النيل بقوارب معدة للنزهة، وتكاد الحياة تجرى على وتيرة واحدة.. والمصرى شغوف بالتدخين، ويستورد الدخان من سوريا، وبعد انتهاء الجلسة، يأتى الخادم فيعطر للمدعوين لحاهم، ويصب ماء الورد على رؤوسهم وأيديهم.

ثم يقدم لنا سافارى صورة عن المرأة القاهرية - والمصرية بصفة عامة - فيقول أنها كانت كالرقيق، لا تلعب دوراً فى الحياة العامة، وإذا كانت المرأة الأوربية تسيطر على العروش، وتقود الآداب والتقاليد، فإن دولة المرأة فى مصر لا تتعدى «الحريم» ولا علاقة لها بالشئون العامة، وأعظم أمانيها أن تنجب البنين، وأهم واجباتها رعاية زوجها وأولادها، والحريم هو مهد الطفولة ومدرستها حتى سن السابعة أو الثامنة، والنساء لا يشاركن الرجال فى الظهور، ويقضين أوقات فراغهن بين الجوارى والغناء والسمر، ويسمح لهن بالخروج إلى الحمام مرة أو مرتين فى الأسبوع.. ويصف لنا سافارى حمامات القاهرة، ومشاهد الاستحمام والزينة، وشغف النساء بالذهاب إلى الحمام، حيث يستمتعن باللهو مع جواريهن، يستمعن إلى الغناء وقصص الحب..

وعن الزيارات النساعية يقول سافارى : أن المرأة تستقبل زائرتها فى ود وترحاب، ويحمل الجوارى أقداح القهوة، وأطباق الفاكهة اللذيذة، وعند الإنتهاء من تناولها، تصب الجوارى ماء الورد، فتغسل الزائرات أيديهن، ثم يحرق العنبر وترقص الجوارى، وفى أثناء هذه الزيارات، لا يسمح للزوج بالاقتراب من الحريم، إذ هو مكان للضيافة الخاصة، وهذا حق تحرص المصريات عليه كل الحرص.. وقد ينتفعن بهذا الحق أحيانا، للفوز بأمنية غرامية، إذ يستطيع العاشق أن ينفذ إلى الحريم - متنكراً فى زىّ إمرأة - فإذا لم يكتشف أمره، نال بغيته، وإذا أفتضح كان جزاؤه القتل. والمرأة القاهرية - على الأخص - مفرطة فى الحب والجوى، مسرفة فى البغض والانتقام..

وبإستثناء مذكرات «الجبرتى».. يمكننا القول بأن رسائل «سافارى» لها قيمتها وأهميتها الخاصة، فيما تقدمه لنا عن أحوال مصر فى تلك الفترة المظلمة من تاريخها،

كما كانت بما قدمته من ملاحظات وصورة للحياة فى المجتمع المصرى - لا نجدها فى أية مصادر أخرى - من أهم المصادر والوثائق، التي أفاد بها علماء الحملة الفرنسية، عند قيامهم بالإعداد لموسوعتهم الأشهر فى «وصف مصر».

وصف مصر Description de l'Egypte

إرتكزت العلاقة بين الغرب والشرق، منذ منتصف القرن الثامن عشر، على عنصرين، أولهما : إتساع دائرة معارف دول أوربا عن الشرق، تمثلت فى حصيلة ضخمة من المعلومات، التى أسهم فى صياغتها، رحالة على مستوى رفيع من الموهبة والذكاء ودقة الملاحظة، وأدباء وشعراء ومترجمون، بالإضافة إلى تقارير القناصل الأوربيون. واهتمام جامعات أوربا بوضع برامج متكاملة للغات والدراسات الشرقية.

وثانيهما : التفوق العسكرى والاقتصادى لأوربا على الشرق..

وبالطبع لا يمكننا أن نغفل «الدور المقوت» الذى أداه المستشرقون، في التمهيد للاستعمار الأوربى، بتقديم حصيلة ثقافية ضخمة لخدمة الأهداف الاستعمارية، فتواكب حركة الاستشراق مع التوسع الاستعمارى.. هؤلاء الرحالة والمستشرقون، لم يكونوا طلاب سياحة وبحث فحسب، بل كانوا طلائع الاستعمار الغربى المتوثب آنذاك، توافدوا إلى مصر وجاسوا خلال ديارها، يتفقدون أوضاعها السياسية والاقتصادية وقدراتها الدفاعية، ويتدارسون حياتها الاجتماعية، ظواهرها ومشاكلها، بكل عناية ودقة.

والتنافس بين إنجلترا وفرنسا، والذى كان بدايته فى الهند وجزر الهند الشرقية،

قد بلغ أوجه فى منطقة الشرق الأدنى، وكان صراع الإمبراطوريتين فى الهند، قد حسم لصالح إنجلترا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، مما دفع «نابليون» إلى التفكير فى ضرب مصالح انجلترا بالهند عن طريق الشرق الأدنى.. الأمر الذى أسفر عن الإعداد وإرسال الحملة الفرنسية بقيادته، إلى مصر...

بعيدًا عن الخوض فى المتغيرات السياسية والاجتماعية والفكرية التى أحدثتها الحملة الفرنسية - كرأس جسر للمدنية الغربية الحديثة - في مجتمع شديد المحافظة كالمجتمع المصرى، فى ذلك العصر، وبغض النظر عن أن مجئ الحملة الفرنسية، قد أحدث نوعًا من الفصل بين الولاء السياسي والولاء الدينى، أو ما يمكن أن نسميه : بداية مرحلة فصل الدين عن الدولة، فإن من وجهة نظرنا، أن أهم آثار الحملة الفرنسية: أنها أعادت الإتصال الحضارى بين المصرى وحضارته القديمة، من خلال الجهود العظيمة التى بذلها علمائها فى دراسة آثار تلك الحضارة، وما ترتب على هذه الدراسات من توالى الاكتشافات الأثرية القيمة، وحل رموز اللغة المصرية القديمة، وما ترتب على ذلك من إماطة اللثام عن تاريخ مصر في عهد الفراعنة، والذى كان حتى ذلك الحين، محاطًا بأستار كثيفة من الغموض الكامل.

ومن الأهمية أن أشير إلى أن العرب الفاتحين وولاتهم بمصر، لم تكن لديهم فكرة نبيلة فى تقدير التراث الأثرى والفنى، فقد كان للعقلية العربية فى بدء الإسلام، والتى اضطرمت حماستها بتعاليم الدين الجديد، موقف من آثار مصر القديمة، باعتبارها رموز وهياكل لـ «الوثنية» وترداف عندهم أصنام اللات والعزى، تمثل فى تدمير وتخريب الكثير من آثار الحضارة المصرية القديمة، مما أدى إلى تكريس إنقطاع صلة المصرى بتراث تلك الحضارة التى لم تخلفه أى من حضارات الأرض جميعًا!

فساهمت جهود هؤلاء العلماء - الذين رافقوا الحملة الفرنسية - فى التركيز علي التمايز الحضارى والثقافى لشعب مصر - فى إطار تميز الحضارة المصرية القديمة بين حضارات العالم - ومن خلال عنايتهم بالآثار المصرية، بدأ ينمو لدى المصريين الشعور بعظمة تلك الآثار، وبالتالى الإنتساب إلى «ثقافة خاصة» تضرب بجذورها إلى العصر الفرعونى..

وأثمرت جهود هؤلاء العلماء، كتاب «وصف مصر» أعظم مجهود علمى بذل حتي القرن التاسع عشر، للتعريف بمصر القديمة والحديثة، كما يمثل حلقة إتصال قوية

بين ماضى مصر وحاضرها، فجاء دائرة معارف شاسعة عن تاريخ مصر وحضاراتها، وجغرافيتها وخططها وآثارها، ومناخها وخواصها الطبيعية، وأجناس شعبها وشمائلهم وحرفهم وتجارتهم، وثروتها الزراعية والحيوانية والمعدنية، وبالإضافة إلى هذه الموضوعات البحثية المفصلة.

قام عدد من المهندسين والفنانين، بوضع مئات من الخرائط واللوحات لخطط وآثار مصر القديمة والإسلامية، وظهر القسم الأول من ذلك الأثر الضخم الخالد، فى سنة ١٨٠٨. واستمر صدور أجزاء الطبعة الأولى حتى عام ١٨٢٢، واشتملت هذه الطبعة على تسعة أجزاء تحوى بحوث وتقارير العلماء، وأحد عشر مجلداً أخرى تحوى الخرائط واللوحات، وكان قد بدئ فى إخراج الطبعة الثانية (طبعة بانكوك panckoucke) فى عهد الملك «لويس الثامن عشر» فى عام ١٨٢٠. وتم الفراغ من طبع أجزائها فى عام ١٨٢٧، وأهديت الأجزاء الأخيرة إلى الملك شارل العاشر(١).

وفيما يخص موضوعنا، فقد كانت الخرائط التفصيلية التى رسمها الفرنسيون، لأحياء القاهرة ومعالمها وطرقاتها وآثارها - حتى سنة ١٨٠٠ - هي الأولى من نوعها لمدينة القاهرة، وكانت ركيزة لأعمال رسامى الخرائط، فى عهد محمد على باشا وخلفائه(٢).

وكان من أنشط العلماء الذين رافقوا الحملة الفرنسية، هو المهندس والجغرافى والأثرى : «جومار E.F. Jomard » والذى قام وحده بوصف مدينة القاهرة، ومنف والفشن وانتنوى وأشمونين وأبيدوس وأرمنت وطيبة وادفوا وأسوان.. وغيرها، كما شارك «كاريستى» فى وصف آثار الفيوم وبحيرة قارون، كما تناول فى أبحاثه : الفلك والرياضيات عند المصريين القدماء، وسكان مصر قديماً وحديثاً، والقبائل العربية فى مصر الوسطى، كما تعرض للغة المصرية القديمة وحاول فك رموز حجر رشيد، قبل أن ينجح «شمبوليون» فى ذلك..

وفى الصفحات التالية، أعرض لمقتطفات من - وصف مدينة القاهرة - لجومار،

(I) Carré, J. Marie : Voyageurs et Ecrivains en Egypte, Vil 1, p. 157

(٢) «خطط القاهرة فى أيام الجبرتى» : د. عبد الرحمن زكى، بحث فى كتاب : عبد الرحمن الجبرتى - دراسات وبحوث ، ص ٤٧٢.. فى عام ١٩٣٠، أعادت مصلحة المساحة طبع خريطة الحملة الفرنسية - بناء على أمر الملك فؤاد - موضحاً عليها التغييرات التى طرأت على القاهرة، خلال مائة وثلاثين عاماً.

والذى يمكننا من خلاله أن نرسم صورة واضحة المعالم، لما كانت عليه الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى القاهرة، وأهم معالمها الأثرية وخططها وظواهراها، فى إطار منهج علمى دقيق، يمثل تطوراً فى كتابة الخطط...:

E.F. Jomard چومار

يتمايز وصف «چومار»[1] عن سلسلة المؤلفات المتعلقة بتاريخ الخطط المصرية، بأنه تسجيل ووصف لحالة مدينة القاهرة، فى الفترة من يوم ١٠ ديسمبر سنة ١٧٩٩، إلى منتصف فبراير سنة ١٨٠٠، وهى الفترة التي قام فيها چومار بجولته فى القاهرة، لتسجيل معالم المدينة، على الخريطة التى وضعها المهندسون الجغرافيون المصاحبون للحملة الفرنسية فى مصر..

وثمة ميزة أخرى لهذا الوصف.. حيث تفرّد بخريطة تفصيلية - هى الأولى من نوعها - مصاحبة للوصف الطبوغرافى، موضح عليها حدود المدينة، وشوارعها الرئيسية والفرعية، وأهم معالمها مع شرح لما جاء على هذه الخريطة[2].

يصف چومار القاهرة قائلا[3]:

«تقع القاهرة - المدينة العاصمة لمصر - بين مصر العليا ومصر السفلى، على خط عرض ٣٠ ٢ ٢١ شمال خط الاستواء، وخط طول ٢٨ ٥٨ ٣٠ شرق باريس، وذلك بالرصد من قصر حسن باشا كاشف، حيث أنشئ المعهد العلمى المصرى[4]..

---

(١) هو المهندس والجغرافى والأثرى الفرنسي: أدم فرانسوا چومار Edme Francois Jomard ، ولد فى فرساى عام ١٧٧٧، وكان أحد أعضاء البعثة العلمية المرافقة للحملة الفرنسية على مصر، وأختير عضوا بالمعهد العلمى المصرى فى الفترة من عام ١٧٩٩ إلى ١٨٠١، وكانت له محاولات فى فك رموز «حجر رشيد» قبل أن ينجح شمبوليون فى ذلك، وشغل منصب سكرتير هيئة تحرير كتاب «وصف مصر» لمدة عشرين عاما، وعاونه ثلة من العلماء، كان على رأسهم: مارسيل ولوبير وجولوا وسابرول وديبوا وكوستاز.. وشارك مع لانجلية وما لتبرون ووالكينير في تأسيس الجمعية الجغرافية فى باريس عام ١٨٢١، كما أسهم فى تأسيس قسم الخرائط واللوحات الأهلية فى باريس.

(٢) «وصف القاهرة وقلعة الجبل» : چومار، ترجمة د. أيمن فؤاد، ص ١٧ من المقدمة.

(٣) راجع فصل «لمحة عامة عن القاهرة» من المصدر السابق، ص ٧٣ - ٩٧.

(٤) كان هذا القصر من أجمل قصور المماليك، وقال عنه المؤرخ الجبرتى، خلال حديثه عن حسن كاشف: أنه عمر الدار العظيمة بالناصرية، وصرف عليها أموالا عظيمة، وقبل بياضها، وصل الفرنسين إلى مصر فسكنها الفلكيون والمهندسون، فلذلك صينت من الخراب، كما وقع لغيرها من الدور.. وقد ذكر «جوفرواسان هيلير» أحد أعضاء المجمع العلمى المصرى، فى كتابه: رسائل من مصر.. «عدت من المجمع العلمى بالقاهرة وهو يتألف من قصرين من قصور البكوات حسن كاشف وقاسم بك، وفيهما من وسائل الراحة ما لايقل عن قصر اللوفر، وهذه =

ولا تقع المدينة على النيل نفسه، ولكنها تبعد عن ضفته اليمنى حوالى ثمانمائة مترًا، أو ألفان وأربعمائة قدمًا، وهذا القياس مأخوذ من النقطة أكثر قربًا للمدينة من النهر، والقادم إلى المدينة من الشمال، يلقى قبل أن يصل إليها، المدينة الصغرى المعروفة ببولاق، أما القادم من الجنوب، فيلقى فى طريقه إليها. مدينة مصر القديمة (الفسطاط) : وهاتان المدينتان هما مينائى القاهرة، لذلك فإن البضائع يجب أن تحمل من النيل إلى القاهرة على ظهور الرجال أو الجمال.

وقد شيدت هذه المدينة، عند سفح جبل المقطم - على آخر ربوة لسلسلة هذا الجبل - لذلك فإنها تتجه دومًا بصعود حتى القلعة الكبرى الواقعة جنوب شرق المدينة وأسفل قليلا من هضبة الجبل.. والتقسيم الداخلى للمدينة، لا يشبه ألبته تقسيم مدن أوربا.. فهى توشك أن تتكون فى مجملها - إذا استثنينا العديد من الطرق الكبيرة - من سكك قصيرة جدًا، وتفريعات شديدة التعرج تؤدى إلى دروب لا تحصى، وكل من هذه التفريعات، مغلق بباب يفتحه السكان حين يشاؤون، مما يجعل التخطيط الداخلى

= الدور المتجاورة يقطن بها العلماء. وكان نابليون قد أنشأ هذا المجمع العلمى على غرار - المجمع الوطنى - فى باريس، وضم إليه الصفوة الممتازة من أعضاء لجنة العلوم والفنون التى صاحبت الحملة، وعين «مونج» رئيسًا للمجمع، على حين كان نابليون نائبًا للرئيس.. وتكون من أربعة أقسام، (١) قسم الاقتصاد السياسى: الجنرال عالم الاجتماع كافاريللى والدبلوماسيات بوسيلج وتاليان. (٢) قسم الرياضيات : مونج وجيرار وفوربية وكوستاز. (٣) قسم الطبيعيات: بيرتولية وكونتيه ودينبيت وجوفروا إيلير. (٤) قسم الآداب والفنون : ڤيڤان دينون ودوترتر وديدتيه والمستشرق ڤنتور.

وكان هذا القصر أول مقر لنواة المتحف المصرى، إذ أودعت به بعض الموميات، وحجر رشيد الذى اكتشفه الكابتن بوشار. وقد تردد الجبرتى على مقر المجمع العلمى ومكتبته ووصفها وصفا دقيقا، وكان أول اجتماع عقد للمجمع أو المعهد العلمى المصرى فى يوم ٢٣ أغسطس عام ١٩٧٨ بقصر حسن باشا كاشف، والذى كانت وفاته فى ١٨٠٦، فأقام به عثمان بك البرديسى، وبعد وفاته هو الآخر، انتقلت ملكيتها إلى محمد على باشا فجعلها مدرسة، ثم أبطلها عباس باشا وجعلها مسافر خانة، وفى عهد الخديو إسماعيل جعلت مدرسة المبتديان.. وموضع هذا القصر اليوم هو المدرسة السنية الكائنة عند التقاء شوارع الناصرية وخيرت والمبتديان بحى السيدة زينب:

الجبرتى : عجائب الآثار - جـ٣ ص ٣٤ - ٣٥]؛ [الخطط التوفيقية : على مبارك، جـ ٣ ص ٩٧]؛ [د. عبد الرحمن زكى : خطط القاهرة فى أيام الجبرتى، ص ٤٩٢]؛ ولوحات هذا القصر والمجمع وحديقته منشورة فى :

Description de L'Egypte : L'etat moderne, pl. 54 - 60

لمدينة القاهرة فى جملته أمرًا بالغ الصعوبة، وهو ما لم يتم، إلا حين سيطر الفرنسيون على المدينة..

وقد جُعلت شوارع المدينة ضيقة جدًا - عن قصد - بسبب حرارة الجو، حيث يتراوح عرضها ما بين خمسة وخمسة عشر قدمًا، بل إن منها ما يتراوح عرضه بين قدمين وقدمين ونصف فقط! وكثيرًا ما تتماس شرفات المنازل المتقابلة في هذه الشوارع، والعديد من شوارع المدينة مغطاة من أعلى، حتى لا تتسرب إليها أشعة الشمس، والضوء الوحيد الذى يضئ هذه الشوارع، هو نور منعكس، ويلاحظ ذلك - على الأخص - فى الشوارع التى تشغلها الأسواق.

وقد أصبح اليوم قسم من سور القاهرة القديم[1]، داخل المدينة، التى اتسعت كثيرًا في إتجاهى الشمال والغرب، بينما بقيت داخل حدودها الأولى فى جهتى الشرق والجنوب، ويتكون هذا السور القديم، الذى لا يحيط بها بكاملها، من جدران متباينة الطول والمتانة مدعمة بأبراج مستديرة ومربعة وكثير من أبوابه مزوّد أيضا بأبراج صغيرة وكبيرة مخصصة للدفاع...».

ويقول عن منطقة الأزبكية : «.. عندما يصل فيضان النيل إلى ذروته، وذلك فى شهر سبتمبر، تمتلئ بركة الأزبكية بالمياه التي يصل إرتفاعها لعدة أقدام، وعندئذ تصبح حوضًا واسعًا تغطيه المراكب التى تضاء أثناء الليل، فتضفى على المكان منظرًا مثيرًا للإعجاب، وبينما تكسو أرض الميدان الخضرة شتاءً، يصبح جافًا ومغبرًا فى الربيع، ويحف بهذا الميدان، أحياء القبط، وقصر الألفى بك القديم، ومنازل الشيوخ الأكثر ثراءً».

---

(١) شُيد سور القاهرة ثلاث مرات: المرة الأولى عند تأسيس مدينة القاهرة فى سنة ٣٥٨ هـ، وأنشأه جوهر، قائد المعز لدين الله من الطوب النئ وجعل أبوابه من اللبن مما عجل بزواله، وفيما بين سنتى ٤٨٠ و ٤٨٥ هـ، وسع أمير الجيوش بدر الجمالى القاهرة من جهتها الشمالية والجنوبية، ونقل أسوارها إلى حيث يحدد موقعها اليوم بابى الفتوح والنصر فى السور الشمالى، وباب زويلة فى السور الجنوبى، وجعل السور من اللبن، بينما بنى الأبواب من الحجر، وفى سنة ٥٦٦ هـ قام صلاح الدين - أثناء وزارته للخليفة العاضد الفاطمى - بإعادة تحصين القاهرة، ورمم سور بدر الجمالى بالحجر، خاصة فى الجزء الواقع بين باب زويلة والخليج، وفى سنة ٥٧٢ عهد صلاح الدين إلى بهاء الدين قراقوش، ببناء سور لا يحيط بالقاهرة فحسب، بل وبالقلعة والفسطاط جنوبا، وامتد أيضا من جهته الشمالية ليصل إلى شاطئ النيل عند المقس غربًا. (خطط القاهرة : المقريزى جـ١، ص ٣٧٧ - ٣٨٠).

«وفضلاً عن - البرك - التى تكونت عن طريق مياه الفيضان، فى ميدانى الأزبكية وبركة الفيل[1]، كانت هناك أيضا: بركة الفرائين وبركة الدمشالة[2] بداخل القاهرة جهة الغرب، وبركة أبى الشامات[3] وبركة السقايين[4]، وبركة الدم - حيث يجرى دم السلخانات، وبركة السابر، وبركة الفوالة بطرف المدينة فى الاتجاه نفسه، وبركة

---

(١) كانت «مناظر الكبش» فى عصر الدولة الطولونية، تطل على هذه البركة التاريخية، وقد عسكر حولها جوهر القائد بجنوده، عند قدومه إلى مصر سنة ٣٥٨ هـ. ثم أنشأ مدينة القاهرة إلى الشمال منها، فأصبحت بركة الفيل واقعة بين باب زويلة والفسطاط ولم تبدأ العمارة حولها إلا فى زمن الدولة الأيوبية. (الخطط للمقريزى : جـ٢ ص ١٦١ - ١٦٢).
ومنذ سنة ٦٢٠ هـ، تحولت معظم أراضى هذه البركة - تدريجيا - إلى مساكن، حتى أنه لم يبق منها بغير بناء إلى عام ١٢١٥ هـ / ١٨٠٠، إلا قطعة أقيم عليها بعد سراى عباس حلمى باشا الأول والى مصر، والتي عرافت بسراى الحلمية، وفى سنة ١٨٩٤ قسمت أراضى الحديقة، ثم هدمت السراى نفسها فى سنة ١٩٠٢، وقسمت أراضيها أيضاً وأقيمت عليها عمارات حديثة تعرف اليوم بين أحياء القاهرة بـ «الحلمية الجديدة»..
وكانت هذه البركة تشغل من القاهرة، المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بسكة الحبانية ومن الغرب بشارع بور سعيد ومن الجنوب بشارع عبد المجيد اللبان، ثم يميل الحد إلى الشمال الشرقى حتى يتقابل مع أول شارع نور الظلام ويسير فيه إلى أول شارع الألفى، ومن الشرق كمالة شارع نور الظلام فشارع مهذب الدين الحكيم، فسكة عبد الرحمن بك وما فى امتدادها إلى الشمال حتى تقابل الحد البحرى. (النجوم الزاهرة: تعليقات محمد رمزى : جـ ٧، ص ٣٦٥ - ٣٦٧).

(٢) هاتان البركتان كانتا تقعان فى جزء من المساحة التى يشغلها اليوم قصر عابدين وميدان الجمهورية.

(٣) تعرف هذه البركة أيضا «ببركة المعهد» و «بركة قاسم بك» وقد ظهرت بأرض طرح البحر التى نتجت عن انحسار ماء النيل القديم فى سنة ٣٠ ٣ هـ غربى شارع نوبار، بأرض اللوق، ومكانها اليوم مبانى وزارة التربية والتعليم ووزارة الإنتاج الحربى ووزارة المالية وبعض المساكن المجاورة..
(الخطط التوفيقية : على مبارك، جـ٣، ص ٩٧)، (النجوم الزاهرة : تعليقات محمد رمزى : جـ ٩، ص ١٩٤ - ١٩٥).

(٤) كانت تعرف أيضا ببركة «ستى نصره» و، بالبركة الناصرية»، وكانت من جملة جنان الزهرى، وحفرها السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢١ هـ (الخطط للمقريزى : جـ٢، ص ١٦٥، ٣٠٩، ٣٢٧) ومكانها اليوم المنطقة التى يخترقها شارع نصرت، ويحدها من الشرق شارع محمد فريد، وغربا شارع مصطفى كامل، وجنوبا شارع الجامع الإسماعيلى بحى =

الملا فى الجنوب ثم بركة الرطلى[1]، وبركة الشيخ قمر فى الشمال[2].

ويمتلك كبراء المدينة وشيوخها «بساتين» متصلة بالمدينة تحمل أسماءهم، ومن أكبر هذه البساتين، غيط قاسم بك، وهو البستان الذى كان يجتمع فيه أعضاء المعهد المصرى و لجنة العلوم والفنون[3]. خلال الحملة.. وتتألف هذه البساتين من مجاميع كثيفة من أشجار البرتقال

= السيدة زينب (النجوم الزاهرة : تعليقات محمد رمزى جـ ٩ من ١٩٤، جـ ١٢ ص ٨٦).

(١) عرفت ببركة «الطوابين» حيث كان يصنع بها الطوب، وعندما حفر السلطان الناصر قلاوون، الخليج الناصرى سنة ٧٢٥ هـ، إلتمس الأمير بكتمر الحاجب أن يمر الخليج بجانب بركة الطوابين ويصب ماؤه من بحريها فى الخليج المصرى، فمر الخليج الناصرى من ظاهر هذه البركة، فلما جرى ماء النيل فيه، روى أرض البركة، فعرفت ببركة الحاجب (الخطط للمقريزى : جـ٢ ص ١٦٢).

وعرفت ببركة «الرطلى» لأنه كان بشرقها زواية، بها كثير من النخيل، وفيها شخص يدعى «الشيخ على الرطلى» كان يصنع الأرطال الحديدية المستخدمة فى الموازين، فنسب إليه.. والبركة وما حولها من الدور والمنتزهات والبساتين، صارت كلها تلالا وخرائب وكيمان أتربة (عجائب الآثار: الجبرتى جـ ٣. ص ١٠٤).

وهذه البركة كانت جزءا من أرض الطبالة - الفجالة حاليا - وظلت باقية حتى منتصف القرن التاسع عشر، ثم تحولت إلى أراض للبناء، وكانت تشغل تقريبا : المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بشارع الظاهر، وغربا بشارع حبيب شلبى وما فى امتداده شرقا حتى يتقابل مع شارع البكرية..

(النجوم الزاهرة : تعليقات محمد فوزى: جـ ٥ ص ١٢، جـ ٧ ص ٣٨٩، جـ ١١ ص ١٧١).

(٢) كانت بركة الشيخ قمر ، فى الموضع الذى يشغله الآن: قصر السكاكينى باشا وما يحيط به من مساكن (النجوم الزاهرة : محمد رمزى جـ ٩ ص ٢٠٣).

(٣) «.. مع أن تاريخ مصر الفرعونية، لم يكن ليأخذ مكانته العلمية الدقيقة قبل تدخل شمبوليون الحاسم فى حل رموز الهيروغليفيات عام ١٨٢٢، إلا أن مطلع القرن التاسع عشر يدين بعد - ڤيفان دينون - بمعارفه عن الفن الفرعونى إلى مهندسى «لجنة العلوم والفنون» الذين سجلوا على لوحات كتاب «وصف مصر» معالم العمارة والنحت والفنون الدقيقة، خلال الدولة المصرية الحديثة والعصر البطلمى، ولم يكن ذلك ليتم لولا الجهود المضنية التى بذلتها البعثات العلمية الموفدة إلى صعيد مصر فى عام ١٧٩٩.. (مصر فى عيون الغرباء : د. ثروت عكاشة، جـ١ ص ١٣٢).. ومن بين العلماء الذين ضمتهم لجنة العلوم والفنون: كوستاز costaz وفورييه fourier و أندريوسى Andréossy ولودوى le Roy وڤيار viavd : من علماء الرياضيات؛ ثم نيقولا شامبى N. Champy وديكوتيل Dascotils وبيكيه piequet من علماء الكيمياء والطبيعة؛ ثم شابرول V. chabrol وجيرار Giratd وجولوا Jollois ولانكريه lancret ومارتان Martin ولوبير le pére وكانوا من مهندسى الطرق والمساحة ؛ ثم إنضم إليهم عدد من المهندسين الجغرافيين، بينهم جومار Jomard وجاكوتان Jacotin =

والليمون وتكعيبات العنب.. وأشجار السنط والتين والجميز - أضخم أشجار مصر متداخلة مع النخيل ذى الجذوع المتطاولة، وأشجار التوت والرمان والنبق والآس والسنط المصرى ثم أشجار الموز ذى الأوراق العظيمة والفاكهة اللذيذة.. .. ويمكننا أن نأخذ قسطاً من الراحة داخل أكشاك مغطاة بالأعراش، حيث يدخن فيه مرتادوها، دخانا طيب الرائحة، وحيث نستنشق بها طوال العام، هواء تفوح منه أذكى أنواع العطور..».

أما أسواق المدينة، فتنقسم إلى أسواق موسمية وأسواق دائمة، يبلغ مجموعها ٥٦ سوقاً، أهمها التى يتردد عليها الناس كثيراً وتباع فيها الكساء فى وقت العصر، ولذلك أطلق عليها «سوق العصر» ثم «سوق المغاربة» التى تباع فيه متاجر المغرب، ثم «سوق الموسكى» الذى تعرض فيه متاجر أوربا، بالإضافة إلى «سوق السلاح».

= وكورابوف Coraboeuf وفوبي Faubie ؛ ثم دوشانوى Duchanoy وچيرات Gératé وردوتيه Redouté وسافينى Savigny من علماء الحيوان؛ ثم دى مونتبير- C. de Montbert ومارى Marie وميلبير Millert من علماء النبات، ثم كوردييه Cordier وديبوى Dupuy ودولوميو Dolomieu من علماء المعادن، ثم بيدو Bidou ودبيرون Daburon ولابات labatte من أطباء والجراحين، ثم بوديه Boudet ورجوان Roguin من الكيميائيين، ومن الرساميين والموسيقيين ڤيفان دينوى V.Denon . وريجو Rigo وفوكيه Fouquet وجولى Joly وڤيلوتو Villoteau ، ثم أرنو Arn ault وبودين Boutienne وجلوتيبه Gloutier ورينييه Reynier وسوسى Sucy وليروج lerouge من الأدباء وعلماء الآثار، ثم مارسيل Marcel وجالان Galland وبسوق Desson ولابورت laporte الذين عهد إليهم بأعمال الطباعة، وكان من المستشرقين: بيلتت Belletéte وبراكيفيتش Bracevich وچوبير jaubert ودى لابورت Delaporte وريج Raige وڤنتور Venture وقد إنضم إلى هؤلاء أيضا مارسيل.. وهؤلاء جميعهم كانوا من بين ١٧٥ عالما ومستشرقا وفنانا، شملتهم لجنة العلوم والفنون التى صاحبت الحملة الفرنسية في مصر :

(Galland: Tableau de l' Egypte pendant le séjour de l' Arée Francaise, vol 11, p.p. 351 - 351, paris 1804)

وكان نابليون قد أصدر أمراً فى ١٤ أغسطس ١٧٩٩ بتشكيل بعثتين لإجراء بحوث عن الآثار المصرية فى الطريق من القاهرة حتى طيبة ووادى الملوك والكرنك ومدينة أبو ومعابد إدفو وفيله، وتحقيق مواقع بعض المدن القديمة ودراسة أحوال النيل، وكانت البعثة الأولى برئاسة كوستاز وضمت من العلماء : ريبو ونوت وميشان وكوتيل وكوكبير وسافينى وبلزاك وديبولت وكورابوف ولنوار ولابات ولوبير وسانت جنيس وڤيار. والبعثة الثانية برئاسة فورييه وضمت چومار وشابرول وفيلوتو وريدوتيه ولاسبيير وأرنولليه وفنسان وسيسل وچوفروا إيلير وبارسيفال. وكان الچنرال كليبر على اتفاق تام مع بونابرت، فى الاهتمام بالأبحاث والدراسات =

ثم تناول چومار آثار القاهرة ومنشآتها العامة فقال:

«.. تأتى المساجد فى مقدمة آثار القاهرة، فهى تحوى مائتين وثلاث جامعًا، بالإضافة إلى مائة وثمان وخمسين مسجدًا صغيرًا أو زاوية، يتميز من بينها نحو ٥٠ مسجد بفخامة عمارتها..

وأكبر أربعة جوامع هى : جوامع ابن طولون والحاكم والأزهر والسلطان حسن.. وجامع الحاكم شبه مهجور.. ويقع الأزهر فى حى مزدحم بالسكان، ولذلك فهو أكثر روادًا ويسمونه الجامع الكبير، وإليه لجأ المتمردون أثناء ثورة القاهرة ضد الفرنسيين، وملحق به مدرسة ومكتبة. ولعل جامع السلطان حسن هو أجدر هذه الجوامع بالملاحظة، لضخامته وعلو قبته وارتفاع مئذنتيه وكثرة أنواع الرخام المستخدم فى تزيينه، ونحن لا نرى به، أى أنواع أخرى من النحت، فيما عدا زخارف الأرابيسك المشغولة فى الأحجار الصلبة أو فى الخشب أو فى البرونز، كذلك لا نرى به أى رسوم بخلاف النقوش إلى خطت بحروف ضخمة مطلية بالذهب ومتدرجة الألوان بين الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق، أما شبابيك الجامع فقد صنعت من فسيفساء غنية متعدد الألوان.

وهناك من المساجد مالا يقل روعة بأى حال عن سابقتها مثل : جامع الحسين وجامع المارستان وجامع السلطان برقوق وجامع المؤيد وجامع شيخون وجامع الأشرفية وجامع الغورى وجامع السلطان قلاوون وجامع سُنقر.. أيضا جامع عمرو وجامع الظاهر بيبرس ويقعان خارج حدود المدينة.

= العلمية، فأراد أن يتم ما بدأه بونابرت، فأمر بتشكيل بعثة ثالثة فى ٢٠ نوفمبر ١٧٩٩ - بعد توليه قيادة الحملة - كانت مهمتها دراسة عادات وتقاليد أهل مصر، وتاريخهم وتشريعاتهم ودياناتهم، وشئون الإدارة والتعليم والتجارة، ووضع الخرائط واللوحات الخاصة بذلك، وتشكلت على النحو التالى :

(١) التشريع والعادات والتقاليد والديانات: جلوتييه وفورييه. (٢) الإدارة: تاليان. (٣) الحكومة والتاريخ : روشتى ومارسل. (٤) الشئون العسكرية : بودوت ودوجا (٥) الشرطة: فورييه ودوجا (٦) التجارة والصناعة : ليفرون وروشتى وكونتيه (٧) الزراعة: جيرار وتاليان. (٨) السكان: ديچنت (٩) الآثار: تنقيب ودراسة، مارسيل وبروتان ودوترتر (١٠) الجغرافيا والهيدروليكا : لوبير وچاكوتان:

(Champollion : Figeac - Doc. IV Piece c, pp. 3 2 6 - 327)

أما النصارى فلهم «ديارات» و «كنائس» مخصصة للطوائف المسيحية المختلفة وهى : الكاثوليك والأقباط أو «المنشقين» والروم والأرمن والسريان، ويوجد بالقاهرة ومصر القديمة سبعة وعشرون كنيسة مسيحية، بينما لليهود بها عشر معابد.

«.. والأحياء التى يشغلها الأقباط والفرنجة والروم واليهود، مفرقة فى كل أنحاء المدينة، وغير محمية بسور خاص، ولكل أمة كنائسها التى تمارس فيها عبادتها بسلام، وبدون أى نوع من تعكير الصفو، وهذه ملحوظة لدينا عنها فى أوربا أفكار غير مطابقة للحقيقة»[1].

والمنشآت العامة الأخرى هى : الحمامات والأسبلة والأحواض والمدارس والقناطر المقامة على الخليج.. ..

فهناك خمسة وأربعون حماماً رئيسياً تتميز إما بضخامتها، وعلى الأخص: حمام يزيك[2] وحمام السلطان[3] وحمام المؤيد[4] وحمام الطنبلى[5] وحمام مرجوش[6].

---

(١) وصف القاهرة وقلعة الجبل : جومار، ترجمة : د. أيمن فؤاد، ص ٢٠١.

(٢) هو حمام العتبة الخضراء، الذى شيده الأمير ازبك بن ططخ بجوار مسجده، وقد أزيل هذا الحمام مع جامع أزبك والوكالة، عند إعادة تخطيط الأزبكية وميدان العتبة وشق شارع محمد على فى عهد الخديو إسماعيل (الخطط التوفيقية : على مبارك، جـ٦ ص ٧٠).

(٣) هذا الحمام يقع شمال المدرسة الكاملية بشارع المعز لدين الله وتنسب إلى السلطان إينال الذى شيده فى ٨٦١ هـ / ١٤٥٦ (النجوم الزاهرة : جـ ١٦، ص ١١٤).

(٤) أنشأ هذا الحمام الملك المؤيد شيخ، وجعله وقفا على جامعه الذى بناه سنة ٨٢٣ هـ، ومازالت بقاياه ماثلة إلى اليوم، غربى جامع المؤيد.
(الخطط التوفيقية : على مبارك . جـ٣ ص ٥٦، جـ ٦ ص ٧٠).

(٥) هذا الحمام كائن بشارع الطنبلى، على يمين السالك من الطنبلى إلى باب الشعرية، وله بابان أحدهما من الشارع، والثانى من درب الأقماعية، ويسلك إليه من جهة العدوى ومن جهة الجامع الأحمر، وهو معد للرجال والنساء. (الخطط التوفيقية : على مبارك. جـ ٦ ص ٢٠١).

(٦) هو الحمام المعروف اليوم بحمام «الملاطيلى» بآخر سويقة أمير الجيوش (حُرف الإسم على ألسنة العامة إلى مرجوش) بالقرب من مسجد الغمرى، وذكره المقريزى فقال: حماما سويد، عرفتا بالأمير عز الدين معالى بن سويد، وقال أبى السرور البكرى فى قطف الأزهار من الخطط والآثار: بأنها كانت تعرف بحمام سويد، وفى القرن العاشر دخلت فى أوقاف الملك المؤيد بن إينال ثم أنشأ حماما آخر للنساء عرف بحمام الغمرى (المقريزى: الخطط، جـ٢ ص٨٣، ص٩٥)، (الخطط التوفيقية : جـ٦ ص ٢٠٥).

وحمام سنقر[١] وحمام السكرية[٢] وحمام بَشْتَك[٣] وحمام قيسون[٤] وحمام الصليبة[٥] وحمام العابدين وحمام درب سعادة[٦] وحمام الذهبى[٧]. وغيرها..

وعدد الحمامات العامة وروعتها تتجاوز حدود روايات الكتاب والرحالة.. والنساء لايخرجن إطلاقًا إلا للذهاب إلى الحمام، عادة مرة كل أسبوع، يتباهين فيها بإظهار كل الزينة المسموح لهن بها ويتعطرن ويرتدين أفخم ثيابهن، وبالحمام تدبر إتفاقات الزواج، وهذه الحمامات لا محيد عن إرتيادها للجنسين فى جو شديد الحرارة كجو القاهرة.

و «الأسبلة» فى معظمها، منشآت خيرية لمد السكان بالماء، وهى موجودة بكثرة، ويحمل إليها الماء من النيل على ظهور الجمال، وهى مزدانة بأعمدة رخامية وشبابيك من البرونز مشغولة بمهارة، وعادة ما يشغل الدور العلوى منها «كُتاب»

---

(١) هذا الحمام بشارع قنطرة سنقر، على يمين الذاهب من شارع الخلوتى إلى حارة النصارى بحى درب الجماميز، وهو من وقف مرزه، برسم الرجال والنساء (الخطط التوفيقية : جـ٦ ص ١٩٩).

(٢) يقع هذا الحمام بوسط شارع السكرية تجاه الباب الكبير لجامع المؤيد، ويتوصل إليها أيضا من عطفة الحمام، وهى التى ذكرها المقريزى بحمام الفاضل، ويؤخذ من كلامه : أن للفاضل حمامين، إحداهما حمام الرجال بالسكرية، والأخرى للنساء داخل عطفة الحمام، على يمين الداخل من باب زويلة. (المقريزى: الخطط، جـ١ ص ٣٧٣) ، (الخطط التوفيقية : جـ ٦ ص ١٩٨).

(٣) هما حمامان : إحداهما للرجال والأخرى للنساء، بشارع سوق السلاح على رأس عطفة حمام بشتك، بالجهة الغربية لمسجد مير زاده، ويعرفن أيضا بحمام مصطفى كتخدا.
(النجوم الزاهرة: جـ ١٠ ص ٧٥)، (الخطط التوفيقية : جـ٢ ص ١٠٥، جـ٦ ص ١٩٠).

(٤) اندثرت هذه الحمام اليوم، ولم تكن تبعد كثيرا عن حمام بشتك السابق ذكرها.

(٥) تقع هذه الحمام عند تقاطع شارع الصليبة، تجاه سبيل أم عباس باشا، وهما برسم الرجال والنساء، أنشأهما الأمير سيف الدين شيخون ومعهما الخانقاة والمدرسة الشيخونية سنة ٧٥٦ هـ. (المقريزى: السلوك جـ ٣ ص ١٧)؛ (الخطط التوفيقية : جـ ٦ ص ٢٠١)، (النجوم الزاهرة : جـ١٠ ص ٣٠٤).

(٦) هو على وجه التقريب الحمام الذى ابتناه أحمد شوربجى بن يوسف، بدرب سعادة بالقرب من المحكمة فى درب السلطانى.

(٧) كان هذا الحمام يقع بشارع البنهاوى، بين جامع البنهاوى وجامع المزهرية، أنشأه شيخ العرب شديد، وقد أزيل فى أربعينات هذا القرن، عندما أزيلت المبانى المتصلة بسور القاهرة الشمالى.
(الخطط التوفيقية : جـ ٣ ص ٢٠، جـ٦ ص ١٩٦). (تعليقات د. أيمن فؤاد: وصف مدينة القاهرة ص ٢١٧ - ٢٢٠).

مجانى لتعليم الأطفال القراءة والكتابة والحساب، ويصرف عليه من ريع مؤسسة السبيل.. وبالقاهرة ستون سبيلاً رئيسيا، من بينها: سبيل السليمانية(١) وسبيل مرجوش(٢) وسبيل مصطفى الكخيا(٣) وسبيل أبراهيم الكخيا(٤) وسبيل ذى الفقار(٥) وسبيل الأزهر(٦) وسبيل ستى بدوية(٧) وسبيل عبد الرحمن(٨) الكخيا وسبيل ستي

---

(١) هذا السبيل شيده السلطان سليمان بين شنتى ٩٣٣ هـ / ١٥٢٦ و ٩٤١ هـ / ١٥٣٤ فى بين القصرين، كما ورد فى نزهة الناظرين، بينما يذكر على مبارك أنه بشارع أمير الجيوش (مرجوش) يعلوه كتاب وفى مقابلة قرة قول باب الشعرية. (الخطط التوفيقية : جـ٣ ص ٧٦).

(٢) يذكر على مبارك أن على باب درب طاحون بشارع مرجوش، سبيل يعلوه مكتب (كتاب) يعرف بمكتب أحمد حسين. (الخطط التوفيقية : جـ٣ ص ٢٢).

(٣) يقع هذا السبيل بشارع السيوفية، وقد شيده مصطفى إغابن عبد الرحمن أغا دار السعادة سنة ١٠٢٨ هـ٢ / ١٦١٨. (الخطط التوفيقية : جـ٢ ص ٥٩، جـ٣ ص ٦٣)
(Raymond, A: les Fontaines publiques - Sabil - du Caire a lépo que ottomane, An. Isl. XV, 1979, mo 16).

(٤) هذا السبيل المعروف بسبيل إبراهيم كتخدا مستحفظان - الذى حكم مصر بالاشتراك مع الأمير رضوان كتخدا العزب حتى وفاته سنة ١٧٥٤ - وكان قد شيد هذا السبيل سنة ١١٦٧ / ١٧٥٣ بمنطقة الداودية (الخطط التوفيقية : جـ ٦ ص ٥٨)
(raymond, A: op. cit. mo 94)

(٥) يقع هذا السبيل فى زواية حارة المبيضة بالجمالية، وهو الذى يعرف بسبيل «أوده باشى» شيده الأمير محمد كتخدا وأخيه الأمير ذو الفقار كتخدا مستحفظان فى سنة ١٠٨٤ هـ / ١٦٧٣ (Raynond, A: op. cit. no 40) وهذا السبيل ملحق بوكالة وحوانيت فى الجهة الغربية منه.

(٦) شيد هذا السبيل عبد الرحمن كتخدا، مع مجموعة منشآت أخرى، فى الجانب الشرقى للجامع الأزهر، سنة ١١٦٧هـ / ١٧٥٣. (Raymond, A: op. cit. no 95) وأهمية هذا السبيل أنه يكون مجموعة مستقلة يتمثل فيها الكثير من روائع الفن الإسلامى فى العصر العثمانى.

(٧) هو السبيل المعروف بسبيل «رقية دودو» وينتمى إلى الأسبلة ذات الواجهة المقوسة، ويعلوه كتاب، أنشئ سنة ١١٧٤ / ١٧٦٠، بشارع سوق السلاح؛ وقد ذكر «بريس دافين Aprisse D' avennes» فى كتابه "L'Art d'Arabe" أنها بنت بدوية شاهين بنت الأمير رضوان بك،
(Raymond, A, op. cit. no 105)

(٨) شيده عبد الرحمن كتخدا، نحو سنة ١١٥٧ / ١٧٤٤، وهو كائن فى الزاوية التى يحدها شارع التمبكشية وشارع المعز بالجمالية فى مواجهة قصر بشتك، ويعد من أهم وأجمل أسبلة القاهرة. (الخطط التوفيقية : جـ٢ ص ١٣، جـ ٦ ص ٥٧)، (Raymond, A: op. cit. no 58)

نفيسة[1] وسبيل السلطان محمود[2].. وكثرة أعداد هذه الأسبلة - العظيمة النفع - إنما تدل على أن روح الخير، كانت أكثر إنتشارا فى الشرق عن ما نعرفه عادة..

أما «الأحواض» فلا تقل فائدتها للمواطنين عن الأسبلة، إذ يستطيعون فى كل الأوقات، أن يسقوا منها الخيل والحمير والجمال وسائر الحيوانات الأخرى، وهى أيضا مدعمة بأعمدة ومبنية بفخامة..

و «القناطر» عديدة بالقاهرة، سواء على الخليج الذى يشق المدينة من وسطها فى إتجاه طولها أو على القناة التي تحاذى جانبها الغربى، وجميعها مبنى بالحجارة، ومكون من عقد واحد، ويوجد منها نحو العشرين، والكائن منها بداخل المدينة، سوره مرتفع جدًا، بحيث تتعذر رؤية الخليج من أى مكان بالمدينة، وهى على شكل الأقواس القوطية.

ومتوسط عرض الخليجين عشرة أمتار، يخرج الأول من الفرع الصغير للنيل، المواجه لجزيرة الروضة عند مجرى العيون (فم الخليج) بينما يتفرع الخليج الثانى من الأول[3]، ومجرى العيون مخصص لحمل مياه النيل إلى القلعة[4]، ويدخل القاهرة عن

---

(١) هو سبيل «نفيسة البيضا» زوجة الأمير مراد بك، بأول شارع الغورية من جهة باب زويلة ناصية عطفة الأباتى، التى كانت تعرف بعطفة الحمام، وملحق بوكالة تسمى وكالة السكرية، وشيدته سنة ١٢١١ / ١٧٩٦، وينتمى إلى أسبلة القاهرة ذات التأثير التركى (عجائب الآثار : الجبرتى ، جـ٤ ص ٢٦٤)؛ (الخطط التوفيقية : جـ ٢ ص ٣١ - ٣٢ ، جـ٦ : ص ٦٤)؛ (Raymond, A: op. cit. No. 178)

(٢) من أجمل أسبلة القاهرة العثمانية، حيث يتمايز بأسلوب عمادته، التى أدخلت إلى مصر نمطاً جديداً من الأسبلة الدائرية الشكل المأخوذ من النظام التركى، شيده السلطان محمود خان بن السلطان مصطفى خان، بشارع درب الجماميز، على ناصية حارة الحبانية، وهو ملحق بمدرسة ويعلوه كتاب لتعليم الأطفال، عام ١١٦٤ / ١٧٥٠، ويقع اليوم بشارع بور سعيد. (الخطط التوفيقية : جـ ٦، ص ٦٢)؛ (Raymand, A : op. cit. no 90)
(تعليقات د. أيمن فؤاد : وصف مدينة القاهرة ص ٢١٠ - ٢١٢ مع بعض الإضافات).

(٣) هذا الوصف غير دقيق، فقد كان الخليج الناصرى يأخذ ماءه من النيل فى موضع يقع إلى الشمال من فم الخليج، ويمر بأراضى اللوق والفجالة (حاليا) ثم يصب فى الخليج الكبير. راجع؛ (الخطط للمقريزى؛ جـ٢، ص ١٤٥).

(٤) قناطر المياه أو «مجرى العيون» أنشأها فى أول الأمر الملك الناصر محمد بن قلاوون، لتخلف تلك القناطر العتيقة التى شادها صلاح الدين، وكانت تمثل جزءا من سور القاهرة المتصل بالقلعة. (الخطط للمقريزى : جـ٢، ص ٢٣٠).. أما قناطر المياه - القائمة اليوم - عند منطقة فم الخليج، وهى التى يعنيها جومار فى وصفه، فقد شادها الملك الأشرف قانصوه الغورى، فى سنة ٩١٢ هـ (بدائع الزهور : إبن إياس، جـ٤ ص ١١٠).

طريق باب القرافة ومنه يصل إلى قصر الباشا.

وتتميز «قصور» البكوات والكشاف، ودور الشيوخ والعلماء والأغاوات والوالى والقضاة والموظفين.. عن منازل خواص البسطاء ببناء أكثر جمالا وبمظهر أكثر زخرفة ومساحة أكثر إتساعًا.. ..

ويستطرد چومار فى وصف التقسيم الداخلى لمنازل القاهرة، بما فيها من قاعات وحجرات وحدائق وحمامات ونافورت وشرفات واصطبلات.. ولكنه يستدرك قائلا : «وربما تكون كلمة - قصر- متوسعة جدًا لوصف الأمراء والكشاف والأعيان، ولكن لا نستطيع أن ننكر أنها لا تجمع كل أنواع المتعة والفخامة التى يمكن أن يقبلها مناخ مصر.. ..

..«وقد حاولنا - فى زمن الحملة الفرنسية - أن نمهد كثيرا من شوارع القاهرة، وأن نفتح منافذ إتصال كبيرة بين القلعة وأحياء المدينة كما اختططنا أيضًا طرقًا بين القاهرة والنهر[1]، ووزعنا أشجارًا على جانبى ميدان الأزبكية، وقسم الفرنسيون كذلك القاهرة إلى ثمانية أقسام[2]، يشرف عليها عدد من القادة، وقد ساهم هذا التقسيم فى

---

(١) يقول إدوارد وليم لين: «.. هناك طريقان رئيسيان يتماثلان تقريبا فى الطول، يؤديان من بولاق إلى القاهرة، أما الطريق الشمالى - الذى يتعرج فى بعض الأحيان - فيعتبر الطريق الرئيسى للتجارة، إذ لم تكن هناك سكك حديدية، فى ذلك الوقت، تؤدى إلى باب الحديد، والطريق الجنوبى، فبعد أن يعبر قناتين، يدخل الجانب الغربى من الأزبكية، وعند سلوك هذا الطريق، نمر بمسجد أبى العلاء، على الجانب الأيمن، وقد عمل الفرنسيون ابان إحتلالهم لمصر على تعلية هذا الطريق، بهدف أن يمتد - خلال المدينة - حتى ينتهى إلى القلعة، وهو طريق مستقيم ومتسع، إلا أنه غير مستو، وينقصه صف من الأشجار، على جانبه الجنوبى لكى يظله، وقد أتموا تعلية هذا الطريق بضعة أقدام، فوق مستوى السهل، لكى يكون بمنأى عن تأثير الفيضان.. ونجد بعض الأشجار المتفرقة من النخيل والجميز والسنط، ويعبر الطريق قناتين، فوق كل منها جسر مبنى بالحجارة، ويطول الجانب الغربى من القناة الثانية، علي يمين الطريق، توجد سلسلة طويلة من الأنقاض وتلال القاذورات، ومن أعلى هذه السلسلة - على مسافة نحو ربع ميل من باب الأزبكية - نستطيع أن نحصل على مشهد عام لمدينة القاهرة» :
(E.Lone : Cairo Fifty years ago : p. 34 - 35)

(٢) قسمت خريطة القاهرة التى صاحبت كتاب «وصف مصر» إلى ثمانية أقسام طبقا لهذا التقسيم، الذى ظل قائما العمل به، حتى أوائل هذا القرن، ويقول على مبارك: «ولسهولة الضبط والربط، إنقسمت القاهرة إلى ثمانية أثمان، وكل ثمن ينقسم شياخات، تكثر وتقل بالنسبة لكبر الثمن=

بدء «نظام صحى» يطبق فى أحياء غير صحية، وتكتظ بسكان من الدهماء، خاصة حى اليهود، حيث الشوارع أكثر ضيقاً من أى مكان آخر..».

ويصف چومار فى إسهاب ودقة «قلعة الجبل».. وظواهر القاهرة، جزيرة الروضة ومصر القديمة والجيزة وبولاق.. كما تناول بالتفصيل أهم الصناعات التي تميز بها سكان القاهرة، مثل المنتجات الغذائية المختلفة، وصناعات الغزل والنسج والأثاث والأدوات المنزلية.. والمطاحن والمدابغ ومعامل التفريخ... إلخ.. ثم حدثنا عن تجارة مصر مع أوربا خاصة، وأسواق ووكالات القاهرة، ثم دراسة خاصة عن سكان القاهرة: طبقاتهم وطوائفهم وأجناسهم وأوضاعهم الاجتماعية وعاداتهم وتقاليدهم.

= وصغره، ولكل ثمن شيخ يعرف بشيخ الثمن، مرتبه شهريا من المحافظة مائة قرش صاغ، ولكل شياخة، شيخ يعرف بشيخ الحارة ليس له مرتب من المحافظة، وإنما تكسبه يكون من النقود التى يأخذها برسم الحلوات من سكان الأملاك التى فى شياخته.. والحكومة تستعين بهم في توزيع الفردة والطلبات..» ويذكر على مبارك أن القاهرة كانت مقسمة على عهده، كما يلى : ثمن الموسكى، ثمن الأزبكية، ثمن باب الشعرية، ثمن الجمالية، ثمن الدرب الأحمر، ثمن الخليفة، ثمن عابدين، ثمن السيدة زينب وثمن مصر العتيقة.. راجع: (الخطط التوفيقية: على مبارك، جـ١ ص ٨٦، الطبعة الثانية : جـ١، ص ٢١٦ - ٢١٧).

القاهرة فى القرن التاسع عشر
إدوارد لين .. . Lane, Edward

كان ظهور كتاب «المصريون المحدثون.. شمائلهم وعاداتهم» لإدوارد وليم لين، عام ١٨٣٦، نقطة تحول بارزة فى تاريخ العلاقة بين مصر والأوربيون، فقد تزايد الاهتمام بمصر وآثارها، وتزايد عدد من توافد عليها من الرحالة والأدباء والسائحين وأيضا المغامرين.

فقد كان إدوارد لين أبرز من عبر عن الاهتمام بالجوانب الإنسانية للشعب المصرى، حيث استطاع من خلال ملاحظاته لعادات المصريين وأخلاقهم، والرصد الدقيق لتفاصيل الحياة اليومية من خلال تجاربه الشخصية التى عاشها.. أن يشكل لوحة رائعة - برع في إلتقاط ألوانها وظلالها المتباينة - لكل مظاهر الحياة فى مصر إبان عصره.

ومما لاشك فيه أن هذه الدراسة، قد استغرقت كل وجدان لين، بدا أثرها فى اكتسابه للسلوك الإسلامى المصرى، وهو ما مكنه من سبر أغوار المصريين والكشف عن طبائعهم، كما كان قادرا على تحرير نفسه من الأفكار المسبقة، فنجح فى أن يقدم فى كتابه تفسيرًا جادًا لتقاليد ونظم المجتمع الإسلامى، الذى يشكل بالنسبة للأوربيين

خلفية تلك القصص الخيالية التى يطالعونها فى كتاب «ألف ليلة وليلة»..

فيقول فى وصفه للقاهرة وطرقها وبيوتها وحوانيتها[1]..

«.. تحتل القاهرة نحو ثلاثة أميال مربعة، ويبلغ تعداد سكانها حوالى مائتين وأربعين ألفاً من مجموع عدد سكان مصر البالغ مليونين ونصفا، يحيط بها سور تغلق أبوابه مساء، وتشرف عليه قلعة تربض فوق تل مرتفع. وقد يبدو للسائح الذى يراها للوهلة الأولى أن القاهرة مدينة مزدحمة. غير أن هذه النظرة ما تلبث أن تتغير عندما يطل عليها من فوق أحد المنازل أو إحدى المآذن..

وطرقات القاهرة ضيقة متعرجة غير مرصوفة يطلق على الرئيسية منها اسم الشارع وعلى فروعها الدرب والعطفة والحارة[2]. وتكتنف الشوارع العامة صفوف من الحوانيت على كلا الجانبين تعلوها مساكن غير متصلة بها ونادراً ما يحتلها مستأجرو الدكاكين، وأكثر ما تكون المنازل متلاصقة فى تجمعات كبيرة تحوطها الجدران، ويلجأ الناس من خلال بوابة تؤدى إلى مجاز تتفرع منه الحارات للوصول إلى دور السكنى. ومع أن معظم الدروب هى طرقات عامة إلا أنها تتبدئ وتنتهى ببوابه خشبية يقوم عليها حارس بعد إغلاقها ليلاً : وتتفرع من الحارات عطفات ضيقة تحرسها ليلاً بوابة مغلقة.

وتتألف دور السكنى عامة[3] من طابقين أو ثلاثة. ويكاد كل منزل يشتمل

---

(١) «المصريون المحدثون.. شمائلهم وعاداتهم» إدوارد لين، ترجمة: عدلى طاهر نور، ص ١١ -١٢.

(٢) فى كتابه : «القاهرة» يذهب عبد الرحمن زكى إلى أن المقصود بالحارة فى زمن الفاطميين، لم يكن ذلك الطريق الذى يمر فيه الناس بين المساكن كما هو متعارف عليه اليوم، بل قسم من مجموع مبانى المدينة تخترقها الشوارع والأزقة والدروب، وتضم المساجد والمدارس والأسواق والحمامات وغيرها.. وهو عين ما ذهب إليه العلامة محمد رمزى : «حارات القاهرة.. ليس المقصود بها الطريق الذى يمر فيه الناس بين المساكن كما هو معروف اليوم، بل إن الحارة هى كل «محلة دنت منازلها، والمحلة: منزل القوم، وعندما بنى العرب مدينة الفسطاط، جعلوها أخطاطا، وعندما بنى الفاطميون القاهرة، جعلوها حارات فالحارة كالخط، جزء من مجموع مبانى المدينة تتخللها الطرق ويوجد بها المساجد والمدارس والأسواق والحمامات وغيرها، وإلى اليوم يقال لشيخها: «شيخ الحارة».
(النجوم الزاهرة : جـ ٤، ص ٤٢).

(٣) إدوارد وليم لين: «المصريون المحدثون.. شمائلهم وعاداتهم»: ترجمة عدلى طاهر نور ص ١٣ .٢٥

على صحن غير مرصوف يدعى «الحوش» يصل الوافد إليه من خلال دهليز ينحنى مرة أو مرتين حتى لا يقع بصر المارة فى الطريق على ساكنى الدار. وتمتد فى هذا الدهليز بالقرب من الباب مصطبة من الحجر على امتداد الجدار الجانبى للخدم والحرس.

وبالحوش الذى يُرش خلال فصل الصيف بالمياه لترطيب الجو، بئر يتميز مذاق مائه الذى يتسرب إليه خلال التربة من نهر النيل ببعض الملوحة، وعلى مقربة من البئر ينتصب زيران فى جانب ظليل يرطبان ماء النيل الذى يحمله إليهما السقاء. ففى خلال موسم الفيضان بعد فتح ترعة الخليج التى تخترق العاصمة يغترف السقاءون مياههم من الترعة، على حين يغترفونها من النيل فى غير هذا الموسم، ويحملونها فى قرب جلدية فوق ظهور الحمير والجمال. وحين تكون المسافة قصيرة يحمل السقاءون الماء فى قرب صغيرة، ويمضون بها منادين «يعوّض الله». وثمة أبواب عدة تصل الحوش بحجرات السكنى أحدها باب الحريم، وهو باب الدرج المؤدى إلى الغرف المخصصة للنساء والأولاد ورب الدار.

وتشيّد جدران الطابق الأرضى من الآجر المكسو بالحجر المنحوت، على حين كانت الطوابق العلوية تبنى بالآجر وتطلى بالجص. واستخدمت العروق الخشبية كشدّادات لربط المبانى، وما أكثر ما كانت الطوابق الأولى وما يعلوها تبرز إلى الخارج مستندة إلى كوابيل من الحجر تحمل عروقاً خشبية تمتد إلى مسافات بعيدة داخل الجدران لكى تحمل ثقل الجدران المعلقة والتى تنوء الكوابيل الحجرية وحدها بحملها، وكان الغرض منها فضلاً عن زيادة مسطح الحجرات وتنظيم أشكالها زيادة ما تضيفه من الظل على الشارع.

ولعل أول العناصر التى تسترعى انتباهنا فى دور السكنى هى الصحن أو الحوش الذى استخدم فى تكييف الجو، ذلك أن الهواء البارد يهبط إلى أدنى مستوى ليلا، ثم ما يلبث أن يتسرب إلى الحجرات فيلطف حرارتها ويظل محصوراً بين جدران الصحن حتى ساعة متأخرة من النهار كأنه خزان للترطيب. ويحيط بالصحن إيوانان للاستقبال أحدهما شمالى والآخر جنوبى لتفادى أشعة الشمس على مدار النهار، ويسبق كلا من الإيوانين «مقعد» أى شرفة تتفتح على الصحن، فيسكن أهل الدار داخل الإيوان وقت القيلولة ثم ينسلون إلى المقعد ساعة تنحسر الشمس. وينطلقون إلى الصحن إذا سجا الليل وأطل القمر.

وعادة يرتفع المقعد المفتوح عن مستوى الطابق الأرضى ثلاثة أمتار، وقد يزوان

بعقدين أو أكثر ويتصدره سياج منخفض. وتسمى هذه الشرفة المفتوحة أحيانا «التختبوش» إذا ما تراجعت بعض الشئ داخل المبنى وانتصبت بها أعمدة تحمل السقف. وتنتشر الأرائك الخشبية بمحاذاة جدرانها الثلاثة. ولا يكاد يخلو صحن الدار من نافورة (فسقية) أو حوض تنعكس على مياهه صفحة السماء.

ويضم الطابق الأرضى عادة المندرة (المنظرة) وهى جناح إستقبال الرجال. تنفتح بها نوافذ خشبية واسعة ذات قضبان رأسية وأفقية، وتشتمل المندرة على الإيوان والدرقاعة [ولعلها تحريف لكلمة دركاة الفارسية]. والدرقاعة هى بهو الدخول إلى الإيوان. وهى صحن مسقوف تغطى أرضها بالفسيفساء الرخامية منتظمة فى زخارف هندسية بديعة، وتتوسطها فسقية تسيل مياهها إلى حوض ضحل صغير مغشى بالرخام الملون، وتنسكب مياه الفسقية من الحوض فتندفع منه بعيدا عبر قنوات ضيقة.

وينخفض مستوى أرضية الدرقاعة بمقدار درج واحد عن مستوى أرضية الإيوان، ويحدد هذا الدرج المكان الذى يتعين فيه على الزائر أن يخلع نعليه قبل أن تطأ قدماه فاخر السجاد والبُسُط التى تكسو أرض الإيوان. ويرتفع سقف الدرقاعة عن باقى سقف المنزل بمنور من الخشب يحاكى قبة السماء. فيحس الجالس وهو يتأمل صفحة ماء النافورة ويتطلع إلى أعلى وكأنه بين أحضان الطبيعة.

ويمتد فى مواجهة الباب عادة وفى نهاية الدرقاعة رف رخامى أو حجرى يدعى «الصُفة» يستند إلى عقدين أو أكثر بإرتفاع متر تصطف بأسفله أدوات الاستعمال اليومى كقنانى العطور والطست والإبريق اللذين يستخدمان للوضوء ولغسل اليدين قبل تناول الطعام وبعده على حين تصطف فوق الصفة دوارق المياه وفناجين القهوة.

وتنبسط فوق أرضية الإيوان حشية قطنية بعرض متر، بينما تستند على الحائط الوسائد التى يتساوى طولها مع طول الحشية ويبلغ إرتفاعها نصف متر، وتكسى جميعا بالقماش القطنى المطبوع أو الشيت. وأحيانا تعلو الحشية سريرًا من جريد النخل «العنجريب» أو مصطبة حجرية لا يتجاوز إرتفاعها ربع المتر تدعى «السّدله» وهى كلمة فارسية الأصل أيضا.

وتضم الحوائط بضعة صوانات ضحلة العمق، ويتخذ سقف الإيوان غالبًا من ألواح الخشب والعروق المحفورة الملونة أو المذهبة التى يبعد الواحد منها عن الآخر بمقدار ربع المتر. وينال سقف الدرقاعة فى بيوت الأثرياء مزيدًا من العناية فى زخرفته، إذ

تستخدم قطع دقيقة من الخشب تلصق بألواح مكونة صيغًا زخرفية تعرف بالرقش أو التوريق المتشابك [أرابيسك] تتتابع فيها الدوائر والمربعات والمعينات والنجوم والأطباق النجمية متداخلة بعضها ببعض عن طريق التعشيق. وخلال هذا الإطار التجريدي تنطلق حياة متدفقة عبر الخطوط فتتألف بينها تكوينات تتكاثر وتتزايد مفترقة مرة ومجتمعة مرات وكأن هناك روحا هائمة هى التى تمزج تلك التكوينات وتباعد بينها ثم تجمعها من جديد.

وقد يصل إرتفاع حجرات الدار إلى خمسة أمتار إلا أن المندرة بما تشمل من إيوان ودرقاعة هى أكثر الحجرات إتساعًا وأعلاها قدرًا.

والمشربية حل موفق للتغلب على مشكلات التهوية والإطلال على الخارج وتخفيف حدة الضوء وحجب أشعة الشمس دون إخلال بوظيفتها فى حجب السكان عن عيون المارة، فهى تملأ فتحة النافذة بمخمل من الخشب الدقيق فى شكل برامق مستديرة المقطع يتوزع الضوء والظل على أبدانها فى تدرج رهيف، فيرى المشاهد المنظر المقابل من خلال لوحة زخرفية كاملة. وغالبًا ما تبرز الشبابيك المكسوة بالمشربيات على كلا جانبىّ الطريق حتى لتكاد تلتقى، وهو ما يلطف الطقس فى الطرقات تحتها خلال فصل الصف، غير أن قربها من بعضها كان يساعد على سرعة إندلاع النيران إذا ما نشب حريق فى أحد الدور، وهو ما دفع بالسلطات إلى تحريم هذا البروز، وكان السكان يصفّون القُلل على حافة المشربية لتبريد مياهها، ومن هنا اشتق إسم المشربية.

وما أكثر ما تعلو نوافذ المشربيات طاقات من الزجاج الملون المعشق يشكّل صورًا لباقات الزهور أو الطواويس وغيرها من الأشكال المرحة الى يتفاخر بها أهل الدار وسميت هذه النوافذ بالشمسية أو القمرية أو الخماروية نسبة إلى خمارويه ثانى الولاة الطولونيين فى نهاية القرن التاسع الميلادى حين إزدهر فن تعشيق الزجاج الملون.

وعندما تحتل الحوانيت الجزء الأدنى من المبنى كما هو الحال فى الطرقات العامة والدروب ينقسم البناء فوقه إلى مساكن محددة المعالم، يسمى كل منها «ربْعا» مستقلاً عن الآخر مثلما هو مستقل عن الحوانيت أسفله، ويؤجر الربع للأسر التى لا يسمح دخلها بإستئجار منزل كامل مستقل. وتحتوى كل شقة فى الربع على غرفتى جلوس وغرفتى نوم ومطبخ ودورة مياه، ويندر أن يكون لكل منها مدخل مستقل من الطريق، فثمة مدخل واحد ودرج واحد يؤديان إلى العديد من هذه الشقق التى لم يكن يسمح بتأجيرها للعُزّاب. إلا إذا كانت لهم أسر يعيشون فى كنفها. ولذلك يضطر

العزاب إلى الإقامة فى إحدى الوكالات، وهى المبنى المخصص لاستقبال التجار وبضائعهم.

وكثيرا ما يضم الشارع بأكمله أو فى أجزاء منه، حوانيت متخصصة فى سلع معينة يشتق منها إسم السوق، هذا إذا لم يطلق عليه اسم المسجد الواقع إلى جواره، فثمة سوق للنحاسين والجواهرجية والخُردجية، كما أن هناك أيضًا عددًا من الأسواق العامة الكبرى فى المدينة مثل السوق التركى المسمى «خان الخليلى». وتغطى الأسواق عادة بألواح من الخشب أو الحُصُر أو الأقمشة المستندة إلى دعائم تمتد بعرض الطريق إما فوق مستوى الحوانيت أو فوق أعلى المبانى.

والحانوت فجوة مربعة لا يتجاوز إرتفاعها على مترين وعرضها مترًا، أو فجوتين متتابعتين تستخدم الداخلية منها مخزنًا للسلع. وتتساوى أرضية الحانوت مع سطح المصطبة المشيدة من الحجر أو الطوب مقدم الحانوت. وتحفل هذه الحوانيت بالصياغ والخردجية والنحاسين والخياطين والصباغين والرفائين والحباكين (صانعى الشرائط الحريرية) والعقادين والشبوكشية (صانعى الأنابيب) والعطارين والدخاخنية والفكهانية والنقلية (بائعى الفواكة المجففة) والشربتلية والزياتين والخضرية والجزارين والفرانين والفطاطرية والفوالين.

وتنفرد القاهرة الفاطمية خاصة عن سائر المدن الإسلامية ببعض الخصائص، منها شارع رئيسى طويل هو المعروف بالقصبة[1] يخترقها من الشمال إلى الجنوب من باب

---

(١) أطلق المؤرخون على هذا الشارع الرئيسي أسماء: الشارع الأعظم، شارع القاهرة، والقصبة.. ويعرف اليوم بإسم شارع المعز لدين الله.. وقد أنشأ جوهر الشرقى قصرًا للخليفة - القصر الشرقى الكبير، وذكر المؤرخون أن مساحته كانت نحو ٧٠ فدانا، وله من الأبواب تسعًا، وكان العزيز بالله بن المعز لدين الله، قد أنشأ مقابل هذا القصر، قصرًا صغيرًا عرف بإسم - القصر الغربى الصغير - كما عرف شارع القصبة (المعز لدين الله) فى هذا الجزء بإسم «بين القصرين».. .. «.. وما أن مضى ثلاثون عاما على إنشاء القاهرة المعزية، حتى إتصلت بباقى أجزاء المدينة من القطائع والعسكر والفسطاط، وامتد الشارع الأعظم جنوبا خارج باب زويلة حتى مقام السيدة نفيسة ومنها إلى الفسطاط. كما إمتد شمالاً خارج باب الفتوح بحى الحسينية والبيومى والظاهر حتى أقصي عمران المدينة وقتذاك، وكان الناس يسيرون من القاهرة الفاطمية الى الفسطاط فى شارع متصل البنيان والعمران.. وعرف الشارع بأسماء مختلفة تبعًا للأحياء والأسواق التى يمر بها، فقد ذكرنا أسماء البيومى والحسينية خارج باب الفتوح ومن باب الفتوح إلى باب زويلة داخل القاهرة الفاطمية: بين القصرين، النحاسين، الصاغة، الغورية، العقادين، المناخلية والسكرية، وخارج باب زويلة حتى تقاطع شارع القلعة =

الفتوح إلى باب زويلة [المتولى] يبلغ عرض الجزء المخصص منه للمرور ثمانية أمتار، وتتخلله دخلات تشغلها الأسواق التى تعقد فى الشوارع والساحات. وتحف بالقصبة أبنية فخمة من قصور الخلفاء الفاطميين تليها منشآت أخرى كالمساجد والمدارس ثم مدافن السلاطين المماليك التى أضيفت فيما بعد. كما كانت تشمل أقساما خصص كل منها لنوع من أنواع التجارة كالخيامية والنحاسين والعطارين والمغربلين إلي غير ذلك. ومثل هذا نجده فى شوارع أخرى مثل «الدرب الأحمر» بل حتى فى بعض الأسواق مثل سوق السلاح.

ثم يمضى لين فيصف عيد «فتح الخليج»[1] فيقول :

«وعيد فتح الخليج فى القاهرة أو عيد وفاء النيل، كان عيدا لا يتصل بالمعتقدات الدينية، ويعود إلي أزمنة ضاربة فى القدم، ويتصدر الاحتفال الوالى وكبار رجال الدولة بينما تغطى القوارب سطح ترعة الخليج. وتبدو قوارب السيدات من بين القوارب متميزة بهوادجها التي تحجبهن عن عيون المتطفلين. ويخلع الوالى جُبة على علية القوم. وما أن يعطى الإشارة حتى يلقى بعض الأفراد بتمثال أو عمود طينى فى المجرى الرئيسى للنيل وسط صخب الهتافات ورنين الآلات الموسيقية ويقوم الوالى بقطع السد فتتدفق مياه النيل على الفور وتعلو فى بعض المواقع إلى الطرقات فتفيض على الشطآن مخلفة عددًا من البرك والبحيرات. وقبل أن ينسحب الوالى ينثر على صفحة النهر حفنة من العملات الذهبية والفضية يتسابق إلى الفوز بها غواصون مهرة، وينقضى ما تبقى من نهار فى فرح غامر يستمر حتى الليلة التالية..».

وعن اللغة والآداب والعلوم، يقول لين[2]:

«احتفظت القاهرة بشهرتها التى امتازت بها عدة قرون، بأنها خير مدرسة للأدب

= (محمد على) أسماء : قصبة رضوان، الموازين، الخيامية، المغربلين، السروجية، ثم أسماء : الحلمية، السيوفية، الركبية، الخليفة والأشرف، ثم أطلق إسم المعز لدين الله على الجزء من الشارع الأعظم من باب الفتوح إلى باب زويلة. وكانت لهذا الشارع التاريخى قيمة سياسية واجتماعية وتجارية كبرى».

(أسماء ومسميات من مصر القاهرة : محمد كمال ص ٣٢٦ - ٣٢٧) ولمزيد من التفاصيل عن شارع القصبة والتقاليد الخاصة به راجع المقريزى: الخطط: جـ٢ ص ١٠٧ - ١٠٨.

(١) لمزيد من التفاصيل، راجع المقريزى، الخطط: جـ٢ ص ٤٧٠ - ٤٧٩

(٢) المصدر السابق : ص ١٨٣ - ١٩١

العربى وعلم التوحيد والفقة الإسلامى. ولا جرم أن التعليم إنحط كثيرًا عن العرب عامة، إلا أنه كان أقل إنحطاطًا فى القاهرة، فشهرة هذه المدينة لا تداينها شهرة، ولا يزال «الجامع الأزهرى» يجذب إليه الطلاب من كافة العالم الإسلامى.

ويلاحظ أن اللغة العربية التى يتكلمها أهل القاهرة، من الطبقتين العليا والوسطى، أدنى من لهجات بدو الجزيرة العربية، وسكان المدن المجاورة مباشرة من حيث النطق وقواعد الصرف والنحو، إلا أنها تفضل اللهجات السورية والمغربية كثيرًا..

ولا يوجد فرق كبير بين اللهجة الدارجة والفصحى - كما يفرض المستشرقون الأوربيون - ويمكن وصف اللهجة الدارجة : أنها تبسيط اللهجة القديمة.

ويوجد بالقاهرة عدة مكتبات كبرى، ويلحق أغلبها بالمساجد، وتشمل فى معظمها كتب التوحيد والفقه ومعاجم اللغة، إلا أن هذه المكتبات مهملة أهمالا يرثى له. ويقتنى بعض التجار والأثرياء وغيرهم مكتبات قيمة.. ..

وكان التعليم مزدهرًا إزدهارًا عظيمًا بالقاهرة، قبل دخول الجيش الفرنسى، أكثر منه فى السنوات الأخيرة.. وكان يكفى قبل ذلك العصر، أن يقوم الشيخ المتخرج من الأزهر، بالتدريس لاثنين من أولاد الفلاحين المتوسطى الثروة، ليعيش فى بحبوحة، إذ كان تلميذيه يتبعانه أينما ذهب، ويحملان نعليه عند دخوله المسجد، وكانا يقومان على خدمته ونظافة منزله وإعداد طعامه، ويعاملانه فى كل حين معاملة الأمراء! وكثيرًا ما كان المارة يسرعون إليه، عندما يمر بالطريق، راجلاً أو راكبًا، طالبين منه الدعاء، ويعتقد من تحقق رجاؤه، أن البركة حلت به! وإذا مرّ بأجنبى، وجب على الأجنبى أن يترجل، وإذا ذهب إلى الجزار لشراء اللحم، رفض هذا أن يتقاضي الثمن، وقبل يده معتبرًا طلب الشيخ شرفًا وبركة!.

ويخطئ المسيحيون فى أوربا، فى إعتقادهم أن المسلمين أعداء العلم على إختلاف أنواعه، والحقيقة أن العلم فى الوقت الحاضر تحده حدود ضيقة، فقل من يدرس الطب والكيمياء (وندين بمعرفتنا بهما للعرب) والرياضيات والفلك، وتجد أغلب الأطباء والجراحين المصريين «حلاقين» يجهلون العلم الذى يباشرونه جهلاً مضرا، وتنقصهم المهارة فيما يمارسونه، ويرجع ذلك إلى تحريم - الدين - تشريح الجسد! إلا أن بعض المصريين الشبان يتلقون الآن دراسة أوربية فى الطب والتشريح والجراحة وعلوم أخرى لخدمة الحكومة.

ثم ينتقل لين إلى وصف حمامات القاهرة فيقول[1]:

---

(١) «المصريون المحدثون.. عاداتهم وتقاليدهم» إدوارد وليم لين: ٢٩٣ - ٢٩٩.

«تضم القاهرة أكثر من مائة حمام[1] تزداد أهميتها فى الشتاء، وهى مصدر متعة يسهل على الفقراء الظفر بها، بل إن الأثرياء الذين يمتلكون فى دورهم حمامات خاصة، يطيب لهم هم أيضا التردد على هذه الحمامات العامة، ففيها إلى جانب الحصول على نصيب من النظافة يتجاوز ما يتحقق فى الحمام الخاص متعة اللقاء مع كثير من المعارف والأصدقاء والترويح عن النفس.

.. وما أن يدلف المرء إلى الحمام العام حتى يستقبله الخدم فى قاعة الاستقبال حيث يودع ملابسه ويعقد حول جسمه بشكيراً، ثم يقاد إلى دهليز يحتضنه ويغمره بوهج تتزايد حرارته كلما أمعن فيه حتى يصل إلى قاعة تتكثف فيها الأبخرة الساخنة المعطرة التى تنفذ إلى مسام جلده، فيضطجع على بساط صوفى، ويدنو منه صبى يدس كفه فى كيس من الصوف السميك الناعم الملمس، ينتظر قليلاً حتى تكون الأبخرة قد ألانت البشرة كلها، فيبدأ فى قرقعة مفاصل النزيل ثم يدلك جسده بالكيس الصوفى حتى لا يبقى بالبشرة أى أثر كان عالقا بها، ثم ينهض الرجل وقد لف جسده كله العرق الساخن، ويمضى إلى قاعة مجاورة تضم مصدرين للمياه الساخنة والباردة يغتسل فيهما بمفرده، ويتحول بعدها إلى فناء به حوض ملئ بمياه شديدة السخونة يغطس فيها بضع لحظات، ينهض بعدها وقد لف جسده فى قميص يعود به إلى قاعة الإستقبال حيث يتناول فنجانا من القهوة، يشد معه أنفاساً من الأرجلية مسترخياً على الأريكة، يقوم منها ليستقبل جسده من عطر فاغم، ويأخذ فى إرتداء ثيابه المنعمة

---

(1) يتفق لين مع ما ذكره شابرول فى دراسته عن عادات وتقاليد سكان مصر، فى أن عدد حمامات القاهرة يتعدى المائة حمام.. (وصف مصر: ترجمة زهير الشايب، جـ1 ص ١٣٤) كما يتفق أيضاً مع ما ذكره إ. فرانسوا چومار فى (وصف القاهرة وقلعة الجبل: ترجمة د. أيمن فؤاد ص ٢٢٢) بالرغم من أن الخريطة التفصيلية للقاهرة التى صاحبت الوصف الطبوغرافى لا تشمل سوى اثنتين وسبعين حماماً.. وقد قدر الرحالة التركى «إيفليا جلبى» حوالى عام ١٦٦٠ عدد الحمامات العامة بـ ٥٥ حماما، لكن هذا التقدير فى الحقيقة بالغ التواضع وحسبما يذكر المؤرخ المصرى.. أحمد شلبى عبد الغنى - كانت توجد بالقاهرة عام ١٧٢٣ ثلاثة وسبعين حماما، بالإضافة إلى حمامى عثمان كتخدا وإبراهيم جاويش فيصل المجموع بذلك إلى ٧٥ حماما، لا تتضمن الحمامات الكائنة ببولاق (٦ حمامات) وتلك الموجودة بمصر القديمة (حمامان) ويقدر الرحالة فورمون Fourmont الذى زار القاهرة عام ١٧٥٥ عدد الحمامات بالقاهرة - فى ذلك الوقت - بثمانين.. (فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية اندرية ريمون، ترجمة زهير الشايب ص ١١٥).

بأريج بخور أعواد شجر الصبر.. ..

والسائد تخصيص حمام للنساء وآخر للرجال يفصل بينهما باب خاص، فإذا لم يكن هناك فى الحى غير حمام واحد، خصصت بعض أوقاته للرجال والبعض الآخر للنساء، وفى هذه الحالة ينسدل على الحمام ستار معلنا أنه وقت النساء. والحمام العام للمرأة به يعد مجتمعًا مختلفا، ففيه تنزع الحُجُب التى ترتديها فى الطرقات لتحميها من عيون الرجال، وفيه تستعرض أمام الأخريات ثيابها الثمينة وحليها النفسية التى لا تملك أن تبرزها للرجال، فتزهو بها هنا أمام رفيقاتها فى دل يرُضى غرورها، ويصبح اللقاء حفلاً بهيجًا يشبع فيه النساء ميلهن إلى الثرثرة والتهامس وتناقل الأخبار والتباهى بمقتنياتهن الجديدة. وتقدم عاملات الحمام للنساء خدمات فوق ما يلقاه الرجال كتصفيف الشعر والتحفيف والتزيين وما إلى ذلك.. ».

ويعرض لين لوسائل المواصلات بالقاهرة فيقول :

«الحمار هو دابة الركوب المتيسرة لعامة الشعب، يقوده مكارى يسرع خلف الحمار، إذا كان هذا سريع الخطو، ويحمل قضيبًا مزدانا بجلاجل يستحث بصوتها وبطرفه المدبب خطو الإتان كلما وهن عزمها أو تراخى، على أن رجال الدين وكبار التجار كانوا يختارون مطيتهم من البغال، وكانت الجياد معروفة وإن بقيت مقصورة على الأمراء من المماليك حتى دخول الفرنسيين مصر».

ويصف لين حوانيت الحلاقة بأنها :

«منتديات هامة أيضا للرجال شأنها فى ذلك شأن الحمامات، فالحلاق يؤدى أيضاً بعض إختصاصات الطبيب، إذ يقوم بالحجامة وختان الصبية إلى جانب حلاقته لشعر الرأس بالموسى عدا خصلة فى مقدم الرأس. وكانت اللحية تُحلق كلها عدا العنفقة (الشعيرات أسفل منتصف الشفة السفلى) مع إطالة السوالف، بينما تُعفى الشوارب عادة إتباعا لسنة الرسول، وكان الحلاق يصبغ اللحى أيضا بالحناء، وإن لم يكن يحدث إلا نادراً إذ كانت اللحية الشهباء موضع تقدير وتوقير».

ويصف مهنة الكاتب العمومى قائلا:

«من الوظائف الهامة، فمع شيوع الأمية، كان الرجال والنساء يقصدونه لكتابة الرسائل إلى «الأهل والأصدقاء، أو الشكاوى و العرائض للحكام والرؤساء، ومكانه السوق فى أماكن معروفة، يعتلى فيها أريكة خشبية أو مصطبة حجرية، مفترشًا سجادة يتربع فوقها ممسكًا بريشته التى يغمسها فى محبرة من النحاس أو الفضة،

محتفظاً بأوراقه داخل ورّاقة».

ثم يتأمل لين مقاهى المدينة فينبئنا بأن مدينة القاهرة[1]:

«تضم أكثر من ألف ومائتى مقهى، بتزايد عددها فى ساحل بولاق ومصر القديمة، ولا يزيد أثاث المقهى عن بضعة أرائك خشبية تستند إلى الجدران، وبعض الحصر المجدولة من سعف النخيل، فضلا عن منضدة خشبية بسيطة، وثمة قدر نحاسى كبير يغلى ماؤه فوق وهج الفحم المتقد، وتصطف فناجين القهوة إلى جدار القدر لتشكل كل الأدوات اللازمة حول صاحب المقهى، الذى يحظى فى العادة بتقدير كبير. وتقدم القهوة ساخنة غير محلاة فى فناجين من الصينى أو الخزف مندسة فى أوعية نحاسية تسمى «ظروفا». ويتربع الرواد فوق الأبسطة أو الحصر أو يضطجعون فوق الأرائك وهم يشدون أنفاس أراجليهم التى اصطحبوها معهم بتبغها هى والقنب الهندى المخدر، فتعقد حولهم سحب الدخان لتخلق عالما له سحره الخاص. ويبلغ متوسط عدد المترددين على المقهى المائتين والخمسين فى اليوم الواحد، يرتشف كل واحد منهم نحو سبعة أقداح من القهوة. ولكل مقهى رواته ومنشدوه الذين يقصون حكايات الشخصيات الأسطورية من أمثال أبى زيد وعنترة، ويتنوع سرد الحكايات بين أسلوبى الإلقاء الخطابى أو الغنائى بصحبة عزف على الربابة، ويجمع هؤلاء المنشدون أجورهم من صاحب المقهى أحيانا ومن رواد المقهى الذين يعطون عن طواعية فى غالب الأحيان».

ثم يعرض لين للراقصات فيصف ليالى القاهرة التى كانت تحيا على أيدى[2]:

«مغنيات يُعرفن بالعوالم أو براقصات يسمين بالغوازى، يتمتعن بقدرات فنية محدودة، وقد يرقصن فى المقاهى أو فى الطرقات العامة لتسلية الجماهير واجتذاب نقودهم، ولرقصهن تقاليد خاصة تبدأ بخطوات متأنية متحفظة لا تلبث أن تشتعل مع طرقات الصاجات النحاسية، ويتكون رداؤهن من نفس ثياب نساء الطبقة الوسطى داخل الدور، كاليلك والسروال ويزدن عليه شالاً يربطنه حول أردافهن لإبراز حركاتهن، ويفرطن فى التحلى بنفس حلى نساء الطبقة الوسطى ويكتحلن ويضمخن بالحناء أطراف أصابعهن وراحات كفوفهن وأقدامهن.

ويرافق الغوازى عادة موسيقيون يعزفون على الربابة بمصاحبة الطار، أو على

(١) لمزيد من التفاصيل عن المقاهى والرواه والمنشدين راجع «المصريون المحدثون.. عاداتهم وتقاليدهم»: إدوارد وليم لين ترجمة : عدلى طاهر نور ٣٣٧ - ٣٥٨.

(٢) «المصريون المحدثون.. عاداتهم وتقاليدهم» إدوارد وليم لين، ص ٣٠٩ - ٣١٠.

الدربكة بصاحبة المزمار، وتدق على الطار فى العادة إمرأة مسنة، وتؤدى الغوازى رقصاتهن فى صحن الدار أو على قارعة الطريق وأحيانا داخل حريم الدور فى بعض المناسبات مثل الزفاف والولادة، وإذا كان من النادر السماح لهن بتأدية رقصاتهن فى حريم بعض البيوتات المحافظة، فكثيراً ما كن يعملن فى بيوت اللهو والمتعة. ومن بين الغوازى ثريات ينعمن بسكنى القصور، كما أن بينهن من يعيش فى أكواخ متواضعة تأهباً لرحلة منتظرة، ولعل لمحمد على باشا الفضل فى إنحسار هذه المهنة عن القاهرة والدلتا، وانحصارها فى إسنا بأقصى الصعيد».

ستانلي لين بول .. Lane - Poole; Stanley
ومدينة ألف ليلة وليلة

جاء ستانلي لين بول إلى القاهرة بكل شغفه للإطلاع. وتطلعات ذهنه الموسوعى، وثقافته الواسعة.. فإذا بها لا توقظ ذكريات الماضى الرائع فحسب، بل وتحرك فيه أيضا الإهتمام بالحاضر والمستقبل، وجد فيها مدينة فريدة تختلف عن كل مدن العالم، لم يتردد عن الإفصاح بانبهاره بتاريخها وآثارها.. باضطرام الحياة والحركة والألوان وضوضاء الطريق وصخب الباعة وصياح الكارى.. .. وكم جذبته هذه الصورة التى وجد عليها القاهرة حتى خُيل إليه إنه يعيد قراءة ألف ليلة وليلة..

وفى وصفه لحياة القاهرة وتطور نموها العمرانى، حاول أن يُكسب آثارها جوًا من التاريخ، وأن يُلبس هذه الآثار من المعانى ما يزيد من شغف القارى بها.. وهناك - تبعًا لرؤيته الخاصة - قاهرتان مختلفتان، تتمايز إحداهما عن الأخرى، ولو أنهما لا تختلفان كثيرا فى المواقع، أما الأولى فهى القاهرة الأوربية، والثانية فهى القاهرة الإسلامية الشرقية.. والقاهرة الأوربية تكاد - فى واقع الأمر - لا تعرف شيئا عن نظيرتها مدينة العصور الوسطى..

وبالرغم من ذلك، ففى أحياء القاهرة الأوربية، لابد وأن تصادفنا مناظر الشرق ونسمع أصواته، فيعبر لين بول عن هذه المشاهد بقوله[1]: «.. فأنت إذ تطل من نافذة

(١) «سيرة القاهرة» س. لين بول، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، ص ٢٢.

غرفتك فى الفندق الذى تقيم فيه، تشاهد رجلا جائلاً ينشد على ربابته، حاملاً إليك أنغام البلد الأصيلة، ثم تلبث أن تسمع أصواتا أخرى كأصوات الأطفال الرضع تنبعث من صنج «الشربتلى» الجوال، الذى يحمل على جنبه إناء زجاجيًا كبيرًا يصب منه شرابًا من الأرز «السوبيا» أو من عصير البرتقال، فى تلك الأوعية النحاسية، التى لا ينفك يوقع عليها بين لحظة وأخرى بدون ملل، أجراسًا وأنغاما تسترعى أسماع المارة.. وفى الهزيع الأخير من الليل لا تعدم أن تسمع من أصوات الشرق ما يقض عليك مضجعك، من ذلك تلك النغمات التى تنبعث من قرع الطبول، وتنبئك بأن حفلا للزواج يجوب شوارع المدينة، وإذا تأخذك الرغبة أو حب الاستطلاع فى إستجلاء الأمر.. حينئذ تشاهد لونا من تلك الألوان التى تصطبغ بها القاهرة، والتى يمتزج فيها القديم والحديث بصورة تدعو إلى الدهشة، وفى بعض الأحيان قد ينضم إلى هذا الاحتفال بالزواج احتفال آخر بالختان مراعاة للاقتصاد.. فنجد موكبًا تتقدمه علامة الحلاق الذى يقوم بعملية الختان، وهى عبارة عن إطار خشبى مرفوع إلى أعلى يتبعه إثنان أو ثلاثة من الجمال المحملة بأبهى الأشياء، والتى تستأجر فى مثل هذه المناسبات.. وهذه الجمال من شأنها أن تمهد الطريق لما يتبعها من عربات محملة بالأطفال، كل واحد منهم ممسك بمنديل نظيف ناصع البياض، وضعه على فمه ليقيه من الشيطان ويحفظه من العين الشريرة!

ثم تأتى عربة منفصلة مغطاة من كل جانب بشال كبير مصنوع من الكشمير، يمسك به من أسفل ويعمل على إحكامه أخوات وأقارب العروس المحبوسة، ويتبع ذلك عربات أخرى تحمل سائر جموع المشاركين فى الفرح والسرور..

وقد يحدث فى بعض الأحيان، أن تحمل العروس فى هودج تغطى بشال من الكشمير، يُحمل على جملين يسير أحدهما خلف الآخر، وتكون رقبة الجمل الخلفى تحت الهودج، ومن ثم يكون فى حالة لا يحسد عليها من عدم الراحة، شأنه فى ذلك شأن العروس نفسها التى تصاب فى العادة بداور يشبه دوار البحر من جراء حركات الهودج التى لا تنقطع، وقديمًا كانت العروس تسير فى الطرقات تحت مظلة يحملها الأصدقاء، أما الآن فلم يعد ذلك من التقاليد، بل إننا نجد العربات الأوربية تحل محل الهودج..».

وعن ملاحظاته عن المرأة المصرية - حينما تظهر فى المجتمعات - أنها متواضعة إلى حد كبير، فهى تختلس نظرة إلى الغريب فى سرعة سحرية حتى لو بدا للجميع

أنها تنظر إلى الناحية الأخرى من الطريق، وفى الحال تجدها تحكم وضع النقاب على فمها وأنفها، وإذا ما أتيح لها أن تلقاك وجهاً لوجه، فإنها لا تسبل عينيها الواسعتين كما تفعل الأوربيات، وإنما تحولهما عنك فى بطء يأخذ بمجامع القلوب!

ويمضى فى وصف مشاهداته قائلا: «وحالما تترك الحى الأوربى، وتبتعد عن واجهات المحال التجارية والتجار اليونانيين فى شارع الموسكى.. حينئذ تبدو لك المدينة الشرقية على حقيقتها ويأخذ سحرها يتسلط عليك، وإنه لمن السهل تماماً أن تضل الطريق فى ثنايا القاهرة الإسلامية القديمة، حتى أنك لا تستطيع أن تستدل على الطريق إلا بمعاونة أحد المارة، إن جانباً كبيرا من القاهرة لم يطرأ عليه فساد يذكر، فهى مازالت إلى حد كبير مدينة «ألف ليلة وليلة».. .. ومن اليسير علينا حينما نجد أنفسنا فى تلك الشوارع والدروب البعيدة عن الأحياء الأوربية، أن نتصور أننا نقوم بدور تمثيلى فى رواية «ألف ليلة وليلة» تلك الرواية التى تعطينا وصفا دقيقا للقاهرة وسكانها كما كانت فى العصور الوسطى وكما هى الآن إلى حد كبير. ومما يسهل علينا هذا التصور ذلك التهدم الذى نراه فى كل مكان، فالمنازل الشرقية المتداعية التى لا يفكر أحد فى ترميمها، هى بطبيعة الحال مساكن الجن والعفاريت التى يبتعد عنها كل ساكن يخشى الله! غير أنه قد يكون هناك فى المبانى المتهدمة من الآثار ما يعود بنا إلى العصر الذهبى للفن والثقافة العربية.. فالجوامع والمدارس وبقايا القصور القديمة كلها أمثلة بيّنة لما كانت عليه الإمبراطورية الإسلامية الشاسعة الأرجاء من تقدم فى فنون العمارة فى حقبة من الزمان».

وفى إحدى جولاته بأسواق القاهرة، يحدثنا عن ملاحظاته الدقيقة فيقول :

«.. ولما إنحرفت فى أحد أزقة خان الخليلى أو البازار التركى الذى يواجه مسجد الحسين، كان ذلك المنظر يشبه إحدى صور «ألف ليلة وليلة» فقد كان البازار طويلاً مضاءاً بالشموع والمصابيح الملونة التى لا حصر لها، ومغطى بسرادقات مصنوعة من الشيلاون والأقمشة المزركشة، وأنك تستطيع من خلال قطع الخيام، المنازل المعتمة غير المضاءة، فتتعجب للتناقض الغريب بينها وبين البهجة الموجودة فى أسفلها.. أما المحال التجارية فقد تغيرت تماماً، فلم تعد ترى هناك تلك السلع التى كانت مبعثرة هنا وهناك، كما إختفت تلك الصوانى التى كانت تحمل شتى الخناجر والخواتم والملاعق وما إلى ذلك، بل إنك لتجد كل متجر قد تحول إلى غرفة استقبال أنيقة، كما تجد الجوانب

والسقف كلها مغطاة بالحرير والكشمير والأقمشة الفاخرة الموشاة والتى ليس لها نظير.. وبإيجاز فإن جوانب البازار قد تألفت منها كتلة متوهجة براقة من الذهب والأضواء والألوان الزاهية..

وبداخل كل متجر، تجد صاحبه جالساً، يحيط به نخبة من أصدقائه على شكل نصف دائرة وقد إرتدى أفخر ما عنده، متناهياً فى النظافة والأناقة، ملازماً جانب الأدب.. ذلك أن التاجر القاهرى يظهر دائماً بمظهر الرجل الكريم الأصل - حتى حينما يغشك بطريقة تثير غضبك - فذلك الرجل الذى كنت تتساوم معه فى شدة وحرارة فى الصباح، سوف يدعوك الآن فى أدب جم لأن تجلس وتدخن معه.. وإلى جانبه منضدة صغيرة من العاج والصدف، يأخذ منها زجاجة بها شراب حلو المذاق مع عصير اللوز أو الورد، فيقدم إليك منها فى كرم ولطف زائد .. .. وإنك لتستطيع وأنت جالس فى هذا المكان أن تشاهد تلك الجماهير الغفيرة وهى تتدافع وتتزاحم، حتى ليخيل إليك أن سكان القاهرة بأسرهم قد اجتمعوا فى ذلك المكان، ثم أنك تلاحظ أن كل واحد منهم قد إرتدى أحسن ما يملك، فبدأ أنيقاً نظيفاً وقد غمرته مظاهر الفرح والبهجة..

وعلى حين غفلة، تسمع أنغام المزمار وقرع الطبول تنبعث من كل مكان، فهناك جماعة تتغنى بمدح الرسول وبالحسين معاً، وهى تجوب الطرقات وتخترق جموع الناس وقد أخذت البهجة منهم كل مأخذ، وعلى اليسار تجد محلاً صغيراً جلس فيه أحد القصاصين المنشدين، يروى بأسلوب تمثيلى قصة تأخذ بأسماع المحتشدين سحراً وروعة.. وهناك تجد رجلا رث الثياب وقد إنهمك فى التلويح برأسه وهو يردد إسم «الله .. وفى مكان آخر تلمح جماعة من الدراويش وهم يذكرون وينشدون.. ومن المؤكد أن مثل هذا المشهد مبالغ فيه، حيث نستطيع أن نتصور أنفسنا فى بلاد الجن أو فى مدينة النحاس وليس فى مدينة القاهرة فى القرن التاسع عشر!»[١].

جيرار دى نرڤال - Nerval; Gérard de

أمضى جيرار دى نرڤال ثلاثة شهور بالقاهرة - دون أن يفكر بزيارة غيرها من مدن مصر العليا - إذ كان يرى أن المدن الحية الحافلة بما هو جدير بالمشاهدة مثير

(١) المصدر السابق ص ٤٠ - ٤١.

للخيال بما تحوى من عادات وتقاليد غير مألوفة لا تجتمع لمدينة أخرى من المدن الأثرية القديمة التى باتت ركاماً من الأطلال.

وقد كانت مواقع الجمال فى عالم الشرق تملك عليه كل حواسه، وتأسره رؤى القاهرة بين ثنايا كتاب «ألف ليلة وليلة».. فكانت هذه الرحلة التى أثمرت كتابه «رحلة فى الشرق»، فجاء مزيجاً من الثقافة الرفيعة والمغامرات الرفيعة ومن الأساطير والعادات والتقاليد الشعبية والدينية..

وقد أبدع دى نرڤال فى تسجيل ووصف مشاهد الحياة الشرقية اليومية والحمامات العامة والمقاهى وسوق الرقيق وحفلات الزفاف والختان ومواكب الجنازات وألعاب الحواة ولاعبى الأفاعى والقردة وحلقات الذكر ورقصات الغوازى أو رقصات الرجال من المخنثين..

ومن أكثر المشاهد التى اجتذبت دى نرڤال، مشهد الاحتفال بعودة «المحمل النبوى الشريف» من مكة، حين راح إلى باب الفتوح الذى غصّ بجموع من الناس، جاءت من كل صوب وحدب لمشاهدة ذلك الموكب العظيم، فيقول[1].

«.. خيل إلى أن الزمن يعود إلى الوراء، وأنى أرى مشهداً من المشاهد المعاصرة للحروب الصليبية، وإنطلقت طلائع فرسان الوالى بين الجماهير وعليهم دروعهم البراقة وخوذاتهم الوضاءة لتجعل من هذا الوهم حقيقة، وبعيداً فوق السهل حين يتحوّى الموكب نشهد ألوف الخيام الملونة حيث توقف الحجاج للراحة من وعثاء الطريق، ولم يخل المشهد من الراقصين والمنشدين فى هذا العيد، حيث يبارى موسيقيو القاهرة نافخى الأبواق وقارعى طبول الموكب بضجيجهم، فما كان أروع هذا الأوركستر المتربع فوق اسمنة الهجين..

وما أظننا نرى قوما طالت لحاهم وإنتفشت شعور رؤوسهم وبدوا أشد عنفاً من المغاربة الذين شاع بينهم الأولياء والدراويش! ينشدون بصوت عال وحماس شديد أوراد الذكر والمديح الفياضة بإسم الجلالة، ويحتشد الموكب بالبيارق ذات الألف لون والسوارى المقرونة بالرنوك والتروس، وهنا وهناك ترى الأمراء والشيوخ فى ثيابهم الباذخة فوق صهوات جيادهم وعليها الجلول المزركشة المرصعة بالقصب والأحجار الكريمة

---

(١) مصر فى عيون الغرباء : د. ثروت عكاشة جـ١ ص ٢١٥

مما يضفى على هذا الموكب المائج كل ما نستطيع تخيله من رونق وبهجة.

وحين يمضى ثلثى النهار، تنطلق المدافع من القلعة ويدوى الهتاف ويهلل المهللون وتهدر الأبواق معلنة أن المحمل وعليه الكسوة الشريفة قد بلغ مشارف القاهرة، وسرعان ما يتقدم الأولياء المجذوبون طائفة ذوى العمائم الخضراء من يالاديوم الإسلام: [يحاول دى نرڤال تقريب فكرة المحمل الغريبة على أذهان الأوربيين ذوى الثقافة الكلاسيكية بتشبيهها بتمثال أثينا بالاس ربة الحكمة، الذى كان يُطاف به فى مواكب الإغريق الدينية]. ولم يلبث أن جاء فى أثر الموكب جمال ستة أو سبعة زينت رؤوسها أجمل زينة وأكثرها سرفا وتوجت بالريش، وقد كست أجسادها البُسُط النضرة فحجبت معالمها حتى ليخيل إليك أنها حيوانات السمندل الخرافية أو تنينات تمضى فى لين وهوادة تمتطيها جنيات باهرات.

وكانت الجمال الأولى لقارعى الطبول من الشباب، ترتفع أذرعتهم العارية وتهوى بعصيهم المذهبة وقد اقتعدوا سُرُجاً تنبثق منها أعلام خفاقة. ثم إذا شيخ قد بلغ من العمر عتيا، ذو لحية بيضاء، على رأسه إكليل من أوراق الشجر - لعله يرمز إلى الزمن - يجلس فوق هودج مذهب يحمله جمل.. ثم إذا المحمل يطل فى هودج على شكل الخيمة المربعة قد كسى نقوشاً مطرزة وتتدلى من قمته ومن زواياه الأربع كرات فضية ضخمة..

وبين الحين والآخر يتلبث المحمل فيخر الناس ساجدين فوق التراب مسندين جباههم إلى أكفهم. وفى رفقة المحمل حرس من القواسين الذين يلقون عنتاً شديداً فى زحزحة الحجاج السود خاصة، الذين تجاوزوا فى ورعهم سائر المسلمين، يؤثرون أن تطأهم أقدام الجمال تبركا، وكان ثمة طائفة من الدراويش يخزون وجناتهم بالأسياخ المدببة وهم يسيرون والدماء تسيل منهم، على حين كان ثمة آخرون يلتهمون الأفاعى حيّة، وآخرون يحشون أشداقهم بالفحم الملتهب، ولم نر للنساء فى هذا الحشد إلا قليلاً من الإسهام، فكنا نميز من بين الحجاج، جوقات القيان المصاحبات للقافلة يغنين جميعا على وتيرة واحدة أناشيدهن الدينية، دون أن يخشين الظهور سافرات الوجوه، تلك الوجوه ذات الوشم الأزرق والأنوف التى تتدلى منها أقراط ثقيلة..».

ثم يمضى الوصف دقيقاً، يتموج فى إيقاع مسهب منتظم مثل الموكب، الذى لا يلبث أفراده أن يتوزعوا ما بين باب الفتوح وباب زويلة على المساجد المكتنفة للطريق

من جانبيه، ليمضى فى النهاية خلال الطريق الضيق الطويل الصاعد إلى القلعة».

وكم أسف دى نرفال حين رأى مظاهر الحياة الأوربية تطغى على قاهرة الماضى العريق، وهالته القصور الحديثة التى شيدها محمد على على غرار الثكنات العسكرية، لتمثل أسمى تطلعات البورجوازية الريفية الفرنسية!

Edwards; Amelia .. اميليا ادواردز

هذه الروائية الإنجليزية الشهيرة التى زارت مصر عام ١٨٧٣ - ١٨٧٤، وقد تناولت بأسلوب روائى جذاب فى كتابها : «ألف ميل صعوداً فى النيل»*.. القاهرة بأسواقها ومساجدها وفنادقها وبواباتها، وقد حرصت أن تعرض لما صادفها من عادات وتقاليد المصريين وآثارهم فى دقة وأمانة دون إقحام لمشاعرها.. فتقول:

«.. تكتظ طرقات القاهرة بالناس من كل حدب وصوب يتدفقون وينحسرون بلا إنقطاع، لا يكفون عن الجلبة، ولا يستقرون كالموج المتعدد الألوان، منهم الشرقيون ومنهم الأوربيون، سائرين أو ممتطين الخيل أو راكبين العربات. هنا التراجمة الشوام بسراويلهم المنتفخة الفضفاضة وستراتهم المطرزة، وهناك الفلاحون المصريون الحفاة فى حلل زرقاء مهلهلة ولبدات من الجوخ، وهنا اليونانيون الذين يثيرون الضحك بجلاباتهم البيضاء المنشاة وكأنهم اسطوانات تتحرك على أقدام، وثمة فريق من العجم بقلنسواتهم العالية القائمة النسيج كتيجان الأساقفة، واخر من البدو داكنى البشرة فى أرديتهم المتهدلة العاجية اللون تتخللها خطوط بنية عريضة، وهناك الإنجليز بقبعاتهم الخوص وبنطلوناتهم القصيرة الواسعة المزمومة عند الركبة، تتدلى سيقانهم الطويلة حول الحمير التى تكاد لا يظهر لها أثر تحتهم، ونساء مصريات من الطبقة الدنيا محجبات ببراقع سوداء لا يبدو منها غير عيونهن مكتسيات بحبرات قطنية ذات خطوط زرقاء وسوداء، ودراويش فى سترات مرقعة تنسدل شعورهم المجدولة من تحت طرا طيرهم العجيبة، والأحباش بلون بشرتهم الأزرق الداكن وسيقانهم الهزيلة المقوسة وكانها قضبان سياج أبنوسية نحيلة، والقسس الأرمن فى عباءاتهم السوداء الطويلة وقلنسواتهم العالية المربعة على غرار قلنسوة «بورشيا» بطلة مسرحية شكسبير الخالدة «تاجر البندقية» وقد تسربلت بزى رجال القانون، والأطياف الجليلة لعرب الجزائر الذين يكسوهم ثوب أبيض من قمة رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم، وفرسان الانكشارية بسيوفهم المصلصلة وستراتهم المقصّبة، والباعة والمتسولون والجنود والنوتيه والعمال، كل في زيّه المتنوع، وكل بلون بشرة مختلف يتراوح بين الأبيض والأسود وبين الأسمر المائل للصفرة والنحاسي وبين البرونزى القاتم والأسود المشوب بالزرقة.

* Amelia Edwards: A Thousand Mils Up the Nile, Leip zig, Bernhard Tauchnitz 1878.

وكما اجتذبتها المساجد - خاصة مسجد السلطان حسن الذى يتجاوز بتصميمه وعمارته ورشاقته المهيبة العصية على الوصف، كافة المساجد وسائر المبانى، مما يجعله أجمل مساجد الإسلام على الإطلاق - فقد اجتذبتها أيضا البوابات الإسلامية العريقة والكنائس القبطية القديمة وأضرحة الخلفاء، وآثار هليوبوليس والأهرام وأبو الهول..

وتأسرها أسواق القاهرة، فتسجل «إنطباعاتها السحرية التى لا تنسى عن الحياة الشرقية خارج الدور» فتتابع خطواتها دون كلل أو ملل عبر الدروب والطرقات التى لا ينفذ إليها إلا بصيص من ضوء النهار، بينما تأتلق بالألوان الباهرة للمعروضات، وتكتظ بالمارة والعابرين، الذين يوحون إلى المشاهد الأوربى بالممثلين المشاركين فى مسرحيات عيد الميلاد المقتبسة عن قصص ألف ليلة وليلة..

وتتناول بالوصف الدقيق تلك الأسواق المتخصصة*. التى تحتل فيها كل سلعة منطقة قائمة بذاتها، مثل أسواق السروجية والصاغة والنحاسين.. وأسواق الأحذية والسجاد والخردوات والحلوى والدخان والسلاح.. وأسواق تبيع المنتجات الإنجليزية والفرنسية مثل خان الخليلى وخان الحمزاوى.. أسواق تضم «شبكة من الأزقة الضيقة الي تمتد وكأنها بغير حدود.. »،

---

* كان بمدينة القاهرة وظواهرها الكثير من الأسواق، ويدل على كثرة عددها أن الذى خرب من الأسواق فيما بين أراضى اللوق إلى باب البحر بالمقس إثنتان وخمسون سوقا أدرك بعضها المقريزى، وكانت الأسواق تسقف بالحصير أو الخشب، وكانت النوافذ والمشربيات تطل على السوق بشكل جذاب يستوقف النظر. ومن أشهر الأسواق التى ذكرها المقريزى فى خططه «سوق القصبة» التى كانت أعظم أسواق مصر قاطبة، فقد إحتوت على ١٢ ألف حانوت، وامتدت من الحسينية إلى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها.. وقد أدرك المقريزى إمتداد هذه السوق العامرة بالحوانيت والتى غصت بألوان المآكل والمشارب والأمتعة والمنتجات التى تبهج برؤيتها العيون وتسر القلوب.. ومن الأسواق الشهيرة أيضاً «سوق بين القصرين» التى اعتبرت أعظم أسواق الدنيا.. وقد تفرعت عن هذه الأسواق، أسواقا أخرى أو سويقات، منها سوق باب الفتوح وسوق حارة برجوان وسوق السلاح وسوق أمير الجيوش (مرجوش) وسوق العصر وسوق الأزهر وسوق المؤيد وأسواق الخيل والغنم والعنبريين والبندقيين والغلة والخشب والصاغة والسروجية والنحاسين والفحامين والسكرية والشوايين والخياطين والصرمتية والمقادين والكتبية والغورى والسكرية والجعيدية.. وسويقات البكرى والعزى والصاحب ولاشين والشماعين ، عصفور واللالا.. وغيرها.. راجع: (خطط المقريزى : جـ٢، ص ٩٤ - ١٠٧).

وتشير إلى الدور فى هذه الأزقة والتى تزخر بالمشربيات القديمة والأبواب العربية.. والباعة الذين يستلقون وسط سلعهم يدخنون أراجيلهم.. كما تشيد بلطف التجار وكياستهم وحلمهم وصبرهم الذى لا نهاية له..!.

بيير لوتى.. Loti; Pierre

فى عام ١٩٠٧، عاش بييرلوتى فى القاهرة حاضر مصر وماضيها القريب قبل أن يوغل فى تاريخها القديم. «صافحت عيناه الجامع الأزهر الذى كان مركز التثقيف الأول فى البلاد وروضة العلم والدين معًا.. (فناء فسيح غير مسقوف ثم سور خشبى رائع التركيب يحجز الطلاب فى جباتهم وعمائمهم ملتفين حول الأعمدة أمام شيوخ أجلاء يدرسون لهم علوم القرآن والرياضة التى هى من إختراع العرب، يتخرجون بعدها علماء أفذاذًا، ولكنهم للأسف متخلفون عن عصرهم، إذ لم تتغير كتبهم منذ العصر الفاطمى تقريبًا. يعيشون على أموال الأوقاف، ويتعاونون معا فى كنس المسجد بسعف النخيل، يتخطف الطير عيشهم، ويحركون القلوب بترتيلهم القرآن فى هذه الأيام التى بدأ يختفى فيها الإيمان من قلوب الناس.. لقد أغفت بلاد الشرق بعد مجد الإسلام الأول - وتلك طبيعة الشعوب - غير أن نداء الصحوة يعلو اليوم مؤذنا ببعث جديد»(١).

وفى حى مصر القديمة، لاحظ لوتى كيف تتلاصق بيوت الأقباط، وتخط على أبوابها الصُلبان.. وفوق أطلال قلعة رومانية تتربع كنيسة القديس «سرجيوس» بسيطة بساطة المسيحية الأولى، يشيع فى جنباتها بخور العرب وتجثم فيها الظلمة رغم شمس الصيف الوهاجة التى تلهب الأرض خارج الكنيسة.. موضحًا كيف أن المسيحية التى تبشر بالبعث، قد وجدت أرضًا طيبة بين المصرين الذين يعدون العدّة للموت منذ الزمن الغابر.

ويواصل لوتى مشاهداته وانطباعاته.. فيتأمل القلعة ومسجد محمد على الذى يبدو وكأنه لفتة تركية، حيث الرخام أبيض مجزع والأبسطة حمراء والعقود مذهبة، بينما يرقد محمد على فى ضريحه بطلاً أسطوريًا..

وفى هذا المكان يتخذ الإنجليز معسكرهم حيث يطلون على القاهرة برمالها وآثارها وبساتينها ومآذانها ونخيلها وأهراماتها الخالدة.. على حين تشمخ على البُعد مداخن مصانع جديدة، بالقرب من الخط الفضى الذى يرسمه النيل، ينتشر دخانها وكأنه سيحجب بكثافته كل ما للماضى القديم من جمال..!

---

(١) مصر فى عيون الغرباء : د. ثروت عكاشة جـ ١ ٢٨١ .

وحين ينتقل إلى القاهرة الأوربية، حيث الأضواء والضوضاء والصخب والضجيج وعلب الليل وبنات الهوى.. يتساءل فى فزع: أو تكون هذه قاهرة المستقبل؟! فقد كان يخشى دائما ألا ينتبه المصريون إلى أن لهم تراثا خالدا - إن لم يتشبثوا به - تلاشت إحدى مدن التاريخ الرائعة فى زحام المدن الحديثة التافهة..!

القاهرة..

فى الوثائق الرسمية الأجنبية

وإلى جانب وصف القاهرة، وحياة مجتمعها، التى وردت فى مشاهدات الرحالة والفنانين الأوربيين.. هناك أيضا «الوثائق الرسمية» وأقصد بها تلك التقارير التى كان القناصل الأجانب يرسلون بها إلى حكوماتهم، ولست فى حاجة إلى بيان مدى أهمية هذه الوثائق الأجنبية، التى تعد مرجعاً من الطراز الأول، يكشف النقاب عن جوانب هامة فى تاريخ مصر الحديث، ويجلو حقائق رائعة فى تاريخ حافل لشعب كان لله القدح المعلى فى العصور الخالية..!

والتقريران التاليان يكشفان كيف عقد الخديو إسماعيل العزم على أن يمنح القاهرة وجهًا عصريًا جديدًا، وهو الذى تكاد بصماته الواضحة تتبدى به اليوم :

* من «بيردسلى» قنصل الولايات المتحدة إلى وزارة الخارجية الأمريكية(١)

«رأى إسماعيل ما يترتب من الفوائد على إنشاء مركز دائم لحكومته، تلتف حوله شتى الوزارات، فقرر ألا يجعل القاهرة عاصمة ملكه فحسب، بل أن يجعلها عاصمة تليق بمصر، لذلك أنفق أموالا كثيرة، وبدأ الجهود فى همة قلما يتحلى بها أمير شرقى، فعكف على العمل فى الخمس سنوات الأخيرة، لتجميل هذه المدينة، التى يمكن

(١) «إسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية» جاك تاجر: ص ١٨٣.

تفضيلها اليوم على عدة عواصم أوربية»!

القاهرة فى ٩ نوفمبر عام ١٨٧٢

* من «بيردسلى» قنصل الولايات المتحدة إلى وزارة الخارجية الأمريكية(١)

«بلغ التجميل والتغيير فى القاهرة، منذ بضع سنوات، مدى يصعب على الأجنبى تقدير طبيعته ومداه حق التقدير.

وسكان القاهرة نصف مليون نسمة، وهى قائمة بالقرب من المقطم، على مسيرة ميل ونصف ميل من النيل، ومنذ ست سنوات، لم يكن الحيز الواقع بين القاهرة والنيل وبولاق، إلا أرضًا واسعة منخفضة، تغمرها مياه الفيضان، ولا يزرع منها غير مساحات ضئيلة، عند إنحسار مياه الفيضان. وهذا الحيز هو اليوم الحى الجديد الجميل، ويسمى بحى الإسماعيلية، تكريمًا لسمو الخديو، وقد ردم على إرتفاع يتراوح بين ستة وثمانية أقدام، بالأتربة التى جلبت من أنحاء المدينة، وقد تم تخطيط طرق جديدة واسعة لسير العربات، تحف بها الأشجار، ومنحت الأرض بالمجان، لمن يتعهد بأن يقيم عليها بناء معين الرسم. وهكذا أنشئت مدينة جديدة تماما تتألف من أبنية رائعة، تمتد من المدينة القديمة إلى ضفاف النيل، فكأنها نشأت بفعل السحر.

كانت البقعة الشاسعة المعروفة بإسم الأزبكية، تقوم على جوانبها مجموعات من الدور الأوربية يتألف منها الحى الإفرنجى، ولم تكن هذه البقعة - أيام الفيضان - إلا بحيرة واسعة، فإذا إنحسرت المياه، أصبحت مأوى للكلاب، ومسرحًا للجنايات ومجتمعًا للسوقة، وقد استحالت اليوم إلى حديقة عمومية رائعة الجمال، ذات ممرات رملية، وطرق ظليلة ومروج خضراء، ومما يأخذ فيها بالألباب، بحيرة صناعية هى آية فى الجمال، وتحف بهذه الحديقة، أبنية أخاذة المنظر، منسقة على طراز واحد.

وفى داخل المدينة، خطت طرق جديدة متسعة، توفر سبل المواصلات، وتجلب الهواء والنور إلى أحياء تزدحم بالسكان، وتوفر الماكينات الماء العذب لأحياء المدينة بأسرها، مقابل مساهمة فى النفقات اللازمة، وهناك مصنع للغاز يورد ستة آلاف متر مكعب فى اليوم، ينير الطرق والميادين العامة.

والطرق الجديدة مرصوفة جميعها رصفًا متقنًا، ومحفوفة بالأفاريز، وبها مجار،

(١) المصدر السابق : ص ١٨٤ - ١٨٦ .

وأنشى فى شمال المدينة حى جديد إسمه الفجالة، وفى الشمال الشرقى خُط حى جديد آخر، ويجرى العمل لردم الحفر وتعبيد الأرض. وقد تراكمت عليها أكوام من الأتربة. نُقلت إليها من أطراف المدينة، على مّر الأحقاب، ويخترق هذين الحيين طريق واسع، يوصل إلى موقع هليوبوليس القديم وإلى العباسية، على طرف الصحراء حيث أقيمت المدارس الحربية.

كذلك أنشئ طريق جميل جدًا للعربات ينتهى إلى الأهرام، ويجتاز الجسرين الجديدين فى الجزيرة، ويجرى العمل على تحويل هذه الجزيرة - بخطى سريعة - إلى حديقة عامة غناء وحديقة أخرى للحيوانات. وسيقام فيها أيضًا المتحف المزمع إنشاؤه قريبًا، وكذلك يشرع فى إنشاء حديقة شاسعة شرقى الجزيرة، وقد شّيد الخديو مسرحًا ضخما للأوبرا الإيطالية وآخر أصغر منه للكوميديا الفرنسية، وأقيمت حنفيات عامة وبعض المساجد والعديد من القصور.

وفى جميع المجالات نشاهد دلائل النشاط والتطوير، تذكر بمدينة الغرب، أكثر مما تذكر بعادات الشرق».

القاهرة فى ١٥ سبتمبر عام ١٨٧٣

نشأة القاهرة الحديثة :

عصر محمد على إلى عهد عباس الأول ..

فى مستهل القرن العشرين، كتب الرحالة «أوجست لامبلوف» يصف القاهرة، بعين فاحص مدقق، فقال : «.. يفصل القاهرة الأوربية عن القاهرة الشرقية، شارع طويل يمتد من محطة السكك الحديدية، ماراً بالفنادق الضخمة حتى قصر عابدين... وهى عامرة بالمحال الكبيرة والدور العظيمة والعربات الأنيقة، والمارة يتزيّون بالملابس النظيفة المهندمة، تماماً مثل أى مدينة أوربية.. أما القاهرة القديمة الواقعة فى شرقيها، فهى على حالها لم تتغير منذ قرون..»(١).

ولقد كان الفارق بين المدينتين من العظم، بما دفع «وليام مورتون» إلى أن يتنازل عن النعرة الإنجليزية المعهودة، فيكتب عن القاهرة التى زارها فى عام ١٨٨٩، قائلا: «.. ولا يملك الزائر حينما يرى مباريات لعبة البولو والحفلات والسباقات وألعاب الفروسية، إلا أن يأخذه الإحساس بأنه فى مدينة إنجليزية، احتفظ أهلوها بقدر من المناظر الشرقية - العجيبة - لإرضاء نزعتهم الجمالية، مثلما يعمد ثراة الريف الأوربى، إلى إقامة محمية للحيوانات أو حديقة للغزلان فى ممتلكاتهم للترويح عن أنفسهم»(٢).

هكذا باتت القاهرة والقرن التاسع عشر موشك على الرحيل، منقسمة إلى مجتمعين متمايزين فى طبيعتهما، وكانت الهُوة بينهما أكثر إتساعاً من ذلك الشارع الفاصل بينهما، إذ إتسعت الشقة بين ماضى مصر وحاضرها فى نهاية القرن التاسع عشر، لتصبح هوة عميقة، بعد أن كانت مجرد خدش فى مطلعه، ولم تكن الطبيعة الإزدواجية للمدينة، إلا تعبيراً عن الإنقسام الحضارى والثقافى.

كانت القاهرة الإسلامية، مازالت فى جوهرها، مدينة من مدن ما قبل الثورة الصناعية، من حيث التقنية والبنية الاجتماعية وأسلوب الحياة، وإلى الغرب منها، نشأت القاهرة الأوربية، بتقنياتها المعتمدة على الطاقة البخارية وحركتها الأسرع ومنشآتها ومركباتها وهويتها الأوربية التى أسبغتها على نفسها، وإلى الشرق منها.. قام تيه من الحارات والدروب التى لم تكن قد رصفت بعد، رغم أن بواباتها أزيلت إبان الاحتلال الفرنسى..

---

(1) Augustus Lamplough and R. Francis, Cairo and its Environs, p. 15, London:1909
(2) William Morton : In Cairo, pp. 6-7, London : 1891.

بينما القاهرة الحديثة، تزدان بشوارعها المستقيمة الفسيحة المرصوفة، تستمتع بالهواء وتستقبل أشعة الشمس، وتتقاطع بزوايا قائمة أو تتلاقى بين الحين والآخر فى ميادين مستديرة، وكانت أحياء القاهرة الشرقية، مازالت تعتمد على السقائين، فى حين أن سكان القاهرة الحديثة، يتمتعون بشبكة جيدة لمياه الشرب، وتضاء شوارعها بالأنوار الغازية، بينما الظلام يضرب أطنابه على المدينة الشرقية إذا حل الليل، وبينما نجدها محرومة من الحدائق، وشوارعها لا تحف بها الأشجار، التى يمكن أن تكسر حدة لونى التراب والطين اللذين يغطيان بيوتها ومنشآتها، نجد أن القاهرة الحديثة تنعم بحدائق فرنسية الطابع، منسقة تنسيقًا بديعًا، وازدانت شوارعها بأحواض مزخرفة للأزهار، والأشجار ذات التشكيلات الرائعة، تحف بها، وبينما كانت قاهرة الشرق محطًا لرحال القوافل من كل صوب، وأبناؤها ينتقلون على ظهور الإبل والحمير أو سيرًا على الأقدام.. كان دخول القاهرة الحديثة عن طريق السكك الحديدية، ويستقل المسافرون بعد وصولهم، مركبات إنجليزية الطراز، تجرها الخيل، للتنقل خلال المدينة..

وبإيجاز شديد، يمكننا القول إذا استعرضنا أهم جوانب ومظاهر الحياة فى المدينتين، أن الفارق بينهما - رغم تجاور مبانيهما - شاسعًا، من الناحيتين الاجتماعية والتكنولوجية.

مما لاشك فيه أن وصول محمد على إلى تولى عرش مصر، كان نقطة تحول هامة فى تاريخ القاهرة، حيث بدأ بنوع من الخدمات المتمثلة فى كنس ورش وتنظيف وإنارة شوارع المدينة، وفى عام ١٨١٦، أمر بهدم الدور والمساكن التى يخشى من تهدمها وأن يعاد بناؤها، خاصة فى مناطق بركة الفيل والحبانية وبولاق[1]، وفى السنة التالية، أمر بنظافة الأسواق، وإيقاد القناديل على أبواب الدور، وأن يخصص لكل ثلاثة حوانيت قنديل، وكان محتسب القاهرة يتابع تنفيذ هذه الأوامر بنفسه[2]..

كما برز إهتمامه بالصحة العامة، حيث ندرت الأوبئة - بإستثناء وباء عام ١٨٣٥ - وأزيلت الكيمان الملاصقة للنيل شمال قصر العينى، والمعروفة بتل العقارب، عام ١٨٢٩، وكان مسطحها تسعة أفدنة، فأزيلت فى ٣٩٣ يوما، كذلك أزيلت التلال فيما

---

(1) Clerget: le Caire : 11. p. 190

٢ - عجائب الآثار : الجبرتى ، جـ ٤ ص ٢٧٩.

بين حى الناصرية وجاردن سيتى ومساحتها ٣٨ فدانا، وغرست بأشجار الزيتون وغيرها، أيضا أزيلت الأكمة، التى كانت تسد الطريق إلى شبرا، بجوارة قنطرة الليمون، وحولت إلى منتزه عام[١].

وفى عام ١٨٣١، صدر قرار بتعمير الخرائب، سواء أكانت مملوكة أم موقوفة، بعد إحصائها وتحديد مساحتها، وكان قد سبقه قرار بإعداد «تجريده» من المهندسين للكشف على دور القاهرة، فإن وجدوا بها خللاً، أمروا بترميمه أو هدم المنزل[٢].

وفى عام ١٨٤٣، أصدر محمد علي قرارًا بإنشاء مجلس للإشراف على تجميل القاهرة، وتعديل شوارعها، أسوه بما أستحدث بالاسكندرية[٣].

وفى عام ١٨٤٦، صدر الأمر بفتح وتوسيع شوارع الموسكى وبولاق وفم الخليج والقلعة والسكة الجديدة وفى عام ١٨٤٧، شرع فى توسيع الشارع من باب الحديد إلى الظاهر، والمتصل بطريق السويس، كما أجرى توسيع درب الجماميز، وباب الخلق، والمشهد الحسينى، وغرست الأشجار بتلك الشوارع. وتم تمهيد طريق متسع بين وسط القاهرة وشبرا، ويمر بموضع ميدان رمسيس الحالى، وغرست على جانبيه أشجار الجميز واللبخ، فكان من أجمل منتزهات القاهرة[٤]. وفى حى شبرا، شمال غرب المدينة، شيد محمد على قصره والدى كان نهاية فى الفخامة والأبهة.

وكان محمد على قد أعاد تحصين القلعة، من جهتها الشرقية، وأزال كثيرًا من المبانى التى أقيمت فى عصر سلاطين المماليك، مثل الإيوان الكبير، وفى موضعها شيد قصرا، هو المعروف بقصر «الجوهرة» ومسجده الجامع الذى شيده على طراز مساجد إستومبول.

وأقام فى بولاق، دارًا لصناعة السفن، ومنطقة للصناعات الأساسية فى السبتية، شمال شرق بولاق، التى إزدهرت كميناء للقاهرة، إلى أن أنشئ خط سكة حديدية بين القاهرة والإسكندرية عام ١٨٥٤.

---

١ - تقويم النيل : أمين سامى ، جـ٢ ص ٥٣٢.
٢ - تخطيط القاهرة وتنظيمها : حسن عبد الوهاب، مجلة المجمع العلمى المصرى ١٩٥٥، ص ١٥.
٣ - المصدر السابق : ص ١٨.
٤ - الوقائع المصرية : رقم ٨٩ (٢٣ ذى القعدة سنة ١٢٦٤).

وتحولت المنطقة عند كوبرى الليمون إلى - متنزه عام - يزخر بأنواع شتى من الأشجار والزهور.

وفى نفس العام ١٨٤٧، وبعد أن تم تنظيم القاهرة، وشقت بها الشوارع وأضيئت، وغرست بها الأشجار، رؤى تسمية الشوارع وترقيم الدور[١] «.. كأسلوب أوربا، مما يستوجب المنافع العظيمة للمملكة، ويورث السهولة لمن يقصد زقاقاً أو بيتاً، سواء كان من الأهالى أو من الأجانب، إستقر الرأى بمجلس تنظيم المحروسة، على التدابير اللازمة لذلك، طبق الإرادة السنية..» كما ورد فى نص ديباجة القرار بهذا الشأن.

وبالرغم من محاولات - تحديث القاهرة - إلا أنها ظلت تحتفظ بطابع القرون الوسطى، فمن وجهة نظرنا، أن النصف الثانى من القرن التاسع عشر، هو فى جوهره، بداية التأريخ للقاهرة الأوربية، ففى عام ١٨٤٧، كان يقطن بالقاهرة نحو ....,٣٠ نسمة، بما فى ذلك سكان ميناءى بولاق ومصر القديمة، أما فى عام ١٨٩٧، فكانت القاهرة تتألف من مجتمعين متباينين، يبلغ مجموع سكانهما نحو ....,٥٩٠ نسمة. وكان عام ١٨٤٧، نقطة تحول فى إزدياد عدد أبناء الجاليات الأوربية بالقاهرة، وكانت الجالية اليونانية أكبرها حجماً وأقدمها عهداً، كما إزداد توافد المغامرين الإيطاليين والفرنسيين، ليرتفع عدد السكان الأوربيين فى عام ١٨٩٧، فى القاهرة وحدها، إلي نحو ...,٣٥ نسمة[٢].

غير أن الأرقام لا تروى إلا طرفاً من القصة، ففى عام ١٨٤٧، كانت مصر لا تزال إحدى ولايات الإمبراطورية العثمانية، تتمتع بقسط من الحكم الذاتى - يجمع بين الطابعين الشرقى والغربى، ولم يكن للأوربيين نصيب يذكر فى إدارة الحكم، بالرغم من وجود بعض المستشارين الذين استخدمهم الباشا واطمأن لمشورتهم.

ولكن هذا الوضع تغير فى عام ١٨٩٧، بالرغم من بقاء مصر خاضعة - من الناحية الإسمية - للسلطان العثمانى، إذ كانت مصر قد خضعت لإنجلترا، قبل ذلك التاريخ بخمسة عشر عاما، ويحكمها ممثل للحكومة البريطانية، واحتكر الأوربيون أهم

---

(١) تقويم النيل : أمين سامى، ج٣١، ص ٥٤٧.

(2) Henry Dodwell : The Founder o f modern Egypt : Astudy of Muhammed Ali, P.261.

المناصب الحكومية، وتمتعوا بامتيازات وإعفاءات، وأسلوب للحياة، جعلهم فى مكانة يطمح إليها بنى جلدتهم فى أوطانهم الأصلية.

وفى نفس ذلك العام ١٨٤٧، ترك محمد على مقاليد الحكم فى يد إبنه إبراهيم باشا، بعد أن أصابه الهرم وشاخ عقله، واعترف بولايته رسميًا فى عام ١٨٤٨، فأصبح حاكمًا للبلاد، غير أنه ما لبث إن رحل عن عالمنا فى نهاية ذلك العام، وتولى بعده - عباس حلمى الأول - بن أحمد طوسون بن محمد على، وصدر فرمان ولايته فى ٩ ديسمبر ١٨٤٨.

وكان عباس مزيجًا من الجهل والتخلف والتقلب، عاش فى عزلة عن رعيته، مقيما فى قصور حصينة بالصحراء أو على ساحل البحر.. وكانت فترة حكمه - رده قصيرة - عن سياسة التحديث التى بدأها جده، فأمر بتسريح الكثير من جنود الجيش، وأغلق المدارس والمصانع التى شيدها محمد على، وفى عام ١٨٥٠، ألغى مدرسة «الألسن» ونفى مديرها - رفاعة الطهطاوى - والذى ظل ناظرًا لها طيلة خمسة عشر عاما وبعد أن تخرج على يديه العشرات من رواد النهضة الحديثة بمصر، فكان مثالاً للحاكم الذى رسخ فى يقينه، أن قيادة شعب جاهل أيسر من قيادة شعب على قدر من العلم والثقافة!.

ومن الصعوبة أن نتخيل، أنه بوسع مؤرخ رسم صورة كريهة كئيبة لحاكم ، كتلك التى رسمها لنا من عاصروا وأرخوا لهذا العباس، فليس هناك من منقبة واحدة تجعلنا نتعاطف معه، إلا أنه قام بخطوتين، كان لهما أبعد الأثر فى تطور مدينة القاهرة :

الأولى : منحه للبريطانيين امتياز إنشاء خط سكك حديدية بين الإسكندرية والقاهرة.

الثانية : إنشائه لمنطقة ضمت بعض الثكنات العسكرية، بالصحراء شمال شرق القاهرة، تحمل إسم «العباسية» والتى باتت آهلة بالسكان، ولازالت تنتسب إلى إسم منشئها.

خضع عباس للضغوط البريطانية، ووقع اتفاقية إنشاء خط السكك الحديدية بين القاهرة والإسكندرية، فى صيف عام ١٨٥١، وكان هذا بديلاً عن المشروع البريطانى الخاص بمد خط سكة حديدية بين السويس والقاهرة، والذى تحفظ عليه محمد على فى عام ١٨٤٧، ولم يكن راغبا فى تنفيذه.

كان هدف الحكومة البريطانية، تيسير حركة نقل الجنود والتجار والبريد، بين أوربا والمستعمرات الإنجليزية فى الهند - عبر مصر - دون المساس بسيطرتها واحتكارها لطرق الملاحة والنقل حول رأس الرجاء الصالح، وبالفعل تم الإنتهاء من تنفيذ خط القاهرة - الاسكندرية فى عام ١٨٥٤، قبيل مصرع عباس، وأفتتح رسميا فى ١٨٥٦، فى عهد سعيد باشا، ليكون أول خط حديدى أنشئ فى الشرق قاطبة، وتتضح أسبقية مصر، إبان زيارة السلطان التركى عبد العزيز لمصر، سنة ١٨٦٣، فقد تملكته الدهشة عندما إستقل القطار من الاسكندرية إلى القاهرة، إذ لم يكن رأى القطارات البخارية فى حياته من قبل.

وأفادت القاهرة - بطريق غير مباشر - من هذا المشروع، فبعد أن كانت الرحلة بين القاهرة والاسكندرية تستغرق فى الماضي، أربعة أيام، أصبحت بعد تنفيذ المشروع لا تستغرق سوى بضع ساعات..

وأصبح الطريق ممهدًا ومفتوحًا، لتحقيق التواصل الأوربى بالقاهرة، على نحو لم يسبق له مثيل، ويمكننا القول بأن قاهرة محمد على، كانت مدينة معزولة نسبيا، وإلى حد ما منغلقه على نفسها، ولكن مع الخط الحديدى، كان لها أن تنطلق لتجوز حدودها وأن تمد أبصارها خارج آفاق مصر.

أقيم بناء محطة السكك الحديدية الرئيسية، في موقع ميناء «المقس» الذى يعود تاريخه إلى العصر الفاطمى، وإليه إمتدت أسوار القاهرة فى عهد صلاح الدين، وقد أخذت المحطة إسمها من إحدى البوابات الشهيرة لهذا السور، والتى عرفت بباب الحديد، وقد أزالها محمد على قبيل سنوات من نهاية عهده، بعد أن كانت أبرز معالم المنطقة فى الماضى، وكان إختيار هذا الموقع لإنشاء المحطة الرئيسية - خارج حدود المدينة - عاملاً مؤثرًا فى التطور البيئى للمنطقة المحيطة بها، فلم يقتصر وجودها على تشجيع حركة العمران فحسب، بل كانت أيضا مقصدًا للكثير من المهاجرين إلى المدينة (المصريون والأجانب على السواء). ونشأت بالحى القبطى الواقع فيما بين المحطة ومنطقة الأزبكية، الكثير من الفنادق والحوانيت والمقاهى[1].

وفى القسم الشمالى من المدينة، يقع أحد الأحياء الفقيرة، المعروف باسم

(1) Lane, E. W : Cairo Fifty Years ago; P.43.

«العباسية البحرية» وتحف به مناطق يسكنها أبناء الطبقة الوسطى، ولن يكون بمقدورنا أن نتفهم ما وراء نشأة هذا الحى - المنعزل آنذاك - والتى ترجع إلى عام ١٨٤٩، إلا إذا عرفنا أنه - الإضافة الوحيدة - التى أسهم بها عباس الأول فى نمو القاهرة، كان محمد على قد تخلص من الجند الألبان المرتزقة، الذين أثاروا المتاعب فى البلاد، بالرغم من أنهم أسهموا بسيوفهم فى وصوله للعرش، واستبدل بهم جيشاً من المصريين، غير أن عباس استعان بالمرتزقة فى جيشه، وإدراكاً منه لطبيعتهم الجانحة للتمرد والثورة وافتقارهم لروح النظام، قرر توطينهم خارج المدينة، ففى عام ١٨٤٩، أقام لهم سلسلة من الثكنات على حافة الصحراء، بطول الطريق الممتد إلى قريتى المطرية وعين شمس، الواقعتين خارج حدود العاصمة، وسرعان ما نشأت حول تلك - النواة - مجموعة من الحوانيت والمصانع الصغيرة ومساكن خاصة بالضباط والتجار، بالإضافة إلى مستشفى ومدرسة وقصر للباشا، مما دفع بحركة العمران قدماً، ويمكننا القول بأن نوعاً من «الأحياء الملكية» قد بدأ يتكون فى تلك المنطقة، مما يعيد إلى الأذهان قصة إنشاء القاهرة.

غير أن القدر لم يمهل عباس الأول، لكى يمضى فى تدعيم وتطوير مدينته، فكان مصرعه المفاجئ بعد خمس سنوات، سبباً مباشراً فى توقف نمو العباسية، إذ تخلص خليفته سعيد باشا من المرتزقة، ووضع جنود الجيش الجدد فى ثكنات تطل على النيل، وهكذا أهجرت العباسية على نحو غير منتظم، مثلما نشأت على نحو سريع مفاجئ.

وبعد نحو خمسة عشر عاماً، وصف «ولكنسون»[1] تلك البقعة بقوله : «أثر تعس.. مازال يحمل إسم مشيدة.. ولكن مآله فى بضع سنين إلى الخراب اليباب». وهى نبوءة أثبتت الأيام أنها كانت مسرفة فى التشاؤم، إذ ظلت العباسية حياً نائياً، إلى أن نزل بها الجيش البريطانى، عام ١٨٨٢، ثم إندمجت مع كتلة المدينة، فى العقد الأول من القرن الحالى، حينما إنتشر العمران حولها بخطى حثيثة، نتيجة لإقبال المستثمرين على المضاربة العقارية على أراضيها ومنشآتها التى تضاعفت قيمتها الشرائية[2].

ويعود تاريخ بناء أحد أشهر معالم القاهرة، إلى عصر عباس الأول، وأعنى به

(1) Wilkinson : AHandbook for travellers in Egypt, P. 151
(2) Lamplough : Cairo and its Envions, p.p. 28 - 34

فندق «شبرد» الذى إستغل مؤسسة «صمويل شبرد Samuel Shepheard» فرصة لقاءه بعباس الأول، فى رحلة صيد، لينتزع منه وعدًا بتخصيص موقع له ينشئ عليه فندقًا عالميًا، ولم يكن هذا الموقع سوى مدرسة الألسن الشهيرة، كما كتب لأخيه فى نوفمبر ١٨٤٩: «حصلت على موافقة الباشا، بتخصيص مبنى مدرسة هامة، لتشييد فندق أقوم الآن بوضع تخطيط له»[1]..

وهذه المدرسة كانت قصرًا للألفى بك، يطل على بركة الرطل بالأزبكية، وأقام به نابليون فصار مقرًا لقيادة الحملة الفرنسية فى مصر، ثم تحول إلى مدرسة للألسن فى ذروة النشاط التعليمى فى عهد محمد على، ثم أمر عباس بإغلاقها، لتصبح مهيأة لإقامة هذا الفندق الذى قدر له أن يحرز شهرة عالمية ضخمة، حتى أصبح رمزًا من رموز القاهرة.

(1) Michael Bird : Samuel Shepheard of Cairo, P. 46.

عصر إسماعيل

منذ أن إرتقى الخديو إسماعيل عرش مصر، عقد العزم على أن يمنح القاهرة وجهًا عصريًا، هو الذى نلمس بصماته الواضحة فى يومنا هذا، وطوال فترة حكمه (١٨٦٣ - ١٨٧٩) أنفق ببذخ شديد على شتى مظاهر الدولة العصرية، بلغت ذروتها فى احتفالات افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩..

وإليه يرجع الفضل فى وضع أسس القاهرة الحديثة، وهو الذى إمتد بعمرانها إلى الجهة الغربية عبر النيل، بعد أن ظلت تمتد إلى الشمال. وتتدافعت موجات النشاط العمرانى، على نحو لم تشهده المدينة منذ قرون خلت.. إذ كانت أسعار القطن فى أوج إرتفاعها، نتيجة لإنسحاب الموردين الأمريكيين من السوق إبان الحرب الأهلية. وفى تلك الآونة كان الشعب المصرى يخوض تجربته الأولى للحاق بركب الحضارة الأوربية، بعد قرون من التردى فى غياهب التخلف والإضمحلال، غير أن رغبة إسماعيل العارمة فى أن يشهد الغرب، عاصمة أوربية فى القاهرة، تحكم دولة عصرية تقوم على ضفاف النيل، تمتد من الاسكندرية إلى الخرطوم، كانت سببًا فى إزدياد حدة النفوذ الأجنبى فى مصر[1].

(1) G. Douin : Histoire du Régne du Khédive Ismail : Vol 1, P.P. 527 - 259.

وعلى مر التاريخ، كانت مشروعات إنشاء القنوات وحماية الأراضى فى وادى النيل، من طغيان مياه الفيضان، تسبق دائما بناء الأحياء الجديدة أو التوسع فى القديم منها، لذا فقد كان إنشاء إسماعيل لترعة الإسماعيلية، سببا فى ظهور وعمران حيين جديدين هما: الإسماعيلية والفجالة.

ولم تكن هذه الترعة، إلا جزءاً من برنامج أوسع، لإقامة المرافق والمنشآت العامة، إضطلع به إسماعيل، ومضى فى تنفيذه دون عوائق.

وصاحب حفر ترعة الإسماعيلية، عدة مشروعات هندسية لتدعيم الجسور المقامة على النهر[1]، وحماية شواطئه من طغيان مياهه، وأشرف على تلك المشروعات المهندس الفرنسى «بروكار Brocard» وما أن حل عام ١٨٦٦، حتى افتتحت قناة الإسماعيلية للملاحة، وتم تدعيم شاطئ النهر شمال بولاق، فى روض الفرج والساحل، كما أصبحت جزيرة بولاق والتى عرفت فيما بعد بالزمالك، بمأمن من مياه الفيضان.

وثمة تغييرات هامة طرأت على بعض المواقع، حيث تم ردم قناة المغربى، التى أضحت مجرد ترعة ثانوية للخليج المصرى، أما الترعة التى أمر بحفرها محمد على، لصرف مياه الفيضان من حول الأزبكية، فقد جفت بعد جفاف منبعها، إذ ردمت بركة الأزبكية فى عام ١٨٦٤، وحل طريق قنطرة الدكة، محل الترعة التى عرفت بهذا الإسم، وتم تخطيط حديقة الأزبكية، وأصبحت المنطقة التى تحوطها، جاهزة لأن تمتد إليها يد التعمير..

واكب تلك المشروعات العامة، محاولات لتزويد القاهرة بمياه الشرب والغاز ومجار للصرف الصحى، حيث أصبحت تلك المرافق ضرورة قصوى للمدينة الحديثة، وفى ١٥ فبراير عام ١٨٦٥، منحت الحكومة المصرية، للشركة التى يملكها مسيو شارل ليبون[2]. والتى كانت تضطلع بتزويد مدينة الاسكندرية بالغاز، امتيازاً لتزويد القاهرة ومصر القديمة وبولاق بالغاز كذلك، ومُنحت للشركة قطعة أرض فى بولاق، لتقيم عليها محطتها، وفى إبريل من عام ١٨٦٧، احتفلت الحكومة بافتتاح هذا المرفق الهام، احتفالاً رمزياً، بإضاءة محطة القطار بباب الحديد، وتدريجياً إمتدت شبكة الغاز إلى الأزبكية والمناطق المجاورة لها وحى الإسماعيلية الجديد، والشوارع الرئيسية، وقصور

١ - إسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية : جاك تاجر، ص ١٨٠ - ١٨١.
٢ - المصدر السابق : ص ١٨٧ - ١٨٩.

الخديو.. ثم إمتدت لتشمل الأحياء القديمة من العاصمة.

وكانت الحكومة قد منحت فى مايو عام ١٨٦٥، امتيازاً للشركة التى يملكها مسيو كوردييه، لتزويد القاهرة وضواحيها بالمياه، وهو الذى أشرف على مد أربعين مدينة فرنسية بالمياه، كما نال امتيازاً مماثلا بالاسكندرية.. وتأسست شركة مساهمة لتمويل المشروع، غير أن هذا المشروع صادفته عقبات مالية وهندسية، إنتهت بإعفاء كوردييه من مهمته، مما أدى إلى تأخر الإنتهاء من تنفيذ هذا المشروع إلى عام ١٨٧٤[1].

وهكذا أخذت القاهرة أهبتها للدخول فى عصر جديد من العمران الحضرى - City Building ؛ وفى ربيع عام ١٨٦٧، أقيم معرض باريس الدولى، الذى كان فكرة البارون هاوسمان Haussmann وذروة سجل أعماله الخالدة، حيث كان يشغل آنذاك منصب محافظ السين - Préfet de la Seine ولأكثر من خمسة عشر عاما، إستطاع خلالها أن يعيد تخطيط جزيرة المدينة - Ile de la Cité الواقعة فى قلب باريس، والمناطق المحيطة بها، وعمد إلى إضافة مساحات من الحدائق المنسقة وسط أبنيتها، وإنشاء وتمهيد طرق متسعة بها، فى أسلوب صار يعرف باسمه، كما قام بتزويدها بالمرافق العامة، وقنوات رائعة تباهت بها باريس، استخدمت فى نقل الزوار إلى ساحة المعرض، وأعيد تخطيط منطقة Champ de Mars التى أقيم بها، وكان أثر هذا المعرض قوياً فى إستحداث اسلوب جديد لتخطيط المدن الأوربية فى نهاية القرن التاسع عشر، أصبح طرازاً إحتذته كثيراً من الدول لسنوات طوال، مثلما كان الحال مع سوق شيكاغو الدولى لعام ١٨٩٣، الذى أعاد الأسلوب الكلاسيكى إلى سابق مجده، ليحدد الطراز الذى استلهمته حركة City Beautiful التى سادت تخطيط المدن الأمريكية أمداً طويلاً.

وأرجع أن إستجابة الخديو إسماعيل لدعوة الإمبراطور نابليون الثالث، للإشتراك فى معرض باريس، كان دافعها رغبته فى توطيد مكانة مصر بين دول العالم، وتعزيز مكانته الشخصيته كصنو لملوك أوربا، وقد ضم الجناح المصرى نموذجاً لمعبد فيله، وسوقا شرقية وفندقيا على الطراز العربى وغير ذلك مما يمثل طابع الحياة فى مصر، ونال اهتماماً وتقديراً هائلاً، إستحق القرض الذى إستدانه إسماعيل من أجل تغطية نفقاته.

(1) Douin : op. cit. Vol 1, P. 265

سافر الخديو إلى باريس، فى يونيو عام ١٨٦٧[1]، فى صحبة حاشية ضخمة، وفى اليوم التالى لوصوله، أفتتح الجناح المصرى، وكان فى استقباله هاوسمان، وفى ظهيره ذلك اليوم زار غابة بولوينا، والتقى بمهندس الحدائق: بارية دى شان الذى قام بتصميم وتنفيذ غابة بولوينا وحدائق «شان دو مارس».. وربما فكر الخديو - خلال هذا اللقاء - فى أن يحيل منطقة الأزبكية إلى حدائق منسقة على هذا الطراز، يؤكد هذا الرأى، إستعانته بهذا المهندس فى تنفيذ خططه لتجميل القاهرة[2].

وتعددت لقاءات هاوسمان بالخديو، خلال تلك الزيارة، وأعدت له - جولات باذخة - للطواف بأنحاء باريس وزيارة معالمها، وسجلت الصحف الفرنسية، مدى انبهار إسماعيل بالتخطيط الجديد لمدينة باريس، ولنا أن نستقرىء من أحداث تلك الزيارة، ما حفز الخديو لتطوير القاهرة على هذا النحو الذى إنبهر به.

عاد إسماعيل إلى مصر، بعد توقف قصير فى استانبول، حصل خلاله من الباب العالى، على الفرمان الذى يقضى برفع لقبه من الباشا إلى خديو، وهو ما كان ينشده منذ أمد بعيد، وعاد إلى عاصمة ملكه، يتأمل حالتها المذرية، وراح ينقب بين أبنيتها المتداعية، عن شئ يمكن أن تباهى به باريس أو حتى لندن التى زارها بعد رحيله من باريس.. ولعله سائل نفسه: عما إذا كانت لديه الجرأة لأن يدعو ملوك أوربا إلى مدينة كهذه، تسئ بفقرها إلى حاكمها، وهو الذى عقد العزم على أن يقيم احتفالاً أسطوريًا يخلد به ذكرى افتتاح قناة السويس.

لم يكن لدى إسماعيل متسع من الوقت، لإحداث تغييرات جذرية تشمل القاهرة الشرقية، وأدرك أن ذلك سيظل بمنأى عن للقاهرة القديمة لتصبح بمثابة واجهة لها على أن تقتصر جولات المدعوين على مدينة الفتية الجديدة قدراته، مهما بذل من جهود، ففكر فى استحداث مدينة جديدة على الحافة الغربية، التى تضارع مدنهم ذاتها، وكانت سرعة التنفيذ مطلباً ضروريًا لنجاح خطته، إذا أراد لها أن تكتمل قبل الموعد المقرر لافتتاح قناة السويس، الذى حدده «ديلسبس De Lesseps » فى نهاية عام ١٩٦٨، غير أن تأخر إنتهاء العمل بالقناة عن موعده، قد منح لإسماعيل الفرصة بإستكمال خططه، على النحو الذى يطمح إليه، وتأجل الافتتاح إلى نوفمبر عام ١٨٦٩.

---

(1) Douin : op. cit. Vol 1, p.266

(2) Chapman : The life and Times of Baron Hauss Mann, P. 201

بعد عودته من باريس، بنحو شهرين، أجرى إسماعيل تعديلاً وزارياً، تولى بمقتضاه «على باشا مبارك» نظارة الأشغال العمومية، مكلفاً بمهمة ذات شقين، الأول: الإشراف على تخطيط حى الإسماعيلية، وإعادة تعمير المناطق المحيطة بالأزبكية، والثانى : إعداد برنامج شامل لتخطيط وتطوير القاهرة الحديثة، طبقا لطراز مدينة باريس.

وما أن حل عام ١٨٦٩، حتى كانت الخطط الخاصة بإنشاء أحياء جديدة، قد أحرزت تقدما ملموساً حيث تم شق طرق جديدة واسعة مرصوفة، وتقسيم أراضى حى الإسماعيلية الجديد.. والذى بلغت مساحته نحو ميل مربع، وقدم الخديو الأراضى المملوكة له للأمراء والأثرياء - دون مقابل - شريطة بناء فيلات فاخرة محاطة بالحدائق[1].. غير أن العمران الحقيقى للمنطقة، لم يتم إلا على مدى سنوات طوال وبشكل تدريجى، وظل الزائرون لتلك المنطقة، يشعرون أنهم بإزاء مساحات من الأراضى المقسمة والمعدة للبناء، وليست حى من الأحياء العظيمة.

أما بالنسبة للخطط التى أعدت لتطوير أحياء القاهرة القديمة، فلم يقيض لها أن تنفذ تنفيذاً كاملا، وظلت لسنوات عديدة قبل تمتد إليها أنامل التطوير..

أقيمت الاحتفالات الأسطورية التى خلدت افتتاح قناة السويس فى ١٧ نوفمبر عام ١٨٦٩، فكانت الفترة من أكتوبر حتى ديسمبر، ذروة عصر إسماعيل تألقاً، وفيها كانت القاهرة قبلة للأوربيين، ليس الملوك والأمراء فحسب، بل والرحالة والأدباء (مثل تيوفيل جوتييه) والكثير من علماء الآثار والصحافيين والشعراء والفنانين لمشاهدة تلك الاحتفالات، كما شهد عهد إسماعيل عدد من الأدباء وعلماء الآثار، منهم : جيرار دى نرڤال، فلوبير، ماكسيم دوكا، بيرشير، ماريللا والمصور جيروم وغيرهم..

طاف ضيوف الخديو بشوارع القاهرة وحدائقها وآثارها، وأرهقوا الأهرام صعوداً وهبوطاً، واستمتعوا بكل ما شاهدوه... ومن يطالع خواطر وانطباعات هؤلاء الزائرين، التى دونوها فى مذكراتهم، يدرك على الفور بأنهم كانوا فى واد، بينما الخديو وتطلعاته فى واد آخر، إذ كان حريصاً كل الحرص على أن يضفى على نفسه وعلى دولته، الطابع الأوربى، بينما كان الأوربيون يحرصون على مشاهدة كل ما هو عجيب وغريب، ونظراتهم تستطلع عالم «ألف ليلة وليلة»!. ٠

(1) Clerget : Le Caire: I; P 198

ولنتأمل معاً إنطباع اندرسون عن القاهرة الذى سجله فى كتابه «المسألة الشرقية» فيقول: «كانت القاهرة القديمة - طوال ستة قرون - يتقاسمها المماليك مع عامة المصريين، يتخالطون فى شوارع المدينة دون حواجز، وقد يستند كوخ إلى جوار قصر، كما يتحاذى الشحاذ والأمير فى صفوف الصلاة بالمساجد، أما اليوم فقد تغير الأمر، وأصبحت هناك قاهرتان : قاهرة مصرية وأخرى أوربية لا يربط بينهما شئ، وبينما الرمال وألوان الصحراء تغشى القاهرة القديمة والإهمال يسربلها بهموم جديدة، كانت القاهرة الأوربية تنفسح لأبنية وشوارع جديدة أنيقة، مثل شارع محمد على الذى يربط القلعة بالأزبكية، ضحت الحكومة فى سبيل استقامتها، بهدم الكثير من المساجد والقصور ذات القيمة التاريخية الرفيعة».

ويقول على مبارك أن إنشاء شارع محمد على - البالغ طوله نحو الميلين - إقتضى هدم نحو ٤٠٠ دار كبيرة و ٣٠٠ منزل صغير، فضلا عن المطاحن والمخابز والحمامات، بل وصل الأمر إلى هدم عدد غير قليل من المساجد. ويزعم «رونية - Rhoné » فى وصفه الساخر لهذا الشارع: أن تحديد مساره قد تم وفقاً للهوى وليس للدراسة المتأنية![1].

غير أن ما إستلزمه إنشاؤه من تضحيات جسيمة بمساجد وآثار جليلة، كانت من الفداحة، بحيث أن كثير من العلماء والكتاب تمنوا لو أن القائمين على تنفيذ هذا المشروع، قد تنازلوا عن أمر إستقامته، لتلافى تلك الخسارة الجسيمة.. غير أن الحكومة سارعت - فور الإنتهاء من وضع التصميمات النهائية عام ١٨٧٣ - إلى إنتزاع مساحات من الأراضى اللازمة لإتمام المشروع، وبدأ العمل فى هذا الشارع، الذى يفوق فى إتساعه شارع «السكة الجديدة» وتميز عنه بوجود أرصفة متسعة على جانبيه، تظللها الأشجار ،مجموعة من البواكى، كما أضئ بطول إمتداده بالمصابيح الغازية، وكان سرور الخديو به عظيماً، إلى حد أن أمر بتنظيفه مرات ثلاث يومياً، للحفاظ على رونقه وبهاءه، وليتحقق أخيراً حلم محمد على!

وما لبثت أن خبت تلك الجذوة المتقدة، فكان من الطبيعى أن يستتبع تلك الجهود الجبارة، فترة إسترخاء والتقاط للأنفاس، وحُفظت الخطة التى أعدت لتطوير القاهرة تطويراً شاملاً، غير أن - بارية دوشان - إستمر فى أداء عمله، ومضى فى

(1) Rhoné : L' Egypte à petites Journées, p.23.

غرس الأشجار وتجميل الحدائق، وتنفيذ أعظم مشروعاته - بساتين الأورمان بالجيزة والجزيرة على الضفة الغربية للنيل - وبلغت مساحتها الاجمالية ٤٦٥ فداناً - غرست بها الأشجار النادرة المستوردة من أوربا والهند والصين والمناطق الإستوائية، بعد أن تم تغطية الأراضى بطمى النيل بإرتفاع مترين، وكان الخديو قد أمر بمد خط سكة حديدية خاصة، لضمان سرعة إنجاز هذا المشروع، فكان من أجمل المتنزهات، بأشجارها وأحراشها وأزهارها وبحيراتها وتلالها ونافوراتها وجبلاياتها وأنوارها الغازية، لتضارع فى بهجتها حدائق الأزبكية، وجزء من بساتين الأورمان، أنشئ عليه فيما بعد حديقة الحيوان بالجيزة.

وفى عام ١٨٧٥، إستأنف إسماعيل خططه الطموحة، التى أعدت فى السنوات السابقة لتطوير القاهرة، حيث افتتح شارع كلوت بك ، وقسمت منطقة الفجالة، بدءاً من ترعة الإسماعيلية إلى سور القاهرة عرضاً، ومن جامع أولاد عنان إلى بوابة الحسينية طولاً، لتصبح حياً عامراً بالدور والقصور الفاخرة والمتنزهات.

كانت طموحات إسماعيل فى إنشاء مدينة حديثة على الطراز الأوربى، بكل مظاهر تلك الحضارة ومحاولات تحديث وتطوير القاهرة القديمة، وتعميم المرافق، وتشييد القصور الفخمة، وإنشاء الحدائق والبساتين، وإقامة الحفلات الصاخبة، فضلاً عن ضخامة الجزية التى كانت تنتزعها إستانبول، ثمناً لكل امتياز حديد، من امتيازات الحكم الذاتى التى منحتها له، ومشروع حفر قناة السويس... كل ذلك كان له آثاره المباشرة، فى رفع مصروفات الحكومة المصرية إلى مستوى غير معهود، بالإضافة إلى بعض الاستصلاحات التى إستحدثها مثل : رد الكثير من الارضى الدولة إلى الملاك الأفراد وفشل نظام الاحتكار ومحاربة تجارة الرقيق، قد أسهمت فى إنخفاض موارد البلاد، ومن ثم إتسعت الفجوة بين النفقات المتضخمة للحكومة ومواردها، مما ألجأ الخديو إلى الإستدانة من بيوت المال الأوربية، الأمر الذى أدى إلى رهن نصيب مصر من أسهم وأرباح قناة السويس..

وتصاعدت الأزمة المالية عام ١٨٧٥، وتفاقمت أحداثها، إلى أن سارع «ديزرائيلى» رئيس وزراء بريطانيا آنذاك، دون أنتظار لموافقة مجلس الوزراء، لشراء كل أسهم مصر فى قناة السويس، مقابل أربعة ملايين جنيه فحسب، دفعها له «روتشليد» أحد ذئاب الرأسمالية اليهودية العالمية، ليحقق دزرائيلى أعجب «صفقة» مالية فى التاريخ.

كانت سببًا فى تدخل إنجلترا المباشر لإدارة الشئون المالية لمصر[1].. حتى إنتهى الأمر فى عام ١٨٨٢، باحتلالها العسكرى للبلاد.

فى عام ١٨٧٨، تحول الخديو إسماعيل إلى «ملك دستورى» بمقتضى نظام - الرقابة الثنائية - الذى فرضته بريطانيا وفرنسا، للإشراف على الموارد والإنفاق، ثم تحولت السلطة الحقيقية إلى مجلس النظار الذى ضم ناظرًا بريطانيا للمالية، واخر فرنسيًا للأشغال العامة، وذلك بعد أن ألغى نظام الرقابة الثنائية.. وفى يونيو عام ١٨٧٩، أعلن السلطان التركى - تحت ضغط من بريطانيا وفرنسا - عزل إسماعيل عن عرش مصر..!

وهوى نجم الخديو إسماعيل، بعد أن منح القاهرة وجهًا جديدًا متألقًا، فى السنوات الإثنى عشر الأولى من حكمه، ولكنه فقد عرشه فى السنة السادسة عشرة!

وقبل أن أختم هذا الفصل، أود أن أوجز أهم معالم القاهرة الحديثة، التى أرسى قواعدها الخديو إسماعيل، ففى عصره الزاهر، فتحت أهم شوارع القاهرة: محمد على (القلعة حاليا)، الفجالة، كلوت بك، عابدين، عبد العزيز، المنشية، الأهرام، قصر النيل، عماد الدين، المغربي (عدلى يكن) حاليا، المناخ (عبد الخالق ثروت حاليًا)، المدابغ (شريف حاليًا)، بولاق (شارع فؤاد الأول ثم ٢٦ يوليو) الشيخ حمزة (هدى شعراوى حاليا)، وتأسيس أحياء الإسماعيلية والفجالة.. وتنظيم منطقة الأزبكية وإنشاء دار الأوبرا الخديوية، وحديقة الأزبكية، وحدائق الأورمان والحيوان والجزيرة، ومتنزهات شبرا، التى أصبحت مقرًا لكثير من أفراد الأسرة الخديوية وكبار رجال الدولة، وفيها قصر زينب هانم بنت محمد على، وقصر النزهة الذى كان يقصده إسماعيل للراحة، وقصر اينجوا هانم حرم سعيد باشا، وقصر شيكولانى الرائع الحافل بالتماثيل والتحف النادرة، وغيرها من القصور والدور الفاخرة التى تحيط بها الحدائق...

وأنشأ قصر الجزيرة (فيما بعد فندق عمر الخيام ثم ماريوت حاليًا) الذى فاق فى روعته وإبداعه كل وصف، ثم قصر الجيزة، قصر عابدين (الذى انتقل إليه مركز السلطة السياسية من مقرها بالقلعة، مرورا بقصر عباس باشا) وقصر الإسماعيلية، قصر بولاق الدكرور، قصر الزعفران بالعباسية...

كما أنشأ كوبرى قصر النيل القديم عام ١٨٧٢ (كوبرى قصر النيل الحالى ثم

(1) Hallberg : The Suez Canal, p.p. 253 - 256

إنجازه فى عهد فؤاد الأول عام ١٩٣٣) ثم كوبرى الإنجليز (الجلاء حاليا) عام ١٨٧٧.

وقام بتجديد أسوار قلعة صلاح الدين - لأول مرة منذ الاحتلال العثمانى - كذلك تجديد وتوسيع مسجد الحسين، وأسس الجمعية الجغرافية الخديوية عام ١٨٧٥، ودار الرصد بالعباسية، وكان قد أصدر أمرًا بإنشاء دار الآثار العربية عام ١٨٦٩، لكن هذا المشروع لم يتم تنفيذه إلا عام ١٩٠٣.

وأعاد تخطيط ميدان الرميلة (القلعة) وغرس به الأشجار، وصار من أكبر ميادين القاهرة.

وهو أول من أقام التماثيل فى ميادين القاهرة، فأقام تمثالا لوالده الفاتح إبراهيم باشا، وتمثالين آخرين لسليمان باشا (الكولونيل سيف) ولاظ أوغلى بك..

وحتى يمكننا الوقوف على التعديلات الضخمة التى طرأت على القاهرة - فى ذلك العصر - وكثير من هذه الأحياء والمعالم والشوارع، مازال يشكل وجه القاهرة الحديثة فى يومنا هذا، علينا أن نرجع إلى خريطة القاهرة فى عام ١٩٦٨ التى نشرها «مارسيل كليرچيه - M.Cler get » فى كتابه عن القاهرة، ثم خريطة «جران بك - Grand Bey » التى وضعها فى عام ١٨٧٤ بأمر من الخديو إسماعيل. وهذه الخريطة إعتمدت بالأساس على خريطة «وصف مصر» وسجل بها التعديلات الهائلة التى طرأت على القاهرة، منذ بداية القرن التاسع عشر حتى عصر إسماعيل، وخريطة جران بك هى التى إعتمدها «هرتس باشا - Herz pacha » مدير لجنة حفظ الآثار العربية، فى وضعه لخريطة الآثار الإسلامية بالقاهرة عام ١٩١٤.

عصر توفيق :

ورث الخديو محمد توفيق عرش أبيه الأجوف، وديونًا بلغت نحو مائة مليون جنيه، كما ورث حكم بلد يحمل «جنين الثورة» التى رفع لواءها الأميرالاى أحمد عرابى، التى بدأت عام ١٨٧٩ على إثر تمرد عسكرى أمام قصر عابدين، ثم إنتهى الأمر فى ١٣ سبتمبر عام ١٨٨٢ بهزيمة عرابى فى التل الكبير، على يد القوات البريطانية بقيادة الجنرال « ولسلى Wolseley ».. وبعد أيام قلائل دخلت القوات بريطانية القاهرة.

لم يشهد العقد الأول من الإحتلال البريطانى، تغيرًا هاما فى تطور مدينة القاهرة، وكان هذا الجمود راجعًا إلى إنتقال السلطة الفعلية إلى مجموعة أجنبية - ربما رأت أن مسئوليتها لا تعدو أن تكون أمرًا موقتًا - ففى تلك الفترة بالتحديد، كانت الوثائق البريطانية تشير دومًا إلى «الطبيعة المؤقتة» للإحتلال على الأوضاع القائمة وليس تطويرًا لها، وبالطبع كان لتدهور الأوضاع المالية دورًا رئيسيا فى تجميد خطط القاهرة، حتى أننا يمكن أن نصف أحداث السنوات ما بين ١٨٨٣و ١٨٨٨ بأنها كانت «سباق ضد الإفلاس»[(١)].

كان الوضع السياسى فريدًا من نوعه : فمن الناحية الرسمية، ظلت مصر جزءًا

(1) Hallberg : The Suez Canal, pp. 230 - 237 .

من الإمبراطورية العثمانية، خاضعة لسلطان «الباب العالى» وعلى عرشها جلس الخديو توفيق، إبن إسماعيل الذى كان يحيا فى المنفى، غير أن واقع الأمر كان شيئاً آخر، فقد كان صاحب القرار هو القنصل العام البريطانى (١٨٨٣ - ١٩٠٧) اللورد كرومر، وأحياناً كان يخضع لضغوط قوى أوربية أخرى وصلت إلى خمس عشرة دولة[١]، ولم تكن المحاولات التى بذلت لتشكيل ما يسمى بالحكومة الوطنية، أو محاولات معالجة المثالب الخاصة بالامتيازات الأجنبية، بقادرة علي أن تغير من «لا معقولية» هذا النظام القائم!.

فى السنوات الأولى للإحتلال، كانت السلطات البريطانية تحاول التعرف على أبعاد الموقف، فاتجهت أولا إلى تطوير النظم الزراعية[٢]، وتركزت جهودها فى مشروع إعادة تشغيل القناطر الخيرية، التى بدأ إنشاؤها فى عهد محمد على، ولكنها لم تكتمل إلا فى عهد إسماعيل، ولكن إنهارت الآمال التى عقدت عليها، بظهور أخطاء فى التصميم أدت إلى حدوث شروخ فى أساساتها[٣]، عندما استخدمت بطاقتها القصوى فى عامى ١٨٦٣ و ١٨٦٧، فظل بناؤها جاثما عند النقطة التى يتفرع فيها النيل إلى فرعين «ساخرة» بآمال تغيير نظام الرى فى الدلتا إلى الرى الدائم، فأهمل شأنها - من جديد - حتى تولى السير «سكوت مونكريف - Scott Moncrieff » نظارة الأشغال العامة، فاضطلع بمهمة إعادة بناؤها، حتى تم الإنتهاء منها فى عام ١٨٩١، ومن ثم تحولت الدلتا إلى نظام الرى الدائم.

وقد ساهمت القناطر الخيرية فى مشروعات زيادة الإنتاجية الزراعية، وزيادة مساحة الأراضى الصالحة للزراعة، بالإضافة إلى تطبيق بعض إجراءات الوقاية من الأمراض والأوبئة، مما كان سببًا فى زيادة عدد السكان بمصر، فى الفترة ما بين عامى ١٨٨٢ و ١٨٩٧، حيث إزداد العدد من ٦,٨ مليون نسمة إلى أكثر من ٩ ملايين نسمة.

وكان للقاهرة نصيبها أيضا فى الزيادة السكانية، فبعد أن كان عدد سكانها نحو ١٨٠ ألف نسمة، فى عام ١٨٨٢، إرتفع هذا العدد إلى ما يقرب من ٦٠٠ ألف

(1) Milner : EngLand in Egypt, pp. 232 - 233
(2) Milner : op. cit. p. 238

(٣) راجع : أمين سامى، ملحق «تقويم النيل» ص ٨٣ - ٨٧

نسمة بنهاية القرن التاسع عشر، دون إغفال زيادة معدلات الهجرة الوافدة إليها من أقاليم مصر(١).

كما أسهمت الامتيازات الأجنبية التى وفرت الحصانة للأجانب الوافدين، فى زيادة معدلات هجراتهم إلى القاهرة، بما أتاحته لهم من فرص للإستغلال وتجميع للثروات، وكون المستثمرون والمغامرات جاليات توطنت القاهرة، كان أشهرها الجالية اليونانية والجالية الإيطالية وآخرين من فرنسا وسويسرا والسويد وإنجلترا، كما تزايدت أعداد الجاليات الصغيرة من الأرمن والمسيحيين الشوام، وتركز نشاط هؤلاء جميعاً فى مجال التجارة والصناعات الصغيرة(٢)..

وتحت وطأة هذا النمو السكانى المتزايد، كان من الطبيعى أن يتسع عمران القاهرة فى هذا العهد، وإن تركز هذا التوسع فى المناطق التى أدمجها إسماعيل فى إطار مشروعاته لتطوير القاهرة، والتى ظلت شبه خالية نظراً لقلة عدد السكان، وشهدت المنطقة الواقعة غرب حدائق الأزبكية، حركة عمرانية نشطة، حيث تزاحمت وتلاصقت فيها المبان التجارية والمؤسسات المالية والاستشارية، لتتكامل مع العمارات السكنية والفيلات والحدائق التى أقيمت فى العقود السابقة، وامتدت المنطقة التجارية من حى الموسكى - شرق الأزبكية - حتى ميدان الأوبرا فى حدها الغربى، وسرعان ما تمكن التجار اليهود واليونانيين والأرمن، من بسط سيطرتهم على مركز التجارة الأوربية بالموسكى.

وإلى الجنوب كان حى الإسماعيلية مازال مجرد تقسيمات مفتوحة، تتخللها بعض القصور والفيلات والحدائق، وتناثرت فى أرجائه بعض الحقول التى تقلصت بالتدريج إلى أن تلاشت، وبدأت أنماط معمارية تتكاثف فى القسم الشمالى من هذا الحى، خاصة حول المراكز التجارية بميدان الأوبرا وبإمتداد شارع بولاق، وفى الشريط الواقع شرق قصر العينى - جنوب باب اللوق - وهذه المنطقة بالتحديد كانت حدائق وبساتين أنشأها إبراهيم باشا، وفى عهد إسماعيل أنشئ بها مقر وزارة الأشغال العامة، ثم أنشئ بها عدة مقار لوزارات أخرى، لتكون نواة لمنطقة المنشآت الحكومية الحالية،

(1) J. Abu - Lughod : Cairo, 1001 years of the City Victorious, p.115, Princeton, New Jersey, 1971.
(2) J. Abu- Lughod : Op. cit, P. 115.

المعروفة بإسم الإنشاء والدواوين، وإلى الغرب من هذه المنطقة أقيمت عدة دور على الطراز «الفيكتورى» لسكنى المستشارين الإنجليز، بينما أقيمت عمارات سكنية - إلى الشرق منه - لكبار الموظفين المصريين.

وتحول شارع درب الجماميز بحى السيدة زينب، إلى منطقة تزينها العمارات الأنيقة، كذلك استكمل حى الحلمية، الذى أنشئ على موقع بركة الفيل بعد ردمها، وظلت العائلة الخديوية تمتلك القصور والبساتين فى المنطقة التى تمتد بطول الطريق من ثكنات قصر النيل حتى قصر العينى..

وإلى الشمال من المدينة، إنتشرت التجمعات السكانية، بإنتشار حركة التعمير، لاسيما في منطقة روض الفرج، والتى شهدت فيما بعد رواجاً تجارياً، وكانت تلك المنطقة صمام أمان للحى القبطى، الذى شكل منطقة جذب لأثرياء التجار المسيحيين مع مجموعة من المهاجرين الأوربيين، وحتى عام ١٨٨٠، ظل هناك جيب كبير من الأراضى المعدة للبناء - داخل نطاق المدينة - عبارة عن مثلث يحده جنوبا شارع بولاق، وشرقا شارع نوبار، وفى الشمال الغربى ترعة الإسماعيلية، وهذه المنطقة كانت أسفل مجرى النيل، قبل أن يغير إندفاع الفيضان مساره إلى جهة الغرب، وظلت أرضاً منخفضة تتجمع بها المستنقعات ومياه الرشح... إلى أن أمر الخديو توفيق بتصريف مياه تلك المستنقعات وتسويتها وردم الترع الفرعية التى كانت تتخلل تلك المنطقة، التى زحفت إليها حركة العمران، إلى أن تكاثفت ليظهر إلى الوجود، الحى الذى نعرفه الآن «حى التوفيقية»، والذى يمثل جزءاً هاماً من المنطقة المركزية الحالية أو ما يمكن أن نسميه «قلب القاهرة الأوربى»..

وهكذا كان تطور مدينة القاهرة ونموها حتى عام ١٨٩٦، فى إطار الخطط التى أعدت فى عصر إسماعيل، ليكتمل إنقسامها إلى مجتمعين متمايزين، والقرن التاسع عشر موشك على الأفول. وتحت ضغط النمو السكانى والثورة فى مجال النقل والمواصلات، إمتدت حركة العمران لتشمل كثيراً من ضواحى القاهرة وظواهرها.

ضواحى القاهرة الحديثة

مصر الجديدة :

يعد إنشاء هذه الضاحية من أهم المشروعات العمرانية التى أنجزت فى أوائل القرن العشرين، وهي تقع على ربوة ترتفع عن مستوى النيل، بالقرب من أطلال مدينة عين شمس القديمة، وقد سميت باسمها اليوناني القديم «هليوبولس - Helio- polis » وكان المليونير البلجيكى البارون «إدوارد إمبان» قد أسس شركة لتعمير هذه الضاحية، عام ١٩٠٥، ونجح فى مفاوضاته مع الحكومة المصرية من أجل شراء ستة آلاف فدان من أراضى الصحراء بشمال القاهرة، بواقع جنيه للفدان الواحد!

ثم تزايدت المساحة فيما بعد إلى أثنى عشر ألف فدان، وبدأ العمل فيها عام ١٩٠٦، بإنشاء خط للترام، يبلغ طوله خمسة أميال ينتهى بالقرب من محطة السكك الحديدية الرئيسية بباب الحديد، كما شرعت شركة مصر الجديدة فى تشييد مجموعة أبنية جميلة على الطراز العربى المميز بالبواكى المحمولة على أعمدة من الجرانيت الفاخرة وضع تصميمها المهندس البلجيكى «جاسبارد - Gaspard » بالإضافة إلى فندق هليوبوليس، وشوارع متسعة أنيقة تظللها الأشجار وتتخللها الحدائق.

المعادى :

تقع ضاحية المعادى على بُعد نحو أربعة أميال من جنوب القاهرة، وكانت شركة أراضى الدلتا المصرية قد حصلت على إمتياز تعميرها فى عام ١٩٠٥، على مساحة تقرب من ألف فدان، وعملت على مد الضاحية بمياه الشرب والكهرباء وسائر المرافق، كما قامت الشركة فى عام ١٩٢١ ببناء نادى المعادى، وحمامات للسباحة وملعباً للتنس وأرضا للجولف بالإضافة إلى الحدائق الشاسعة والكثير من الفيللات الفاخرة.. ثم تزايدت بها حركة التعمير والإسكان، وهى إلى اليوم من أجمل ضواحى القاهرة، ومازالت تمثل منطقة جذب للعائلات الأجنبية.

وتجدر الإشارة إلى أن الشريط المحاذى للضفة الشرقية للنيل، الذى يبدأ من جنوب السيدة زينب حتى حلوان والتبين، قد شهد فى السنوات الأخيرة، تجمعات سكانية هائلة، تزايدت كثافتها فى مناطق مار جرجس والملك الصالح والزهراء ودار السلام وحدائق المعادى وطرة والمعصرة وحلوان الحمامات.

حدائق القبة :

تأسست شركة حدائق القبة عام ١٩٠٨، من أجل تعمير مساحة تقدر بمائة وعشرة أفدنة، وهى بالأساس جزء من أراضي المطرية، ويرجع إسمها إلى «القبة» التى شيدها الدوادار يشبك بن مهدى عام ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠، وكانت مقصداً لسلاطين المماليك، بدءاً من السلطان قايتباى حتى السلطان الغورى، فيمضون بها أوقاتاً فى التريض والتنزه، وعرفت فيما بعد بقبة الغورى.

وكان الخديو إسماعيل قد منح إبنه توفيق - تفتيش القبة - الذى بلغت مساحته ٣٨٥١ فدانا، فى مايو عام ١٨٧٢، وأهم معالم المنطقة : قصر القبة الذى شيده إبراهيم باشا، وكان مقراً لتوفيق وأسرته عندما كان ولياً للعهد، وجامع القبة أو جامع الغورى الذى يقع فى الجنوب الغربى لميدان قصر القبة، ومسجد تبر الذى شيدته «شفق نور» والدة الخديو توفيق.

وقد شجعت جهود شركة حدائق القبة، العديد من الأثرياء، للمساهمة فى دفع حركة العمران بهذه الضاحية، حتى إتصلت بضواح منشية الصدر والمطرية والزيتون والحلمية وعين شمس، والتى إرتبطت جميعا بخط السكة الحديدية.

عصر فؤاد الأول :

فى عهد الملك فؤاد، تم إنشاء شارعين كبيرين هما : شارع الأمير فاروق (الجيش حاليًا) يتوسطه خط للترام، ليتصل حى العتبة الخضراء بحى العباسية. ويبلغ عرضه ٣٠ مترا.

والثانى هو شارع الأزهر، الذى ساهم بقدر كبير فى تخفيف الضغط المتزايد على شارع الموسكى. ويبلغ عرضه ٢٦ مترًا، كما تم توسعة شارع الخليج[1] (بور سعيد) ليكون عرضه ٤٠ مترًا، وفى سبيل ذلك هدمت المئات من الدور القديمة الآيلة للسقوط. كذلك تمت توسعة شارع الأهرام إلى ٤٠ مترًا، وتوسطته الأشجار، وعلى جانبيه غرست المزيد من الأشجار والحدائق، كما بدأ عدد من الأثرياء وكبار رجال الدولة، فى إقامة القصور والدور الأنيقة المحاطة بالحدائق، على جانبى هذا الشارع. كما أقيم فى بدايته - من ناحية ميدان الجيزة - نفق تمر عليه خطوط السكك الحديدية.

أما شارع الملكة نازلى (رمسيس حاليا) فقد كان من أجمل شوارع القاهرة، وكان الاهتمام بالغا بنظافته، كما غرست على جانبيه أشجار النخيل، وأصبح إمتداده - شارع الخليفة المأمون. يربط قلب القاهرة الحديثة بضاحية مصر الجديدة.

وعلى الضفة الغربية للنيل، شهدت المنطقة من حى العجوزة - حيث أقيم مستشفى الجمعية الخيرية الإسلامية - حتى ميدان الجيزة، حركة عمران واسعة، إذ شيدت بها أجمل القصور والفيللات، وبعض المدارس والمنشآت الحكومية، كما إتسعت حديقة الحيوان بما أضيف إليها من أراضى حدائق الأورمان.

---

(١) كان الخليج المصرى بمثابة العمود الفقرى لمدينة القاهرة - فى عصر محمد على - فكان يخترقها من الجنوب إلى الشمال، فيقسمها إلى قسمين، وعند مجرى العيون الحالى، يبدأ خروجه من النيل، ويسير نحو الشمال الشرقى، ثم ينعطف نحو الشرق الجنوبى حتى يصل إلى قناطر السباع (ميدان السيدة زينب الحالى) ثم يعود إلى سيره نحو الشمال الشرقى، ماراً غربى بركة الفيل، ثم غربى درب الجماميز، ثم غربى باب الخرق، ثم يخترق سور القاهرة عند باب الشعرية ويسير خارج القاهرة إلى جامع الظاهر بيبرس، ومن هناك يمضى بين الحقول والمزارع إلى ناحية الزواية الحمراء والأميرية وسرياقوس والخانكاة. (فؤاد فرج : القاهرة ص ٥٠٩ - ٥١٠).
وفى عام ١٨٩٦، تم ردم هذا الخليج وتسوية موقعه، ليسير فى مكانه خط ترام من ميدان السيدة زينب، حتى ميدان الظاهر. ولتتصل القاهرة من صحراء المماليك شرقاً حتى النيل غربًا.

كما إزدهرت حركة البناء فى منطقة شبرا، وامتدت شمالاً حتى كادت تتصل بقليوب، كذلك إنتشرت القصور والبيوتات الفخمة والحدائق، فى أحياء جاردن سيتى والمنيرة والسيدة زينب والروضة، كما شرعت الحكومة فى تخطيط وتقسيم الدقى وبولاق الدكرور..

ويجدر بالذكر أن متاحف القاهرة قد إزداد عددها، وأصبحت القاهرة تضم خمسة عشر متحفاً فى العهد الملكى، هى : المتحف المصرى بميدان الإسماعيلية (التحرير)؛ دار الآثار العربية (المتحف الإسلامى بميدان باب الخلق)؛ المتحف القبطى بمصر القديمة؛ المتحف الجولوجى بشارع السلطان حسين بمصر الجديدة؛ متحف فؤاد الأول الصحى بشارع المدبولى، متحف الحشرات بشارع الملكة نازلى (رمسيس) ومتحف الفن الحديث بشارع الحوياتى، ومتحف القطن بحديقة الجمعية الزراعية، متحف السكة الحديدية بالمحطة الرئيسية بباب الحديد؛ متحف سعد زغلول بيت الأمة؛ المتحف الحربى بشارع الشيخ بركات بقصر النيل؛ متحف فؤاد الأول الزراعى (المتحف الزراعى بالدقى)؛ متحف حديقة الحيوان بالجيزة؛ متحف الأحياء المائية بحديقة الأسماك ثم متحف الشمع التاريخى..

وكان للملك فؤاد عناية بإصلاح وتجديد المساجد الأثرية : جامع أحمد بن طولون، عام ١٩١٨، حيث أزيلت المبانى القديمة التى كانت تحيط بواجهاته الشرقية والغربية والقبلية، وأمام الواجهة البحرية أنشأت حديقة جميلة، كما تم ترميم السبيل الذى ألحق بالجامع فى عهد السلطان لاجين.

كما تم تجديد جامع الصالح طلائع، حيث بدأت أعمال الهدم والترميم والبناء فى عام ١٩١٨ وإنتهت فى عام ١٩٣٢.

وبالنسبة لجامعة الأزهر، فقد أمر فؤاد بإضافة منشآت على أحدى طراز، للمدينة الجامعية والإدارة العامة وقاعات المحاضرات وللمكتبة والمستشفى..

وقام بتجديد مسجد الفتح (عابدين) سنة ١٩٢٠، كما قام بتجديد مسجد الطباخ - الملاصق لثكنات الحرس الملكى - فى بداية ١٩٣٢.

وفى عهده بدأت عملية ترميم وتجديد جامع محمد على بالقلعة، إنتهت فى عهد إبنه فاروق.

وفى عهده أيضاً، أقيم تمثال نهضة مصر بميدان المحطة، قبل أن ينقل إلى مكانه الحالى، وتمثال سعد زغلول بالجزيرة، وتمثال مصطفى كامل فى الميدان الذى يحمل إسمه (ميدان سوارس سابقا).

وأنشأت فى عهده كذلك، أجمل حديقة على نيل القاهرة هى حديقة «الأندلس»، وتمت أيضاً توسعة ميادين السيدة زينب وكوبرى القبة وباب الخلق والعتبة الخضراء والإسماعيلية (التحرير) وميدان المقياس (عبد العزيز آل سعود).

كبارى القاهرة :

من المعروف أن أقدم الكبارى التى أنشئت بمصر، هى التى أقيمت لخدمة خط السكة الحديدية بين القاهرة والاسكندرية، الذى بدأ العمل فيه سنة ١٨٥٤ فى عهد عباس حلمى الأول، بالاتفاق مع «جورج ستيفنسون» مخترع القاطرة البخارية، وتم إفتتاحه رسمياً عام ١٨٥٦ فى عهد سعيد باشا.

فأنشئ كوبرى بنها القديم سنة ١٨٥٦[١]، وكان بخط مفرد للسكة الحديدية، وأعيد إنشائه سنة ١٨٩٤، ثم شرع فى بناء الكوبرى الحالى - بخط مزدوج - فى ٢ يوليو ١٩٣١، وافتتحه الملك فؤاد فى ٢٠ أبريل ١٩٣٣، وكوبرى كفر الزيات أنشئ فى سنة ١٨٥٧، بخط مفرد، وأعيد إنشائه سنة ١٨٩٤ بخط مزدوج، وتمت تقويته سنة ١٩٠٧.

أما كوبرى إمبابة القديم، فقد أنشئ سنة ١٨٩٠[٢]، بخط مفرد أيضا، ويجدر بالذكر أن نهاية خط السكة الحديدية كانت فى إمبابة - قبل إنشاء هذا الكوبرى - وكانت هناك معدية تسكى البخارية لنقل الركاب إلى القاهرة، وأنشئ الكبرى الجديد شمالى الكبرى القديم، عام ١٩٢٥.

(١) أمين سامى : ملحق تقويم النيل - دار الكتب المصرية ١٩٣٦ : ص ١١٤
(٢) المصدر السابق : ص ١٢٠

كوبرى قصر النيل :

افتتح كوبرى قصر النيل القديم فى عهد الخديو إسماعيل، فى ١٠ فبراير عام ١٨٧٢[١]، وكان طوله ٤٠٦ متر وعرضه ١٠ أمتار ونصف متر فقط، منها ثلاثة للإفريزين، وكانت حمولته ستة أطنان. ونصبت على جوانب مدخليه ٤ أسود من البرونز صنعت فى إيطاليا، وبلغ ثمنها وتكاليف شحنها إلى الاسكندرية : ٨٤٢٥ جنيها.

وتم ترميم هذا الكوبرى فى سنة ١٩٢٠، ثم توقف المرور عليه فى أول إبريل عام ١٩٣١، ثم أنشئ الكوبرى الحالى، الذى افتتح رسميا فى ٥ مارس ١٩٣٣، فى عهد فؤاد الأول، وأطلق عليه كوبرى الخديو إسماعيل، ونصبت نفس الأربعة أسود البرونزية على مدخليه، على قواعد أقل إرتفاعا من سابقتها، ويبلغ عرضه ٢٠ متراً منها ٥ أمتار للإفريزين، وطوله ٣٨٢,٢٠ متراً. وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢، أعيد تخطيط ميدان كوبرى قصر النيل، وأنشئ نفق تحت هذا الميدان، ونفق آخر تحت الكوبرى بمحاذاة شارع كورنيش النيل. وأطلق عليه إسم كوبرى التحرير ثم كوبرى جمال عبد الناصر تخليداً لذكراه، غير أن إسم قصر النيل ظل علماً عليه.

كوبرى الجلاء :

أنشئ الكوبرى القديم عام ١٨٧٧، فى عهد الخديو إسماعيل ، وعرف بإسم كوبرى البحر الأعمى وكوبرى الجزيرة، وهو يقابل كوبرى قصر النيل على الفرع الغربى للنيل، وفى عام ١٩١٤، أنشئ الكوبرى الجديد الذى عرف بكوبرى الإنجليز[٢]، ثم إشتهر بكوبرى «بديعة» حيث كان كازينو الفنانة الشهيرة بديعة مصابنى فى الموقع الذى يحتله الآن فندق الشيراتون. ويبلغ طوله ١٤٥ مترا، وعرضه ١٩ مترا منها ٧ أمتار للإفريزين، وبعد الثورة أطلق عليه كوبرى الجلاء.

كوبرى الجيزة :

أنشى الكوبرى القديم فى عهد عباس حلمى الثانى، فى ٦ فبراير ١٩٠٨[٣]، واشتهر بإسم «كوبرى عباس» وكان طوله ٥٣٥ متراً وعرضه ٢٠ مترا منها ٥ أمتار

---

(١) المصدر السابق : ص ١٣٤
(٢) المصدر السابق : ص ١١٦
(٣) أمين سامى : ملحق تقويم النيل، دار الكتب المصرية ١٩٣٦ ص ١٢٧.

للإفريزين وكان به خطان للترام وبعد الثورة أطلق عليه كوبرى الجيزة، وقد تم ترميمه مرات عديدة، إلي أن توقف المرور عليه فى ١ فبراير ١٩٦٧، وشرع فى إنشاء الكوبرى الجديد، غير أن العمل به قد توقف لظروف العدوان الإسرائيلى فى ٥ يونيو ١٩٦٧، فلم يتم إنجازه إلا فى عام ١٩٧١، وقام بإفتتاحه د. محمود فوزى رئيس الوزراء آنذاك.

كوبرى الملك الصالح :

أنشئ الكوبرى القديم فى عام ١٩٠٨ أيضاً[1]، ليقابل كوبرى عباس، وكان طوله ٨٣ متراً وعرضه ١٥ متراً منها ٢ أمتار للإفريزين، ثم أزيل هذا الكوبرى، ليقام فى موقعه كوبرى آخر افتتح للمرور فى ٢٤ يوليو عام ١٩٦٦.

كوبرى محمد على (قصر العينى) :

وموقع هذا الكوبرى على الفرع الشرقى للنيل، فى مواجهة كلية طب ومستشفى قصر العينى، وقد افتتح رسمياً للمرور عام ١٩٠٨ كذلك، وطوله ٦٧ متراً وعرضه ١٥ متراً منها ٣ أمتار للإفريزين.

كوبرى المنيل (سيالة الروضة) :

بالإضافة إلى كوبرى الملك الصالح الجديد، وكوبرى الجيزة الجديد، اللذان أنشأتهما حكومة الثورة، فقد سبق أن أنشأت ثلاثة كبارى بجزيرة الروضة فى الفترة من ١٩٥٥ - ١٩٥٧ : أولها كوبرى المنيل - جنوب كوبرى قصر العينى، بجوار سراى الأمير محمد على توفيق : «فندق منيل بالاس» و «متحف المنيل»، وهو يقابل كوبرى الجامعة على الفرع الغربى للنيل.

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٧

كوبرى فم الخليج :

وموقعه على الفرع الشرقى للنيل - شمال ميدان فم الخليج - وجنوب كوبرى المنيل.

كوبرى الجامعة[1]:

أقيم على الفرع الغربى للنيل، متصلاً بالميدان الذى نقل إليه تمثال نهضة مصر (محمود مختار) من مكانه السابق بميدان باب الحديد، الذى نقل إليه تمثال رمسيس الثانى، ثم سمى الشارع المؤدى إلى جامعة القاهرة بشارع نهضة مصر، بإمتداد كوبرى الجامعة، ويبلغ طول هذا الكوبرى ٤٨٤ متراً وعرضه ٣٠ متراً، وبلغت تكاليفه ١٫٤٠٠٠٠٠ جنيها !.

كوبرى بولاق (أبو العلا)

بدأ العمل فى هذا الكوبرى سنة ١٩٠٨، وفتح رسمياً للمرور سنة ١٩١٢، وتكلف نحو ٣٠٠٠٠٠ جنيه، ويبلغ طوله ٢٧٤٫٥ متراً وعرضه ٢٠ متراً، منها ٦ أمتار للإفريزين، والطريق كان به خطان للترام، ويتكون من ٤ فتحات ثابتة طول كل

---

(١) فى ٢١ ديسمبر عام ١٩٠٨، افتتح الخديو عباس حلمى الثانى فى احتفال رسمى «الجامعة الأهلية» وكان رئيس اللجنة التأسيسية للجامعة، الأمير أحمد فؤاد، وكانت هيئة التدريس مكونة من خمسة أساتذة، منهم مصريان: أحمد كمال بك للحضارة المصرية القديمة، وأحمد زكى بك (شيخ العروبة) استاذاً للحضارة الإسلامية، واتسعت مناهجها بعد ذلك، بل وظلت توفد بعثاتها إلى أوروبا حتى عام ١٩٢٣، وكان أشهر أعضاء هذه البعثات وأول من حصل على درجة الدكتوراة منها هو: د. طه حسين، وقد انضمت فى ذلك العام إلى وزارة المعارف العمومية، بعد دمج مدرستا الطب والحقوق بها. وفى ١١ مارس ١٩٢٥، صدر المرسوم الملكى بإنشاء «الجامعة المصرية» وتكونت من كليات الآداب والعلوم والطب والحقوق، وبعد ذلك الحقت بها كليات الهندسة والزراعة والطب البيطرى والتجارة. وفي ٧ فبراير ١٩٢٨، احتفل بوضع حجر الأساس للجامعة المصرية، بحضور الملك فؤاد، على مساحة ٩٠ فدانا بحدائق الأورمان، بالإضافة إلى ٤٤ فدانا خصصت لكلية الطب ومستشفى فؤاد الأول (قصر العينى) وعرفت الجامعة باسم جامعة فؤاد الأول، وبعد الثورة تغير إسمها إلى جامعة القاهرة.

منها ٥٠ متراً، وفتحة ملاحية فى وسط النهر. وقد أشار أمين باشا سامى فى سفره العظيم «تقويم النيل» إلى أن هذا الكوبرى لا يفتح للملاحة، نظراً لأن «البغال» مشطورة وغير موازية لإتجاه تيار الماء، كما أن منظر الكوبرى بصفة عامة لا يتفق مع وجوده داخل مدينة القاهره : (ملحق تقويم النيل : ص ١٢٨).

وهناك فكرة مشروع بتحويل هذا الكوبرى التاريخى إلى معرض دائم للكتاب - بمحاذاة النهر - يتولى تنفيذه محافظة القاهرة والهيئة المصرية العامة للكتاب.

كوبرى الزمالك :

أنشئ هذا الكوبرى على - البحر الأعمى - على مسافة ١,٥ ك. م من إمبابة، ويبلغ طوله ١٢٥ متراً، وعرضه ١٦,٥ متراً، منها متران وربع المتر لكل من الإفريزين، وكان عليه خطان للترام، ويتكون من فتحتين ثابتتين طول كل منها ٣٠ متراً، وفتحة فى الوسط للملاحة، والجهاز المتحرك يعمل بالكهرباء وباليد، وبلغت تكاليفه ٧٥,٠٠٠ جنيه، وكان بدء العمل فيه سنة ١٩٠٨، وفتح للمرور رسميا مع كوبرى بولاق فى سنة ١٩١٢[١]. وقد أزيل هذا الكوبرى، بعد إنشاء كوبرى١٥ مايو العلوى.

---

(١) العدد السابق : ص ١٢٨

ترام القاهرة :

قبل تسيير خطوط الترام بالقاهرة، كانت وسائل الانتقال هى عربات الحنطور والحمير أو السير على الأقدام. وقد تأسست شركة ترام القاهرة سنة ١٨٩٤، وكان إمتيازها - فى البداية لثمانية خطوط.

وفى ١ أغسطس سنة ١٨٩٦، احتفل بتسيير أول مركبة كهربائية فى شوارع القاهرة، فاستقل ناظر الأشغال العامة، وكبار موظفى النظارة، الترام من بولاق إلى ميدان العتبة، حيث كان فى إنتظارهم جمع من المدعوين، من الأمراء والنظار ومحافظ العاصمة وقناصل الدول وكبار موظفى الدولة وبعض الأعيان.. وكان مدير الشركة يرحب بالمدعوين، ثم سارت بهم المركبات - بين حشد من الجماهير - إلى ميدان محمد على (القلعة)، ثم عادت إلى مقر الشركة ببولاق. حيث قدمت المرطبات إلى المدعوين.

خطوط الترام بالقاهرة من سنة ١٨٩٦ إلى سنة ١٩١٧(١) :

١ - أول أغسطس سنة ١٨٩٦ : خط من العتبة الخضراء، إلى ميدان محمد على (القلعة) ماراً بشارع محمد على (القلعة).

٢ - أول أغسطس سنة ١٨٩٦ : خط من العتبة الخضراء، يمر بشارع بولاق (٢٦ يوليو)، وينتهى بالقرب من ساحل النيل ببولاق. عند موقع كوبرى أبو العلا قبل إنشائه سنة ١٩١٢.

٣ - فى سبتمبر سنة ١٨٩٦ : خط من العتبة الخضراء، يمر بشارع عبد العزيز، إلى باب اللوق، جنوب بركة الناصرية.

٤ - فى سبتمبر أيضاً من نفس العام : خط من العتبة الخضراء، يمر بشارع كلوت بك إلى الفجالة، ثم يتجه شرقاً إلى العباسية.

٥ - فى ديسمبر سنة ١٩٨٦ : خط من العتبة الخضراء. يتجه إلى بولاق، ثم قصر العينى.

---

(1) Clerget : Le Caire : T1, P.P. 107 - 108 Janet Abu Lughod : Cairo, 1001 years of the City Victorious; P.P. 133 - 137

٦ - فى ديسمبر أيضا : خط من العتبة الخضراء. يمر بشارع كلوت بك، إلى ميدان باب الحديد.

٧ - فى ديسمبر كذلك: إمداد خط من قصر العينى إلى مصر القديمة جنوبًا.

٨ - فى يناير ١٨٩٨ : إمداد خط من العباسية إلى ميدان باب الحديد غربًا.

٩ - فى سبتمبر ١٨٩٩، أفتتح جزء من هذا الخط الذى استكمل فى أغسطس ١٩٠٠ : خط من كوبرى قصر النيل - الشاطئ الغربى - إلى الأهرام وفندق مينا هاوس الجديد.

١٠ - يونيو ١٩٠٠ : افتتح خط من ميدان الظاهر، يتجه جنوبًا بطول موقع الخليج المصرى الذى تم ردمه (شارع بور سعيد الآن) إلى ميدان السيدة زينب.

١١ - مايو ١٩٠٢ : خط من كوبرى الليمون - بالقرب من محطة السكك الحديدية الرئيسية - يتجه غربا بطول قناة الإسماعيلية، ثم جنوباً إلى ثكنات قصر النيل وميدان الإسماعيلية (التحرير).

١٢ - مايو ١٩٠٣: أفتتح خط من ميدان باب الحديد، يتجه شمالاً إلى شارع شبرا ثم روض الفرج.

١٣ - أكتوبر ١٩٠٣ : أنشئت حلقة صغيرة (وصلة) تربط العتبة الخضراء والجانب الشرقى لحديقة الأزبكية.

١٤ - يونيو ١٩٠٦ : أفتتح خط من غمرة إلى الظاهر، ثم يتجه شمال شرق إلى العباسية عن طريق شارع عباس (غمرة).

١٥ - فبراير ١٩٠٧ : خط من مدرسة التجارة - جنوب بولاق - يتجه شمالا بطول شارع أبو الفرج إلى روض الفرج.

١٦ - مارس ١٩٠٧ : خط من ميدان باب الحديد إلى حى الصناعات بالسبتية، شمال بولاق.

١٧ - مايو ١٩٠٧ : افتتح خط من شمال شارع شبرا (المظلات) حتى مشارف شبرا الخيمة.

١٨ - مارس ١٩٠٨ : خط يربط الجيزة بمصر القديمة عن طريق كوبرى عباس وكوبرى

الملك الصالح، اللذين افتتحا فى ٦ فبراير من تلك السنة.

١٩ - مايو ١٩٠٨ : خط يربط ميدان السيدة زينب، بمقابر الخليفة.

٢٠ - مارس ١٩١٠ : خط من كوبرى قصر النيل - الساحل الشرقى - إلي ميدان عابدين ثم ميدان عبد العزيز.

٢١ - أغسطس ١٩١٠ خط بطول شارع الفجالة إلى ميدان باب الحديد ثم شمال شرق إلى السكاكينى.

٢٢ - يونيو ١٩١١ : خط يربط ميدان السيدة زينب بالناصرية.

٢٣ - سبتمبر ١٩١١ : خط من ميدان السيدة زينب، إلى السلخانة جنوبا.

٢٤ - يوليو ١٩١٢ : خط من بولاق - عبر كوبرى أبو العلا فور إنشائه - إلى الجزيرة.

٢٥ - أكتوبر ١٩١٢ : خط يصل كوبرى الزمالك - الذى افتتح فى نفس العام - بكوبرى البحر الأعمى أو كوبرى الجزيرة (الجلاء).

٢٦ - فبراير ١٩١٣ : خط فرعى قصير يصل نادى الجزيرة الرياضى بالخط القادم من بولاق، عبر كوبرى أبو العلا، إلى الجزيرة.

٢٧ - مارس ١٩١٣ : أفتتح خط يربط ما بين الجزيرة و(قرية) إمبابة، عبر كوبرى الزمالك.

٢٨ - ديسمبر ١٩١٦ : أفتتح خط من القلعة يتجه جنوبًا إلى جبانة الخليفة، حتى جامع الإمام الشافعى.

٢٩ - سبتمبر ١٩١٧ : خط يصل مصر القديمة جنوبا، بمنطقة أثر النبى حتى عام ١٩٢٢، كانت شركة الترام البلجيكية قد أتمت كثيرًا من خطوطها، وبعد ذلك لم تتمكن من مد خطوط أخرى حتى عام ١٩٣٠ حيث قامت - علي نفقتها الخاصة - بشق شارعين رئيسيين: أحدهما يمتد من العتبة الخضراء إلى الحسينية، والآخر من الحسينية إلى الأزهر، ثم مدت بهما خطين للترام.

وحصلت الحكومة من هذه الشركة على ضريبة مقدارها «٥٪» حتي سنة ١٩٢٣ ثم ارتفعت إلى «٦٪» حتى عام ١٩٣٠، ثم تزايدت النسبة بعد ذلك إلى «٦,٥٪».

أما شركة الترام البلجيكية الثانية فى القاهرة، فكانت شركة سكك حديد مصر الكهربائية وواحات عين شمس، وقد كانت تابعة للشركة البلجيكية الأولى، غير أنها إنفصلت عنها عام ١٩٠٦ وعملت بشكل مستقل، وكان يرأس مجلس إدارتها حتى عام ١٩٥٢ البارون : «إدوارد إمبان».

فى عام ١٩٢٣ بلغ طول خطوط ترام القاهرة «٢١٥، ٦٣» متراً خطوطاً مزدوجة، بالإضافة إلى «٢,١٦٠» متراً مفردة، بينما ترام مصر الجديدة في نفس السنة «٢٦,٢١٢» متراً خطوطاً مزدوجة بالإضافة إلى «٧٥٠» متراً خطوطاً مفردة.. وفى سنة ١٩٥١ زاد طول خطوط ترام القاهرة إلى «٦٨,٤٤٩» متراً خطوطا مزدوجة، بالإضافة إلى «١١,٩٥٤» متراً خطوطاً مفردة، بينما تناقصت خطوط ترام مصر الجديدة المزدوجة إلى «١٩,٨٨٩» مترا وفى نفس الوقت زادت خطوطه المفردة إلى «١,٥١٣» متراً [1].

ومما لاشك فيه أن هذه الشركات البلجيكية قد أفادت القاهرة كثيرا، وكان أثرها فى تزايد حركة العمران بالغاً، فقد ربطت المدينة وأطرافها المختلفة والمناطق العمرانية الجديدية وإمتدادها بشبكات منتظمة من خطوط الترام، وبأجور مناسبة فى متناول سكان القاهرة بمختلف طبقاتهم.

ومع بداية الثمانينات إنتهى بالفعل «العهد الذهبى» لترام القاهرة، فمع تزايد إيقاع حركة الحياة وتزايد ضغط المرور بشوارع القاهرة، كان كل تعديل لتحقيق سيولة المرور، يأتى على حساب إلغاء عدد من خطوط الترام، حتى إختفى تماماً من مناطق بأكملها مثل شارع الأهرام والجيزة والروضة ومصر القديمة وشارع قصر العينى ووسط القاهرة والجزيرة والزمالك وبولاق.. ويكاد يتوارى على إستحياء فيما بين ميدان العتبة والعباسية، وباب اللوق وشبرا.

---

(١) د. نبيل عبد الحميد : النشاط الاقتصادى للاجانب وأثره فى المجتمع المصرى من ١٩٢٢ إلى ١٩٥٢، ص ٣٥٨ - ٣٥٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب : ١٩٨٢.

خاتمة ..

المتعمق فى تاريخ القاهرة، سيدرك أنها كانت دائما تسود الحياة المصرية بصورة طاغية، فتاريخ القاهرة هوتاريخ مصر أو يكاد.. فمن يتصفح مادونه مؤرخى مصر الإسلامية : السيوطى وابن إياس والمقريزى والجبرتى - على سبيل المثال - لا يمكن أن يخطئه هذا الإحساس. وقلب القاهرة دائما هو قلب مصر سياسياً واجتماعياً وحضارياً واقتصادياً. سواء كان فى ساحة الأزهر قديماً أو فى ميدان التحرير حديثاً.

والملاحظ أن فترات الازدهار فى تاريخ المدائن الإسلامية - بصفة عامة - كانت قصيرة.. غير أن بعضها قد عاشت وطاولت الدهر كالبصرة وبغداد والقاهرة وفاس. فالقاهرة التى بناها جوهر الصقلى لتكون «مدينة ملكية» لخلفاء الفاطميين، ظلت كذلك حقاً لا يدخلها الناس إلا بحساب شديد حتى عهد الحاكم بأمر الله، ثم أخذت تضمحل، فضاقت شوارعها وتلفت مرافقها مع تزايد سكانها. وقد قدم لنا العلامة المقريزى فى خططه صوراً من صعوبات الحياة بها. وفى العصر التركى كانت الخرائب فى القاهرة أكثر من المبانى العامرة. وفى نهايات العصر المملوكى، وبينما كان السلاطين يجتهدون في بناء المساجد الكبرى التى هى - مفخرة القاهرة اليوم - كانت بالفعل تعانى سكرات الموت والفقر ولون الصحراء يحط عليها طبقات بعد طبقات. وهى نفس صورتها عند بعض الرحالة مثل «لويس بورخاردت» الذى زار القاهرة فى أوائل عصر محمد على،

وأعطانا عن الحياة فيها صورة قاتمة محزنة.

والقاهرة الحديثة التى بدت معالمها منذ قرن ونصف قرن من الزمان، وازدهرت عمارتها فى عهد إسماعيل، الذى أراد أن يجعل منها «باريس الشرق» قد شهدت طفرة هائلة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ تمثلت فى المظاهر الحضارية التى شملت مناحى الحياة العمرانية والاجتماعية والثقافية، وما تطلبه ذلك من الإكثار من دور العلم والمصانع الحديثة التى إنتشرت فى قلب المدينة وعلى أطرافها البعيدة والقريبة - وأنشئت مدينة نصر عام ١٩٦ على مساحة ٦٠٣٠٠ فدان من الأراضى الصحراوية الممتدة فيما بين العباسية ومصر الجديدة، ومنحت الشركات الإيطالية إمتياز تطوير منطقة جبل المقطم فى مشروع بإسم «مدينة المقطم» كذلك تم إنجاز مدينتى الأوقاف والمهندسين وتطوير الإسكان الشعبى بمناطق حلوان وشبرا الخيمة والعباسية وإمبابة والجيزة فى الفترة من ١٩٦ - ١٩٦٥.

وإذا كانت التجارب العالمية قد إنتهجت سياسة المدن الجديدة فى إطار استراتيجية شاملة للتنمية الحضارية، فإن هذا لم يحدث بصورة واضحة بالنسبة للتجربة المصرية. فقد أنشئت المدن الجديدة من منطلق اهتمام القيادة السياسية فى منتصف السبعينات «ورقة أكتوبر ١٩٧٤» بضرورة وضع خريطة جديدة لمصر بحيث يتحرك السكان والعمران من الوادى الضيق إلى الصحراء، وكان من المفروض أن تستثمر هذه التوجهات بأن يتم إعداد بدائل للاستراتيجية العمرانية فى مصر ومن ثم اختيار أفضل هذه البدائل فى ضوء الإمكانيات والطاقات المتاحة. ولكن فى ظل غياب هذه الاستراتيجية تم إنشاء العديد من المدن خلال السنوات القليلة الماضية فى إطار مشروع - القاهرة الكبرى - دون رؤية واضحة لحقائق الوضع الاقتصادى والعمرانى.

وهذه المدن التى شيدت حول القاهرة يمكن اعتبارها توابع ضخمة «Satellite Cities» هى : مدينة العاشر من رمضان على مسافة ٥٠ ك / م من القاهرة بطريق الإسماعيلية، مدينة ٦ أكتوبر على مسافة ٣٢ ك / م من مركز القاهرة بطريق الفيوم، مدينة ١٥ مايو بجنوب حلوان، مدينة بدر بطريق القاهرة - السويس، مدينة العمال بطريق القاهرة - القطامية، مدينة العبور شمال شرق القاهرة بطريق بلبيس، مدينة السادات بطريق القاهرة - الاسكندرية الصحراوى التى أعد تخطيطها لتكون عاصمة جديدة لمصر يوما ما!.

ولأن القاهرة الحديثة لم تخطط أساساً فى القرن الماضى إلا لتكون مدينة متوسطة ومعقولة الحجم، إلا أنه سمح لها أن تنمو نمواً عاصفاً مريراً بلا ضابط وخارج كل حدود معقولة، وتعددت المشاكل فى كل جوانب الحياة فيها، وكل علاج لهذه المشاكل يمثل تكاليف وإنفاقات مادية باهظة ومتزايدة إلى درجة غير اقتصادية ولم تعد تجدى سياسة المسكنات، ولاشك أن الازدحام السكانى وأزمة الإسكان ومشكلة المواصلات ومشكلة التلوث هى أخطر تلك المشكلات[1].

ولأن القاهرة تحتكر السلطة والنفوذ والقوة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، فإنها تستقطب أعلى نسبة من الإنتاج والاستهلاك، والخدمات الترفيهية ومرافق الحضارة الحديثة.

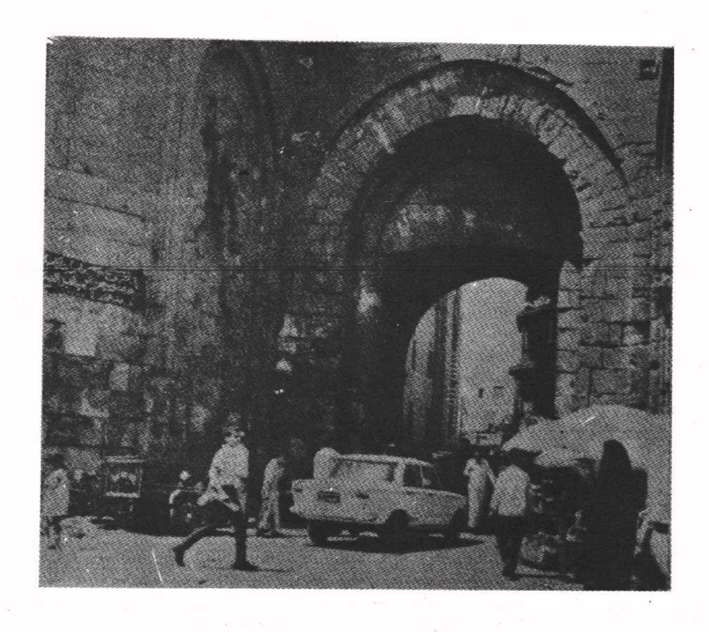
ومع العربدة الاقتصادية لعصر «الإنفتاح» تعملقت القاهرة كالمارد، ومع نموه الطفيلى المحموم، نمت أبراجها كعش الغراب المشئوم، لتنتقل بذلك من العصر الأوربى «كقطعة من أوربا» إلى العصر الأمريكى. لتصبح بناطحات سحابها وإنفجارها العمرانى «قطعة من أمريكا» فكان ذلك الإنفتاح هو أعلى مراحل نمو القاهرة - رأسياً وأفقياً - وهو أعلى مراحل رأسمالية مصر «الاشتراكية»! وبعبارة أخرى فقد أصبحت القاهرة عاصمة رأسمالية عملياً فى مجتمع اشتراكى نظرياً!.

وبالرغم من ذلك تبقى القاهرة مدينة «العلم والفن» فهى مدينة العلم بما إحتوته من جامعات ومدارس إسلامية منذ نشأتها، شع منها نور العلم فأضاءها وأضاء ما حولها، وهى مدينة الفن بما حوته من آثار مصرية وقبطية ورومانية، ومن آيات الفن الإسلامى التى تألقت وإنتشرت على مدى ألف سنة من التاريخ.

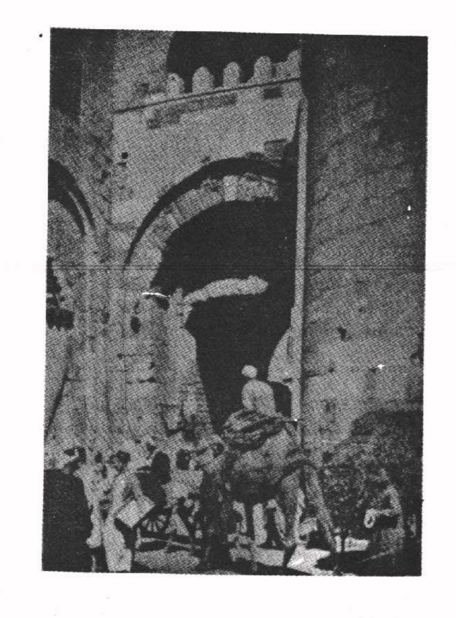
عرفه عبده على

---

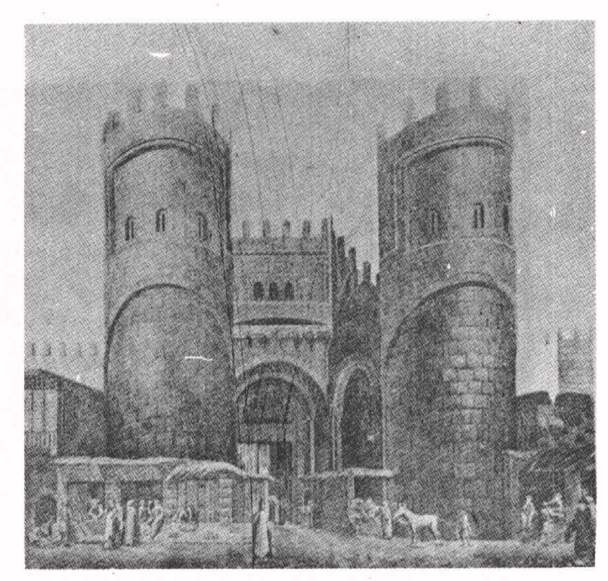
(١) د. جمال حمدان : شخصية مصر جـ٤ ص ٣٥٢.



باب زويلة ١٩٦٥



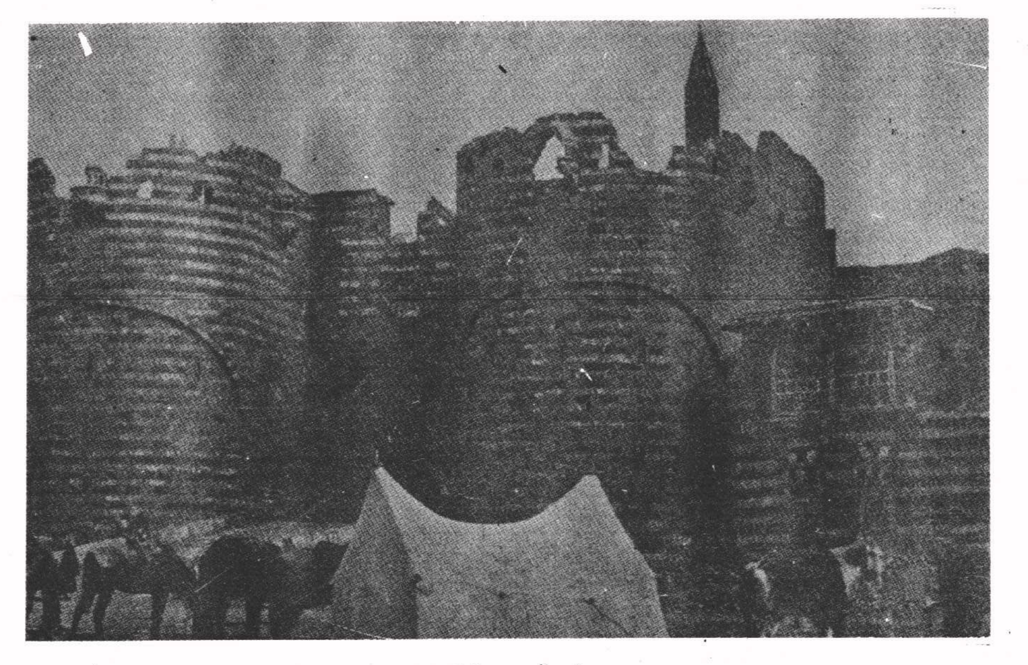
باب زويلة ١٩٠٠



باب الفتوح سنة ~~١٩٦٥~~ ١٨٠٠



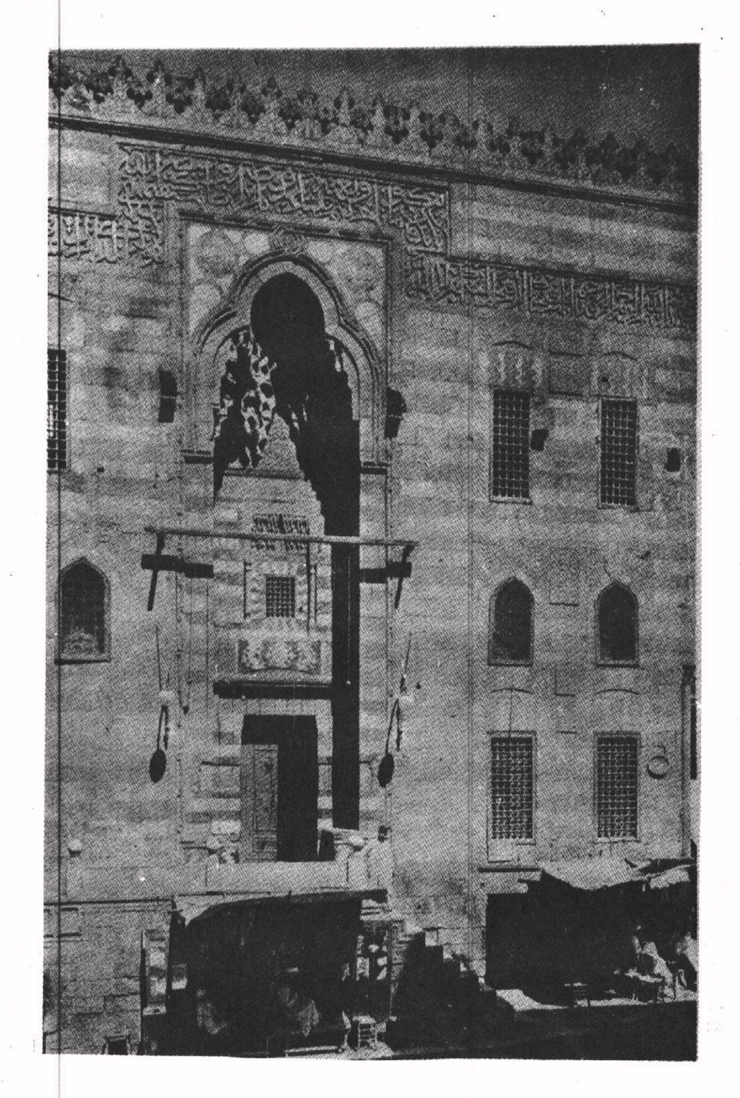
باب الفتوح ~~١٨٠٠~~ ١٩٦٥



باب العزب سنة ١٨٥٧



مسجد السلطان حسن سنة ١٩٠٨



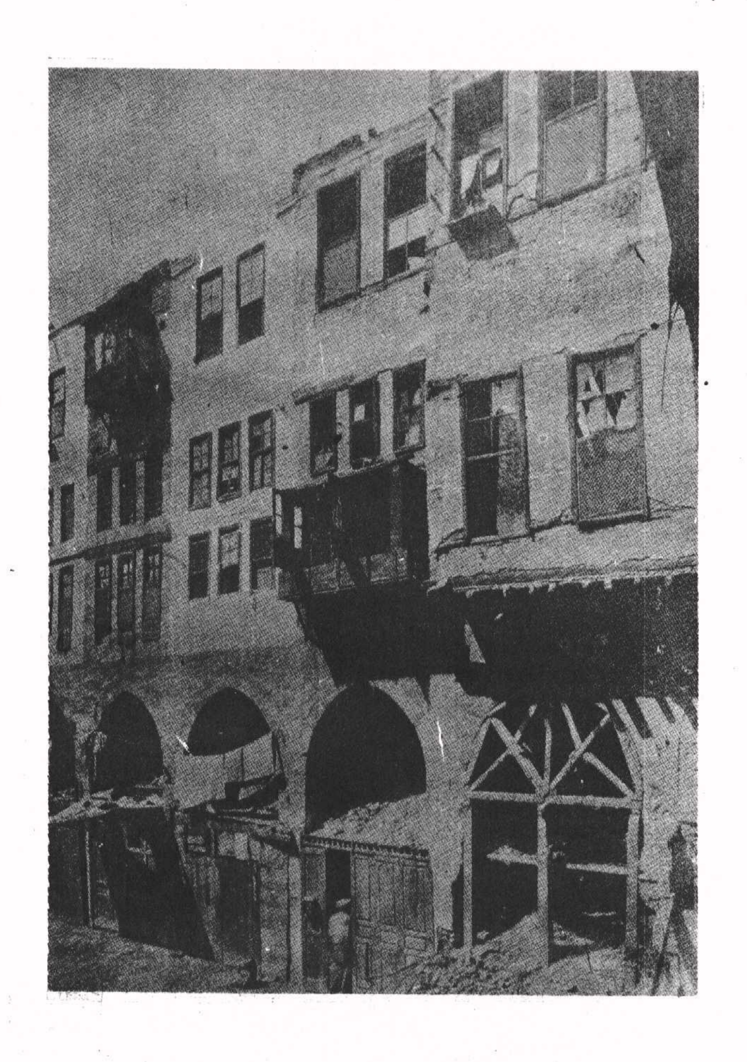
باب مسجد الغوري يونيه سنه ١٩٣٠



واجهة مسجد الجاولى ١٩٢٨



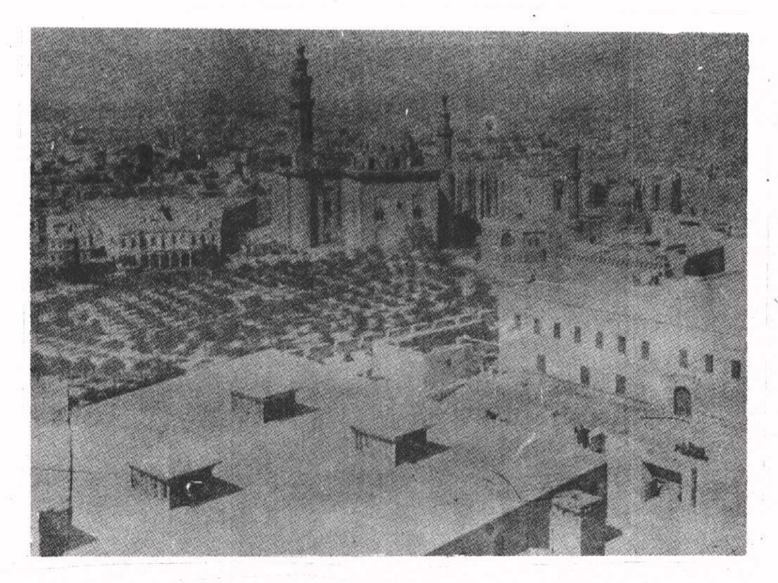
الواجهه البحرية لجامع محمد بك أبو الذهب عام ١٩٢٨



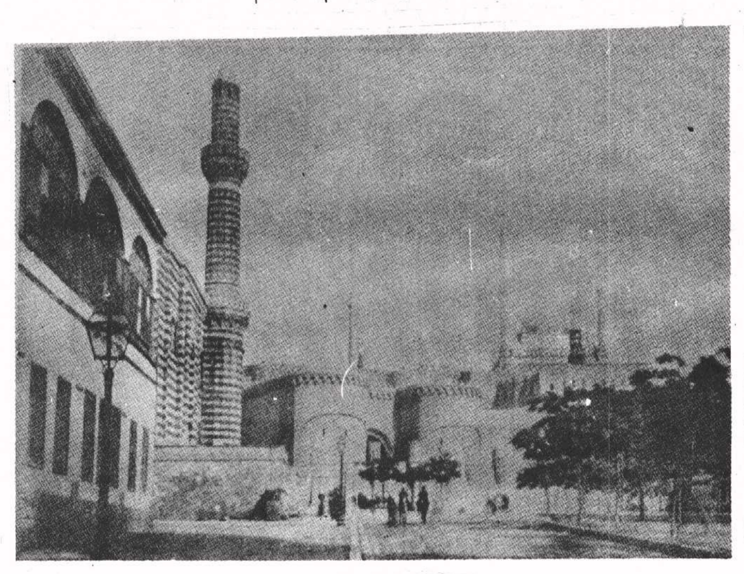
وكالة الغوري ١٩٢٨



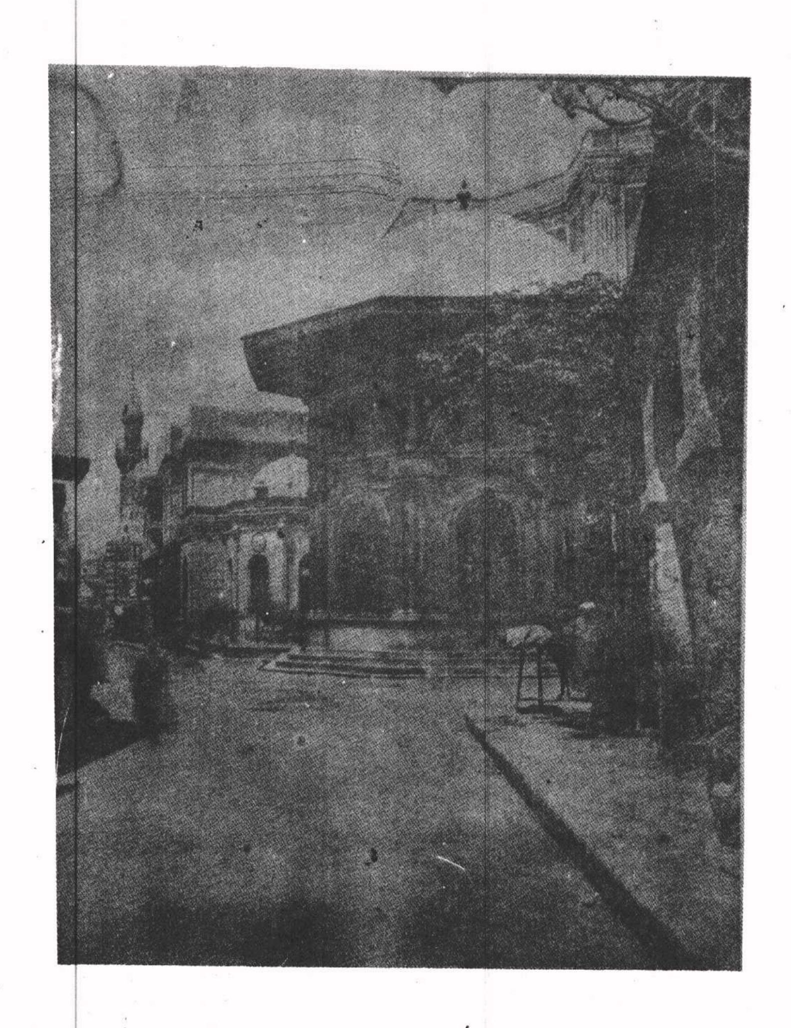
وكالة الغورى فبراير ١٩٣٠



مسجد السلطان حسن ١٩٠٦
و يرى مسجد الرفاعى قبل اتمام بناؤه عام ١٩١١



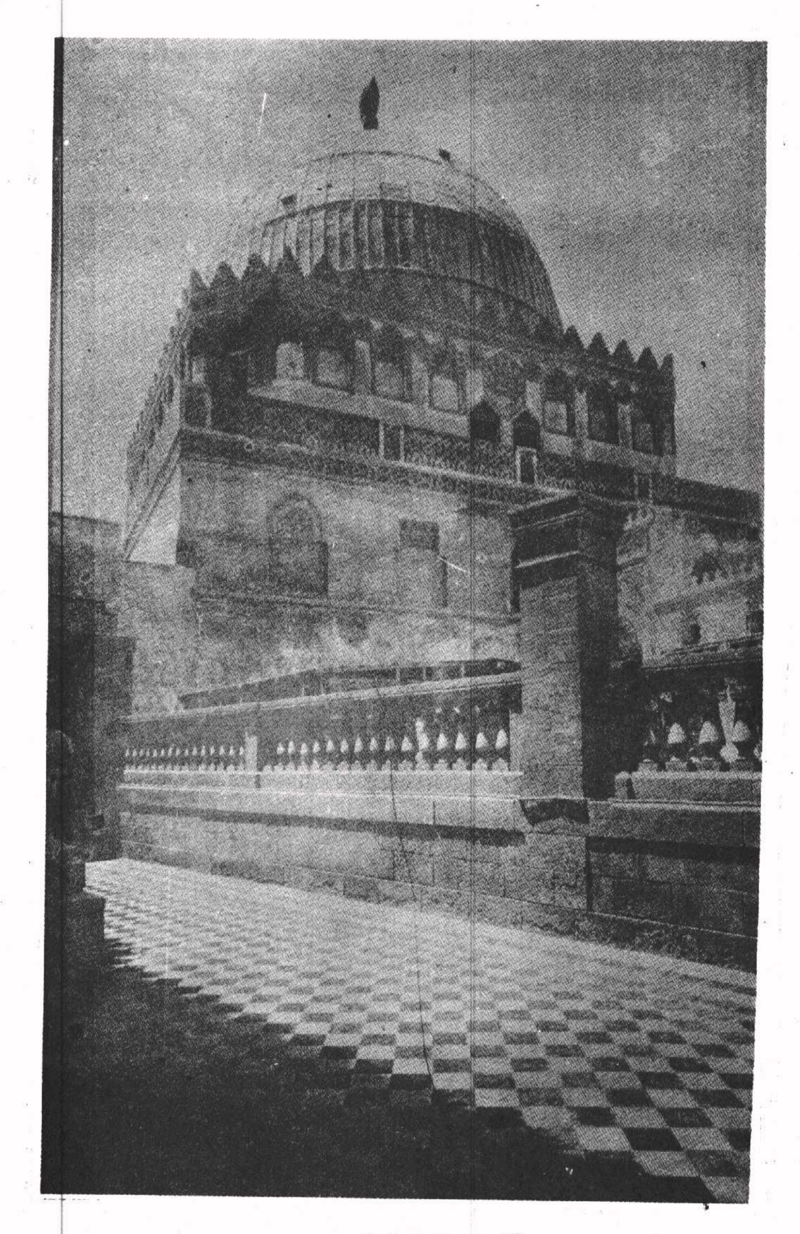
مدخل قلعة صلاح الدين ١٩٠٢



سبيل أم عباس عام ١٩٠٢



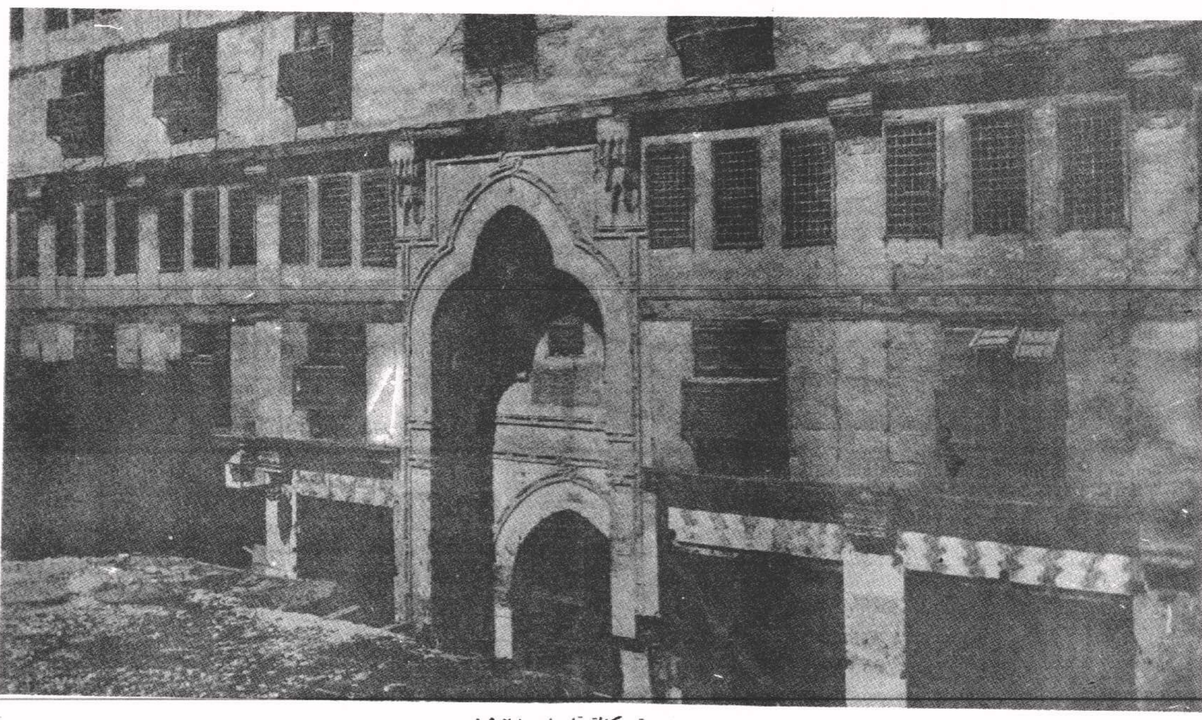
واجهة حمام الملاطيلى سنة ١٩٢٤



قبة جامع الامام الشافعى ١٩٢٨

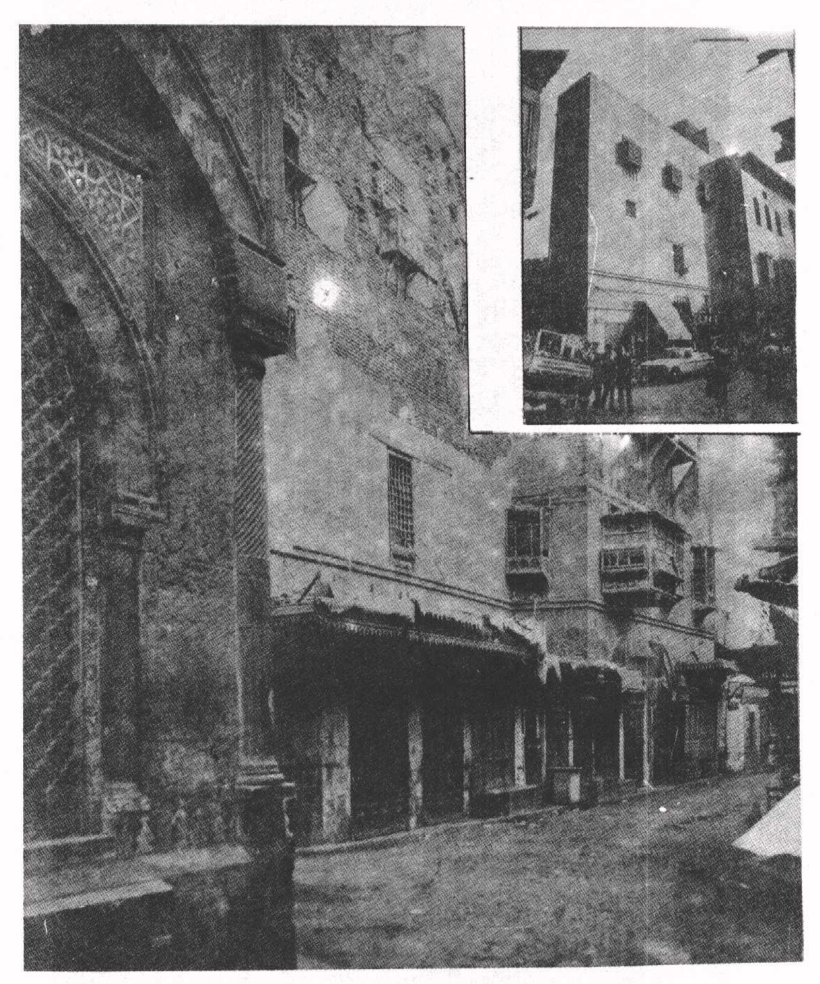


جامع السلطان قلاوون ١٩٢٨



واجهة وكالة قايتباى ١٩٢٨

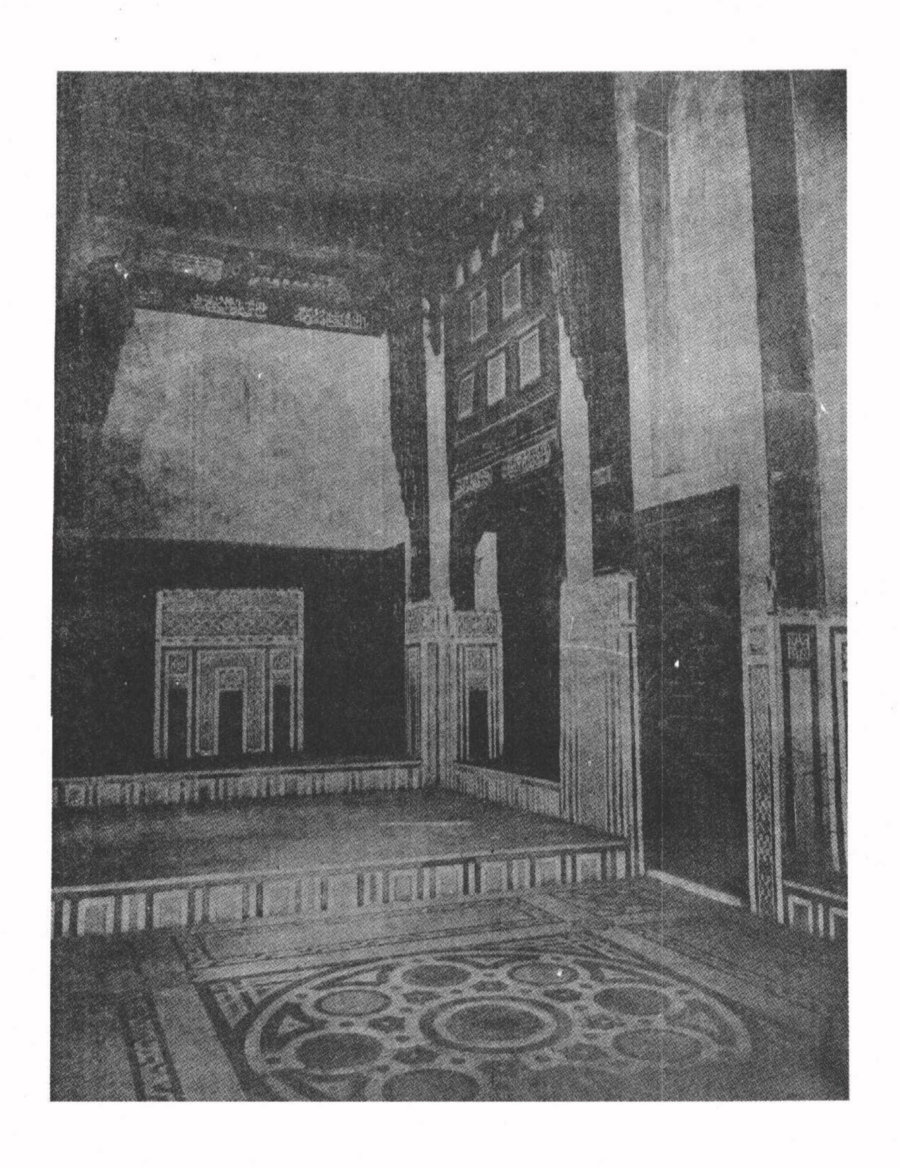
قصر بشتاك بعد ترميمه



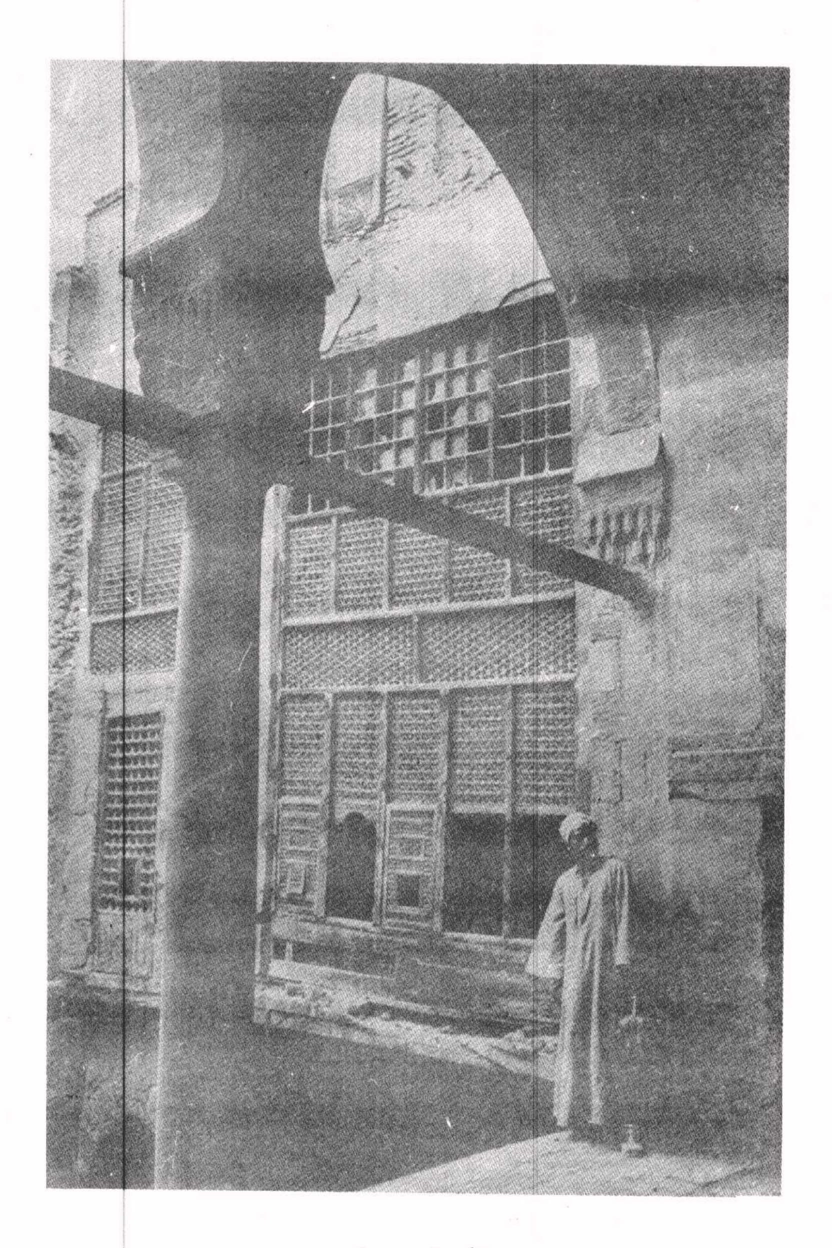
واجهة قصر بشتاك بشارع النحاسين ١٩٢٨



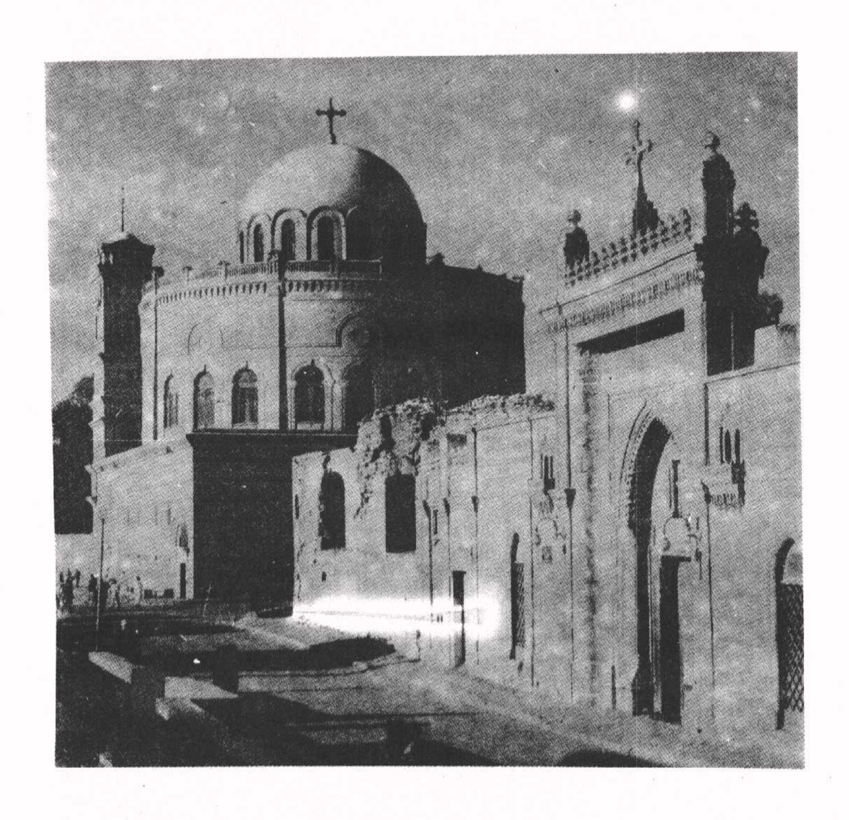
منزل السحيمى



قصر جمال الدين الذهبي



منزل «الست وسيله»



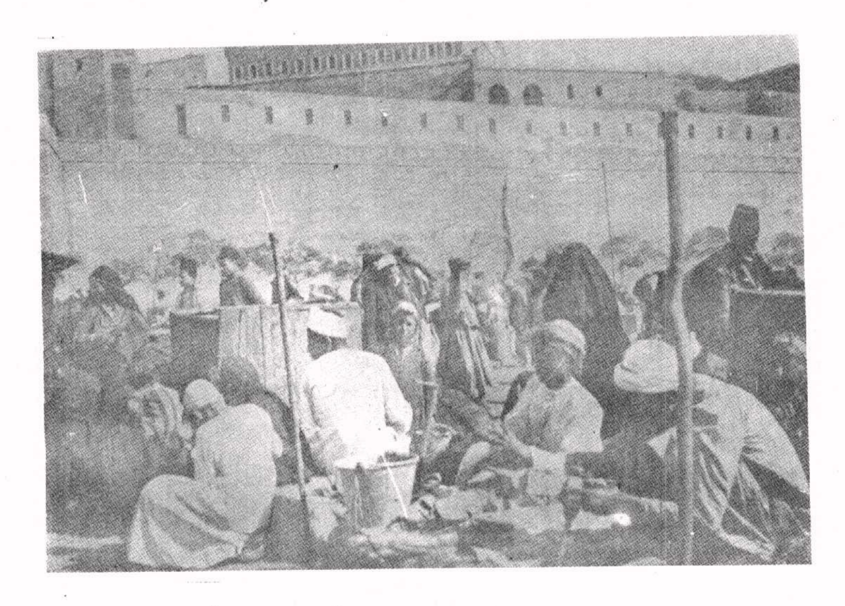
كنيسة مارجرجس



عودة المحمل من مكة



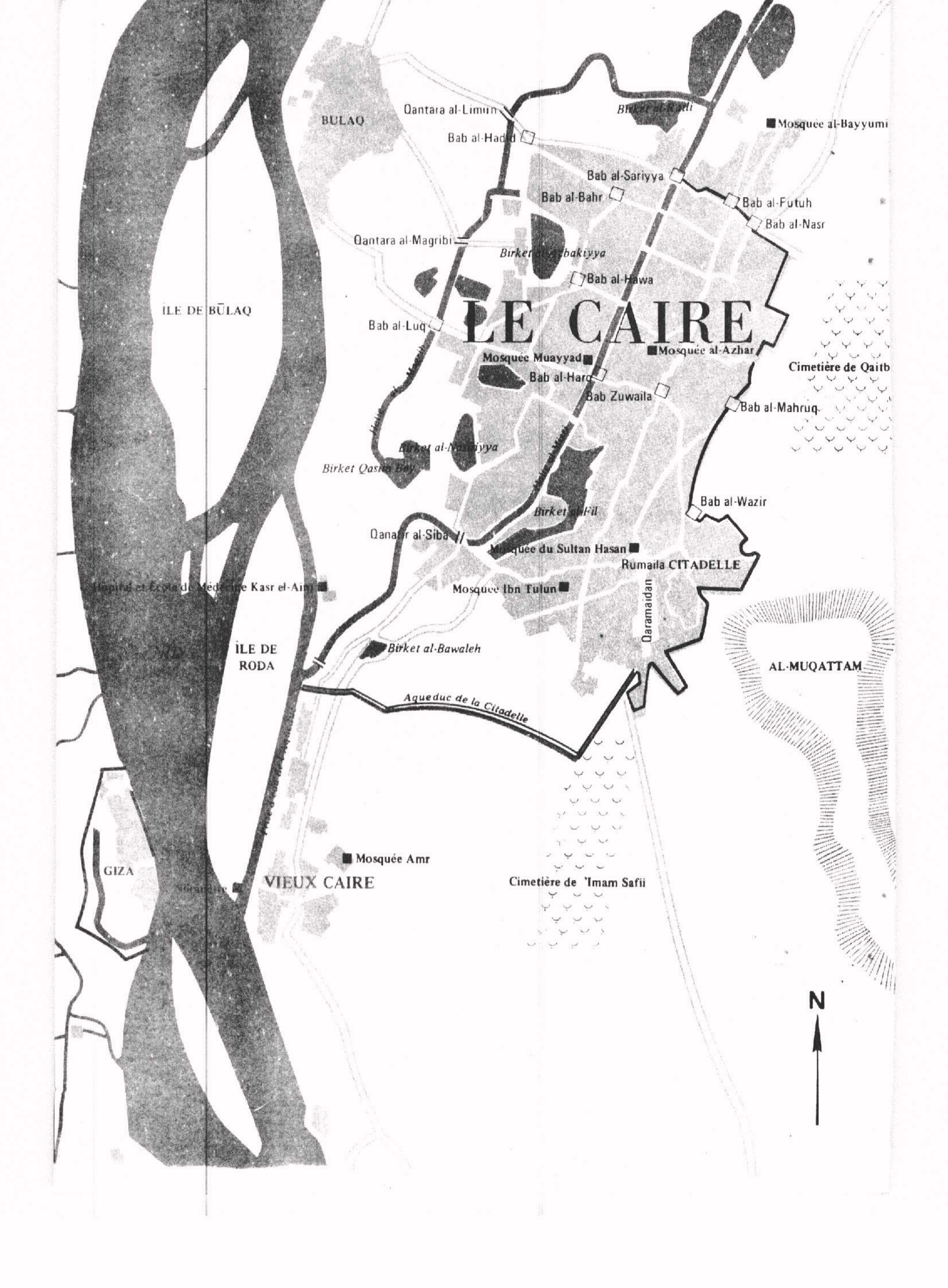
الاحتفال بالمولد النبوى / ١٩٠٢



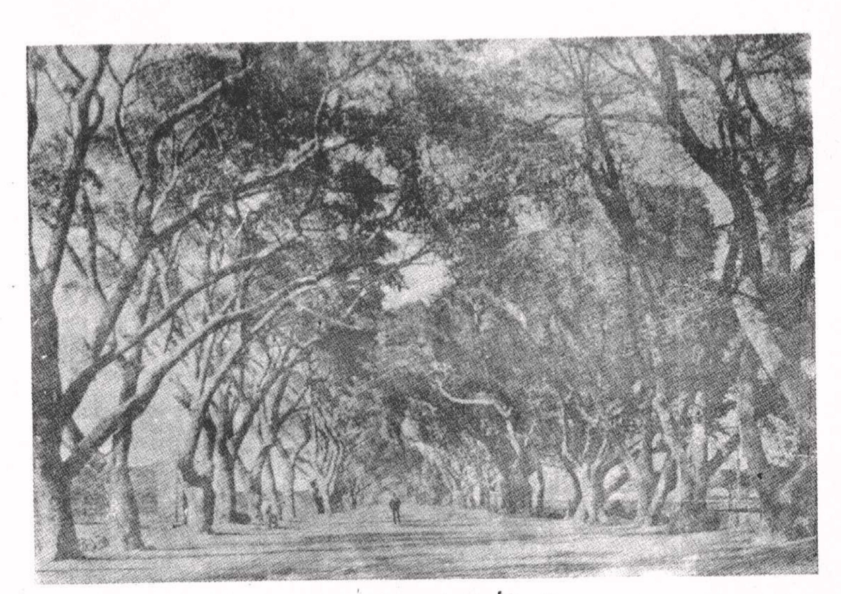
سوق العصر الشهير الذى كان يقام تحت أسوار القلعة / سنة ١٩٠٢



ليالى الإستماع إلى الراوى بميدان محمد على / ١٩٠٢



BULAQ
Qantara al-Limun
Bab al-Hadid
Mosquée al-Bayyumi
Bab al-Sariyya
Bab al-Bahr
Bab al-Futuh
Bab al-Nasr
Qantara al-Magribi
Bab al-Hawa
ILE DE BŪLAQ
LE CAIRE
Bab al-Luq
Mosquée al-Azhar
Mosquée Muayyad
Bab al-Harq
Cimetière de Qaitb
Bab Zuwaila
Bab al-Mahruq
Birket al-Nasriyya
Birket Qasim Bey
Bab al-Wazir
Qanatir al-Siba
Mosquée du Sultan Hasan
Rumaila CITADELLE
Mosquée Ibn Tulun
Qaramaidan
ÎLE DE
RODA
Birket al-Bawaleh
AL-MUQATTAM
Aqueduc de la Citadelle
Mosquée Amr
GIZA
VIEUX CAIRE
Cimetière de 'Imam Safii
N

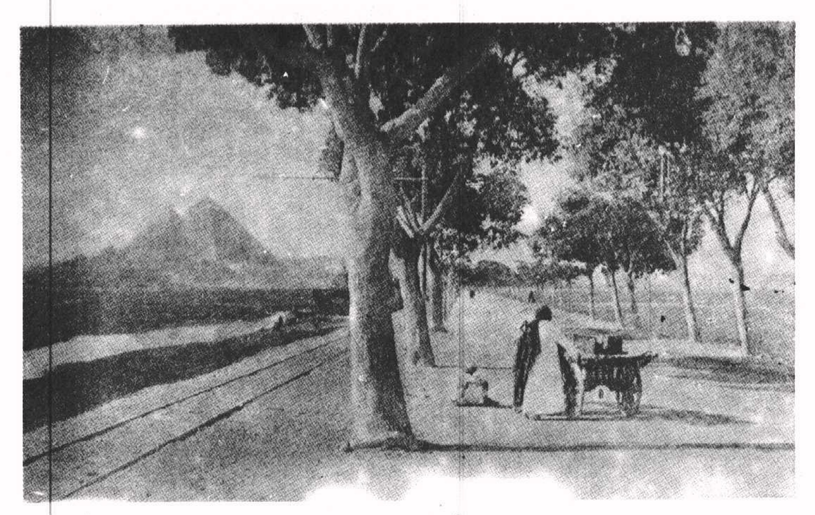


شارع الأهرام عام ١٨٧٠

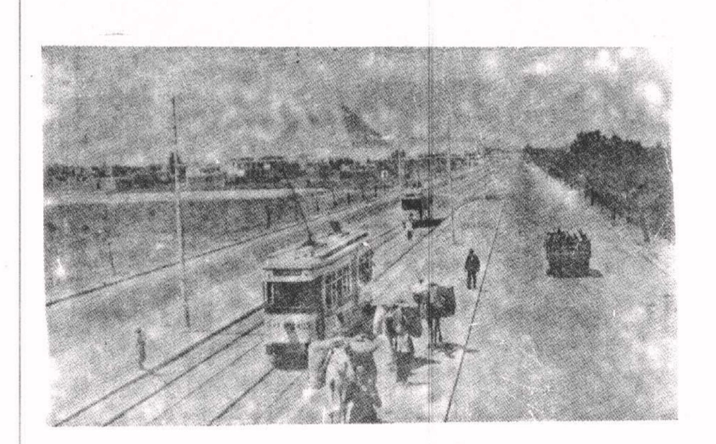




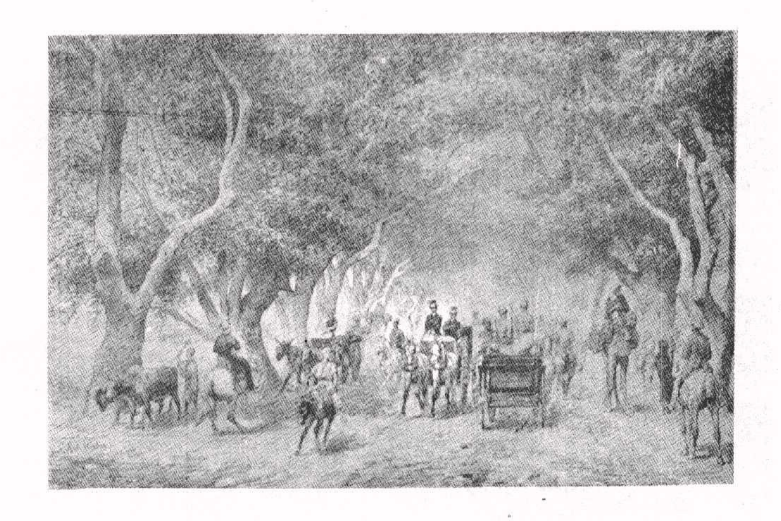
شارع الأهرام عام ١٨٩٤



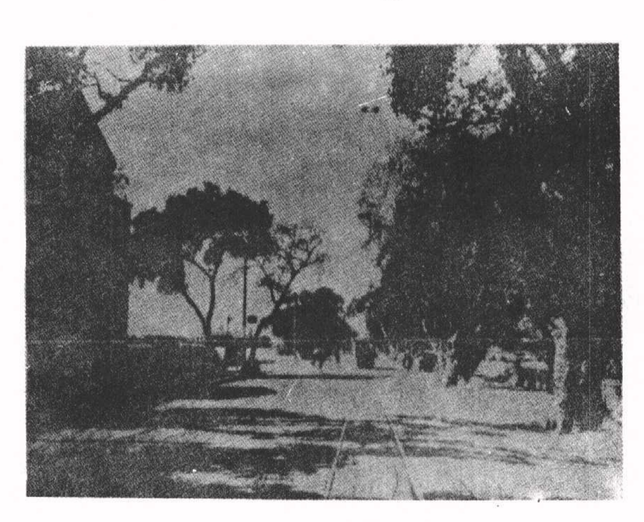
شارع الأهرام عام ١٩٠٠



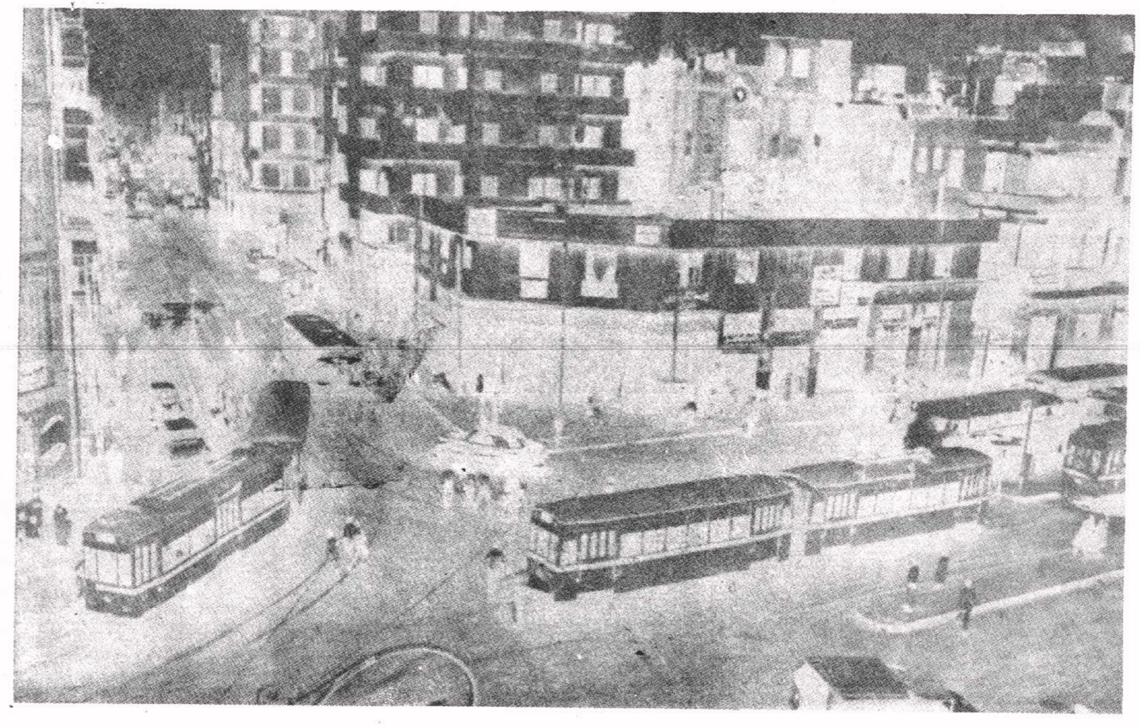
شارع الأهرام سنة ١٩١٧



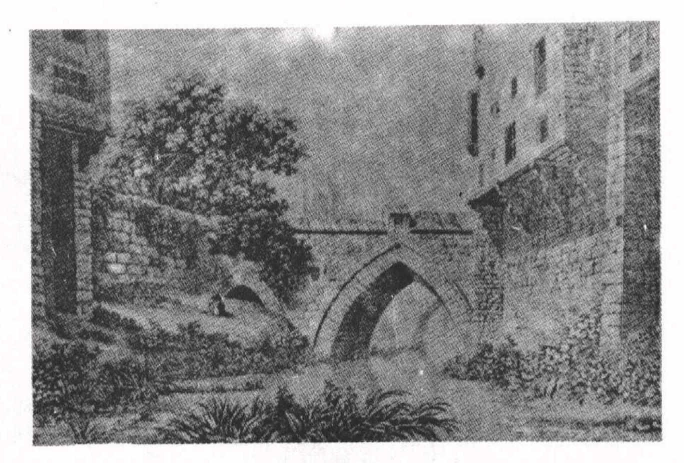
شارع شبرا سنة ١٨٦٠



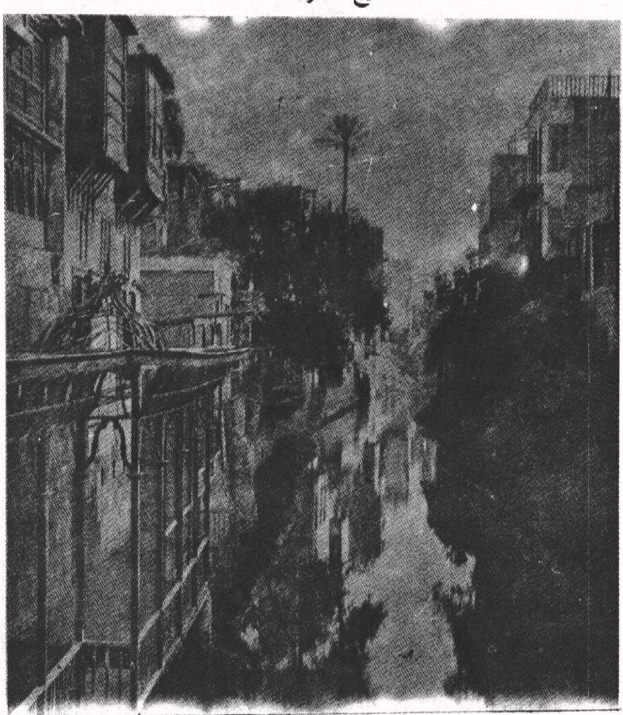
شارع شبرا سنة ١٩٠٣ بعد أن مد به خط للترام يبدأ من باب الحديد



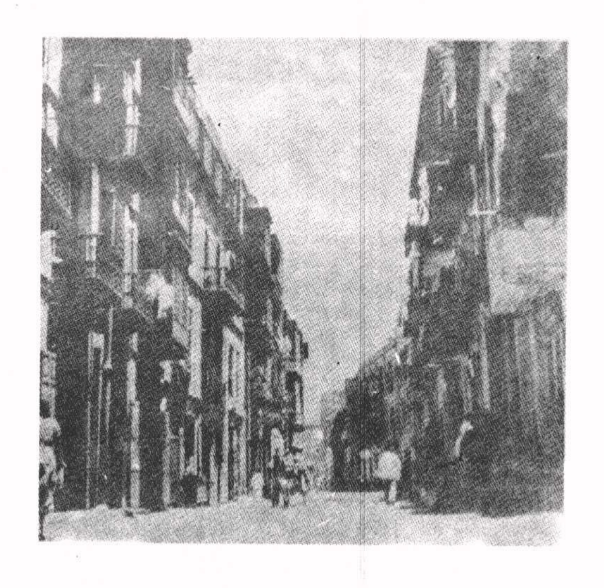
شارع شبرا (دوران شبرا) سنة ١٩٦٢



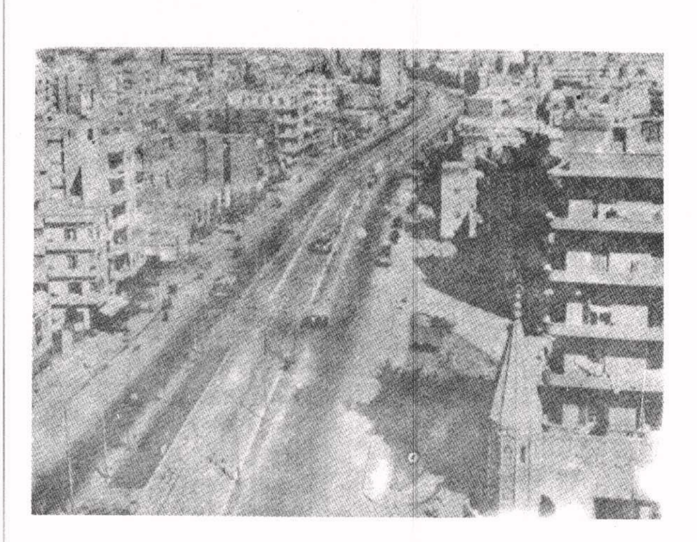
الخليج المصرى ١٨٠٠



الخليج المصرى عام ١٨٧٠



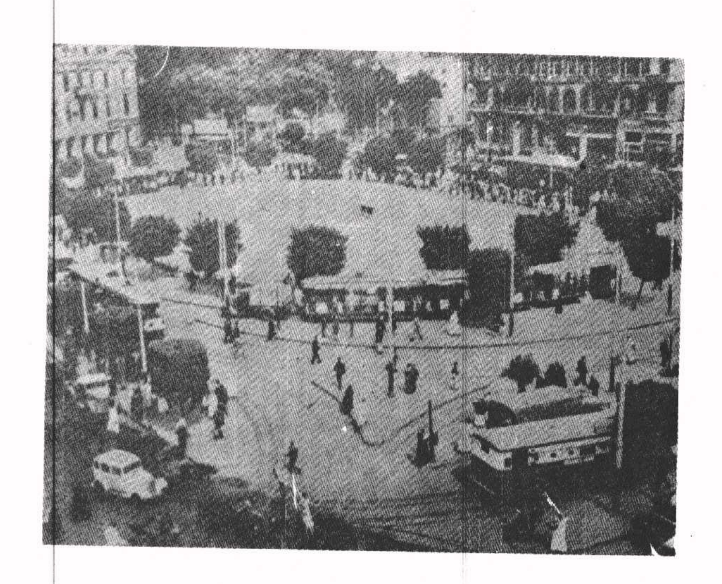
شارع الخليج ١٩٣٠



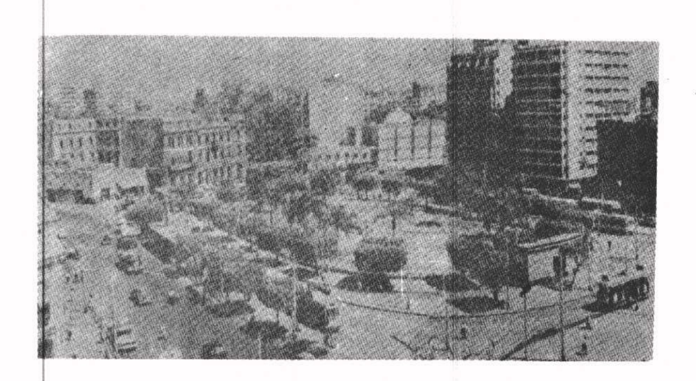
شارع الخليج (بورسعيد) ١٩٦٠



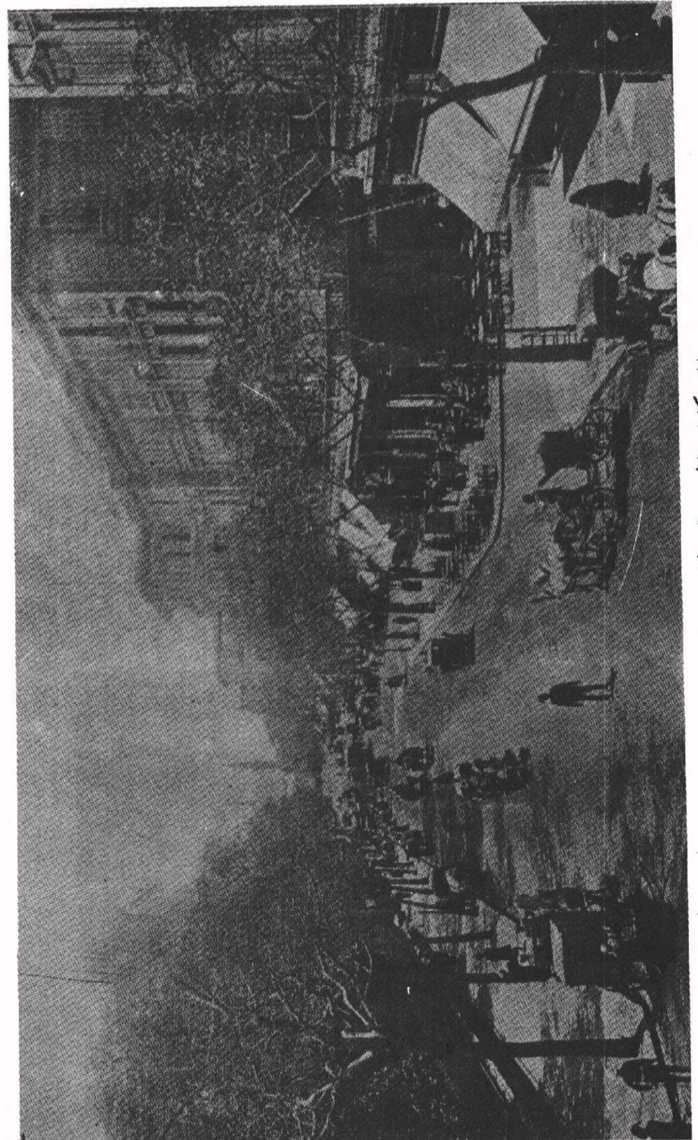
ميدان العتبة الخضراء عام ١٩٠٠



ميدان العتبة الخضراء ١٩٤٠



ميدان العتبة الخضراء ١٩٦٠



شارع كامل (الجمهورية حاليا) عام ١٨٩٧

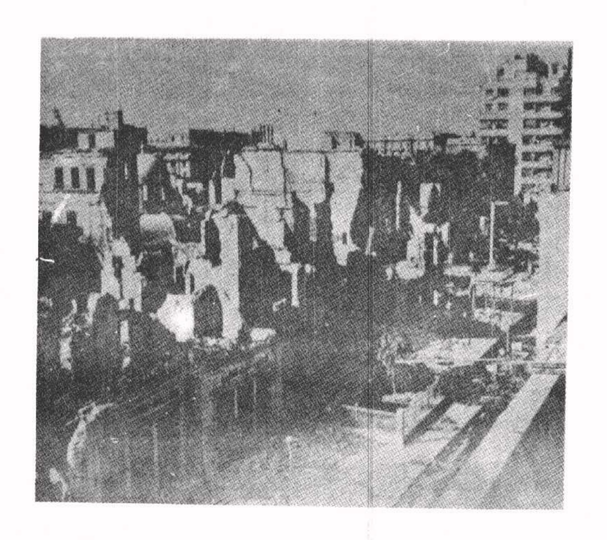
فـندق شبرد (الأول) : قصر محمد بك الألفى الذى أتخذه نابليون مقرا لقيادة الحمله الفرنسية فى مصر.



فندق شبرد / عام ١٨٥٦ الثانى



فندق شبرد الثالث سنة ١٩٢٠

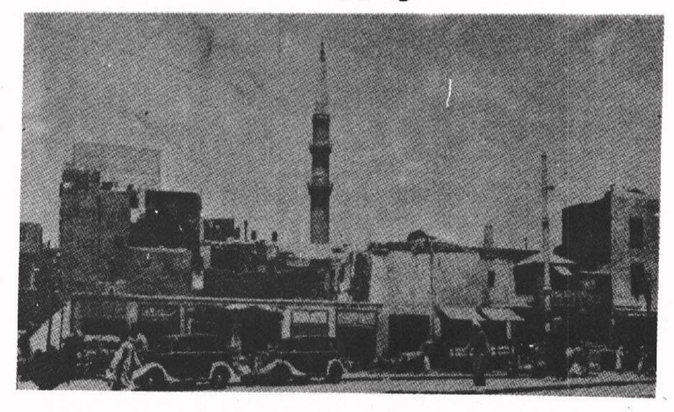


فندق شبرد بعد أن دمر فى أحداث حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ .

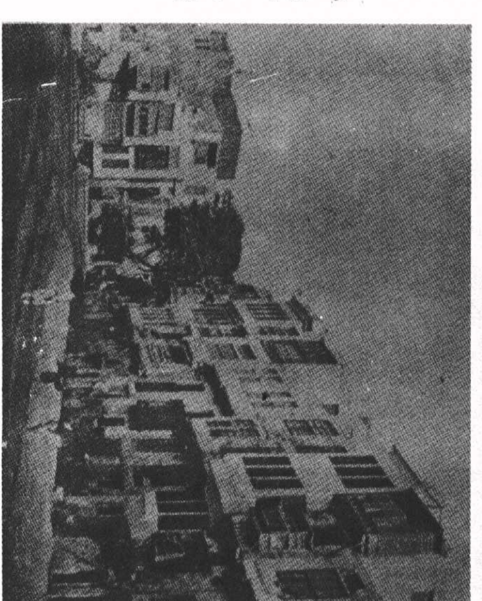


فندق شبرد (الرابع) بالقرب من كوبرى قصر النيل

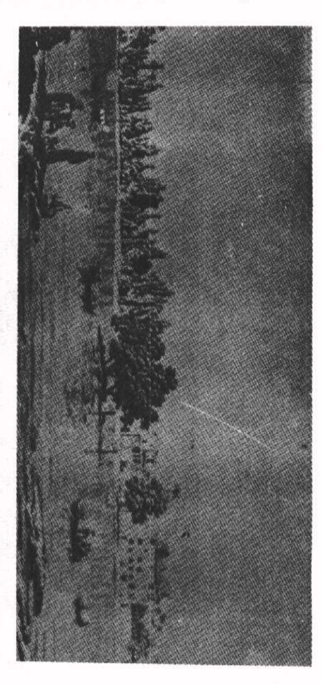
شارع الأزهر سنة ١٩٣٦

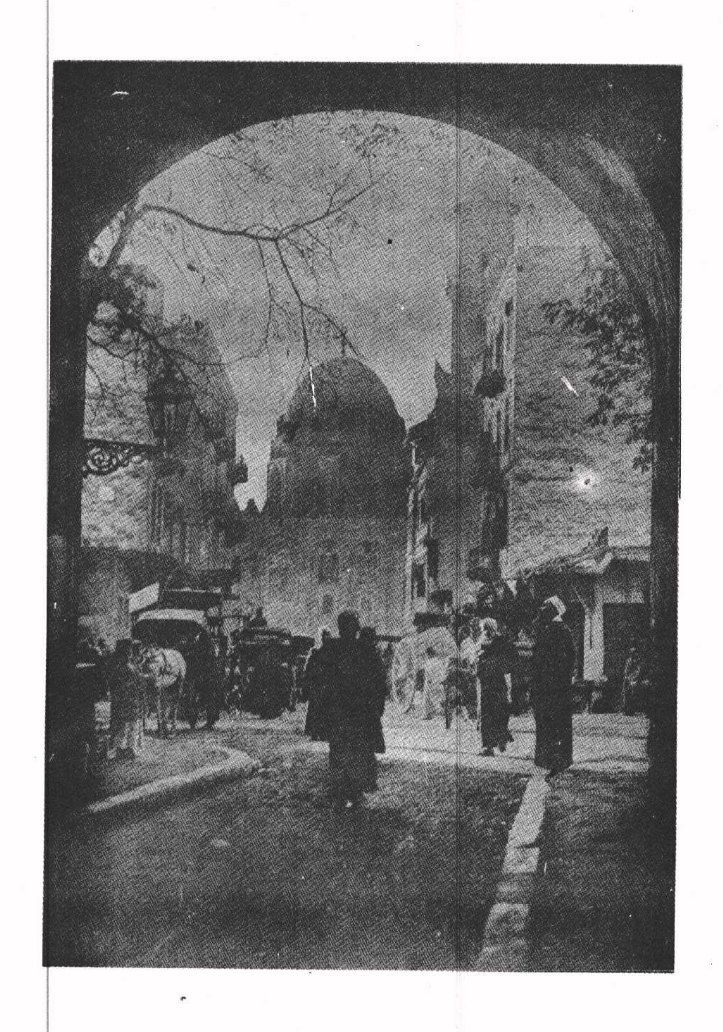


حى الأزبكية سنة ١٨٥٧

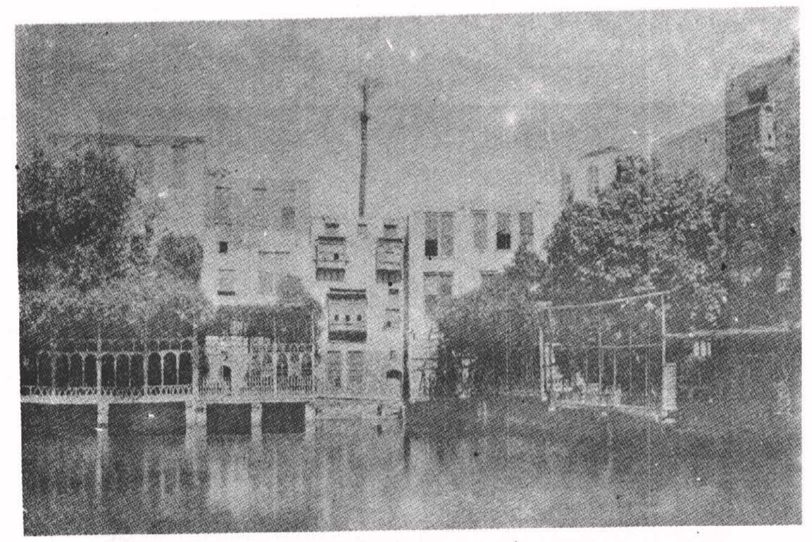


بركة الأزبكية سنة ١٨٠٠

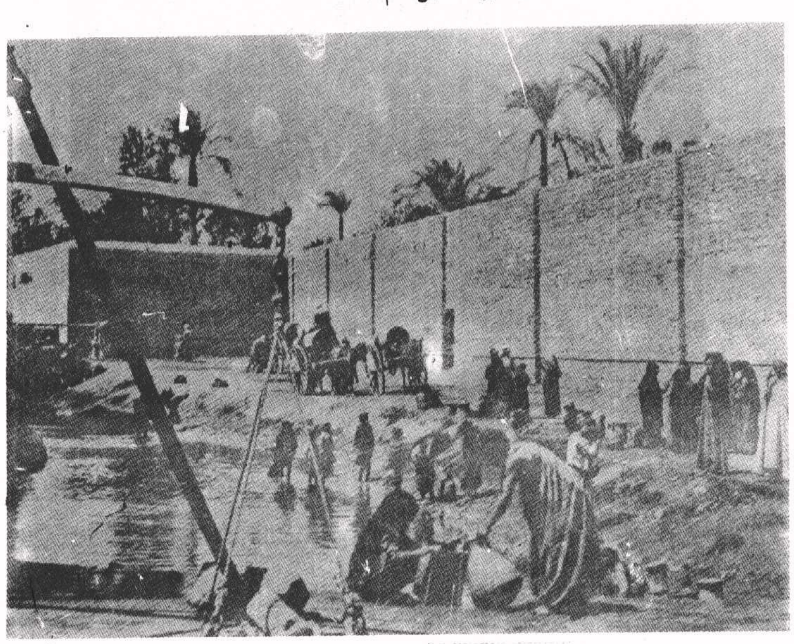




شارع الكتبية بحى الأزهر/ ١٨٥٧



بركة الفيل عام ١٨٦٥





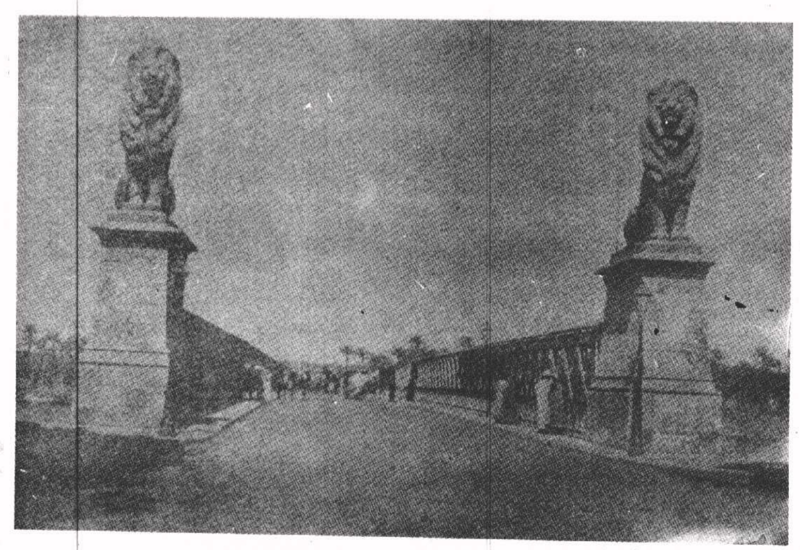
فندق «الشرق» الذى كان مقصدا للرحاله والادباء الفرنسيين فى الفترة من ١٨٤٠ إلى ١٨٧٠



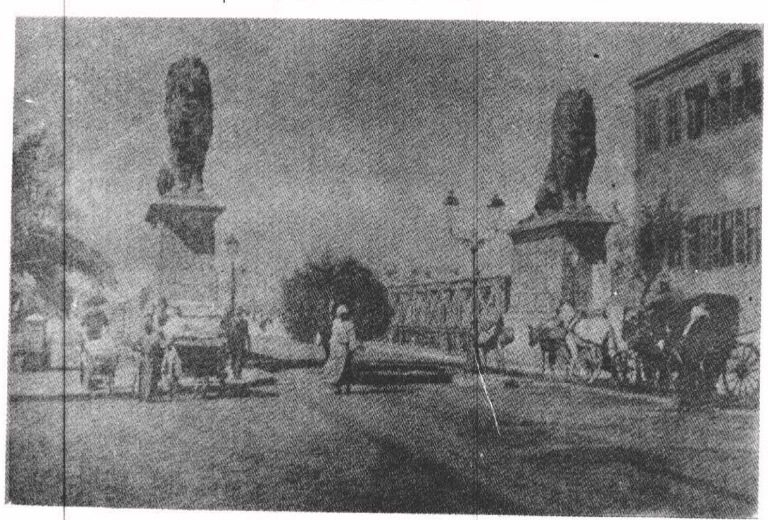
متحف بولاق للآثار المصرية سنة ١٨٧٢، قبل إنتقاله إلى مقره الجديد بميدان التحرير.



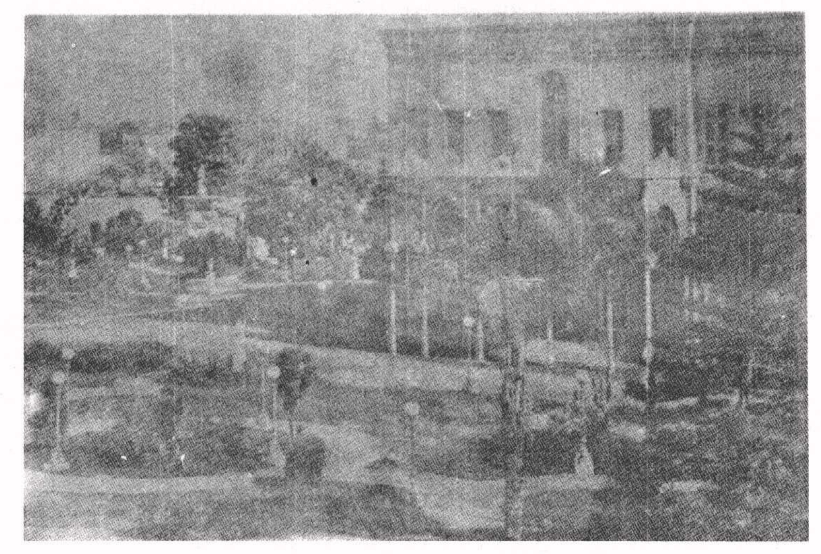
شارع بولاق (فؤاد ثم ٢٦ يوليو) عام ١٩٠٢



« كوبرى الخديو اسماعيل القديم الذى افتتح فى ١٠ فبراير عام ١٨٧٢
وأنشىء الكوبرى الحالى (قصر النيل) فى نفس موقعه عام ١٩٣٣ »



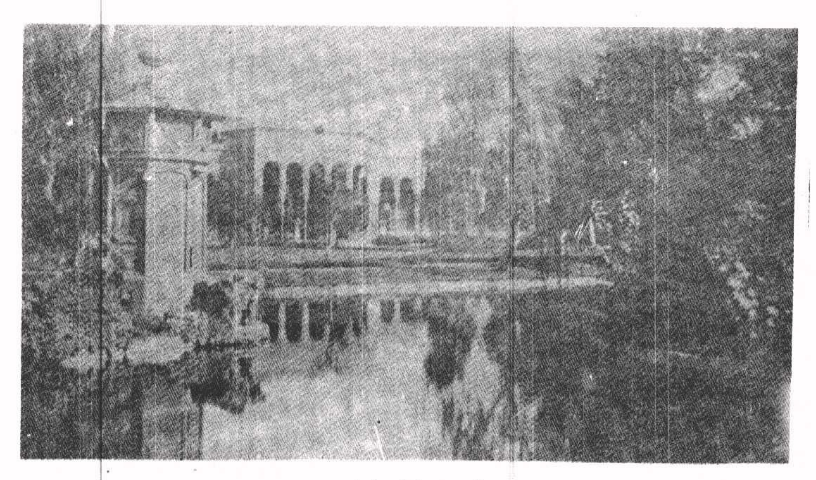
مشهد آخر لكوبرى الخديو اسماعيل عام ١٩٠٠



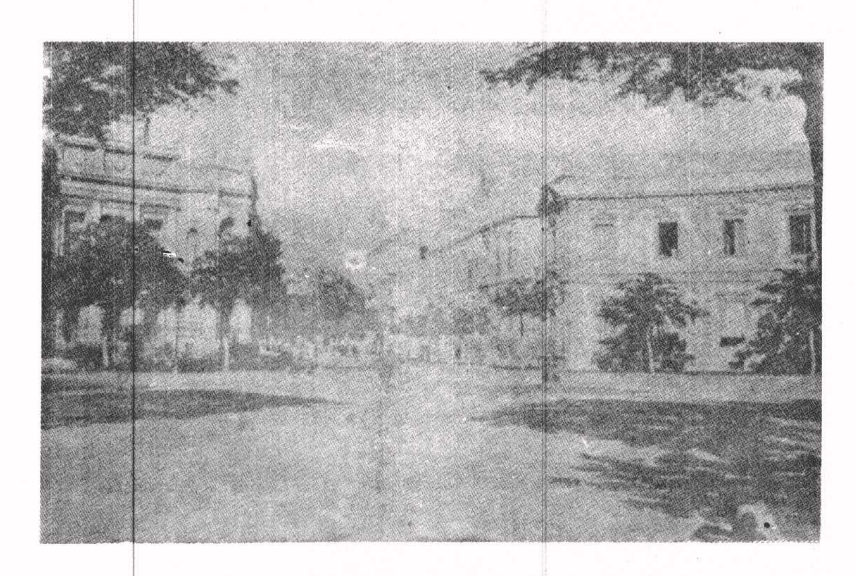
حديقة قصر الجزيرة



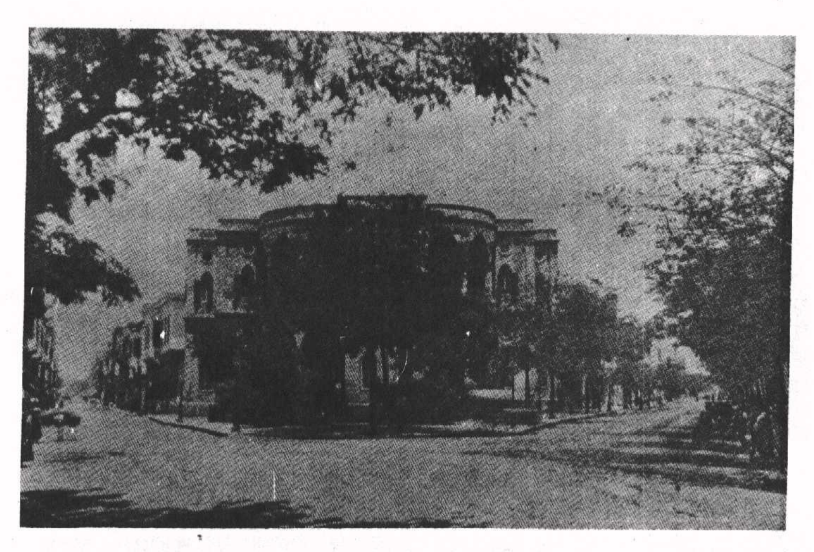
قصر الجزيرة



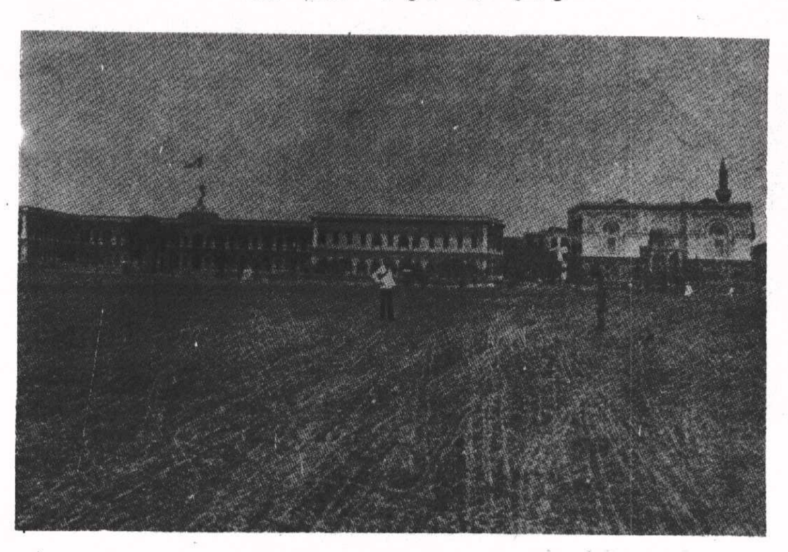
بحيرة وحديقة قصر الجزيرة



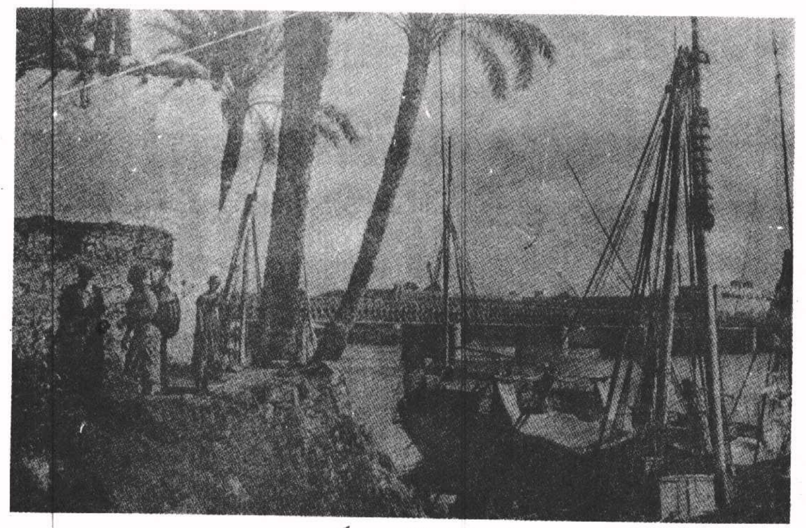
شارع الاسماعيلية (التحرير حاليا)
عام ١٩٠٢



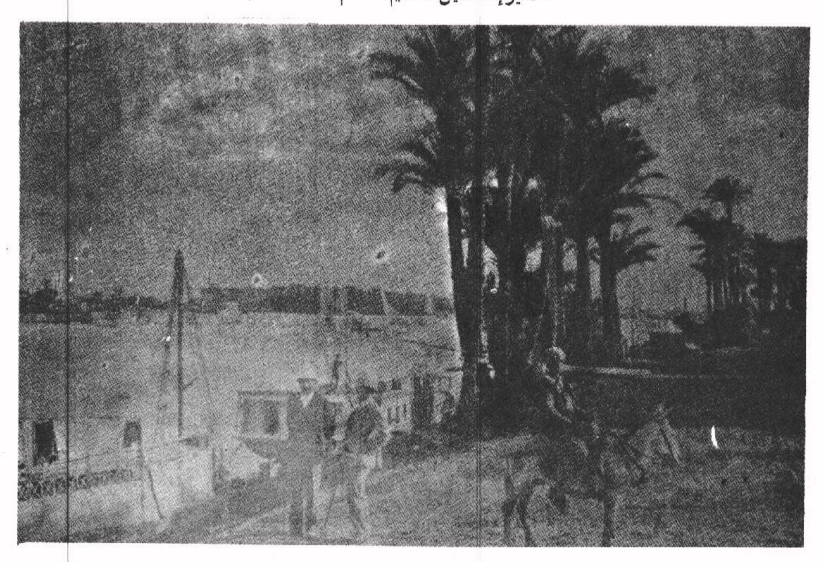
قسم شرطة عابدين القديم
على رأس مفترق شارعى عبد العزيز والجمهورية حاليا



حى الانجليز بالقاهرة عام ١٩٠٢



شاطيء النيل بالقرب من كوبرى
الخديو إسماعيل القديم ـ عام ١٩٠٢



شاطيء النيل بالقرب من ثكنات
قصر النيل ـ عام ١٩٠٢



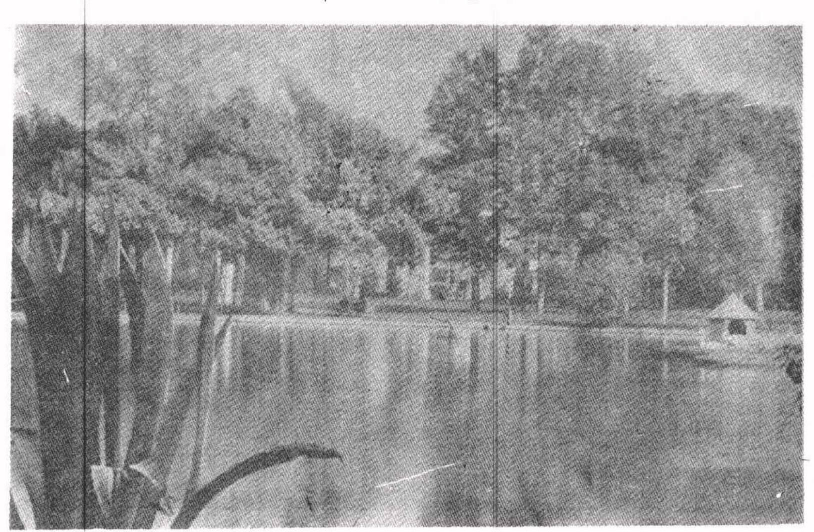
حديقة الازبكية عام ١٩٠٢



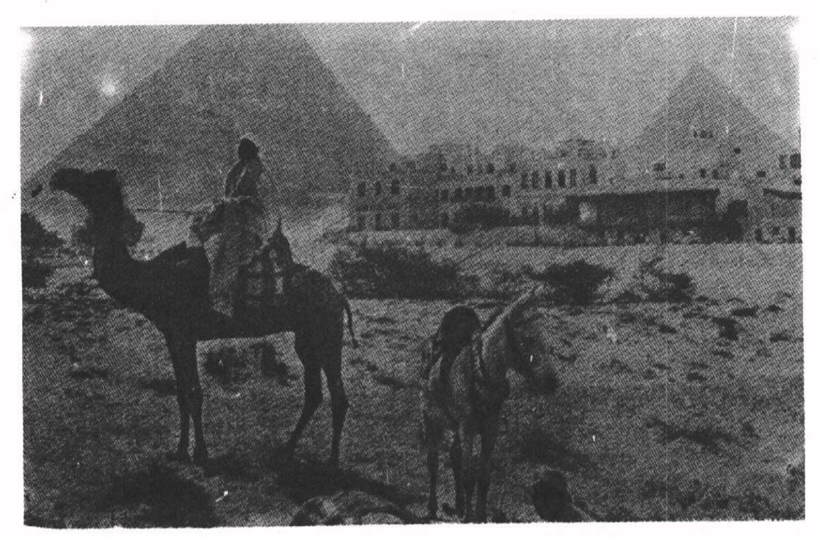
ميدان وحديقة الازبكية ١٩٠٢



مشهد من جزيرة الروضة عام ١٩٠٢



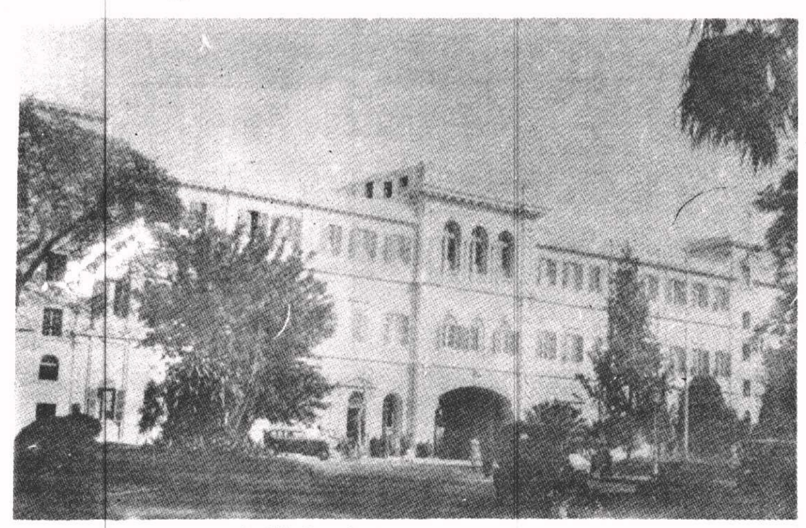
بحيرة حديقة الازبكية عام ١٩٠٢



فندق « ميناهاوس » القديم
وأهرام الجيزة ــ عام ١٩٠٢



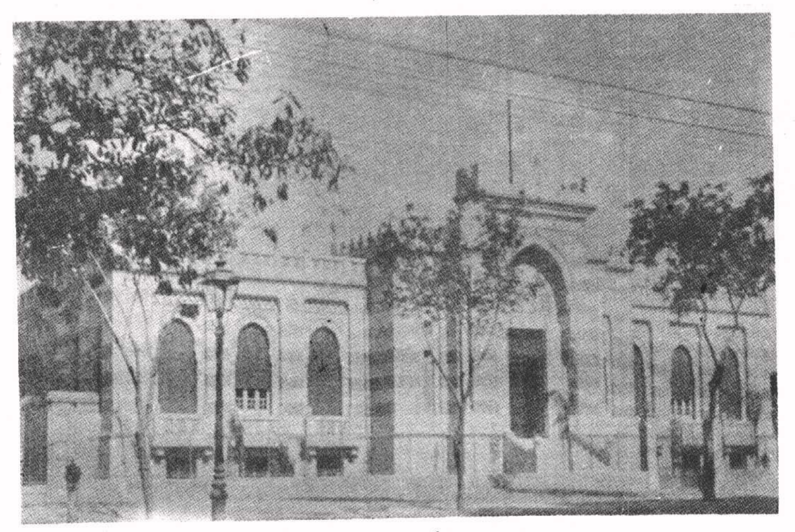
حى العباسية عام ١٩٠٢



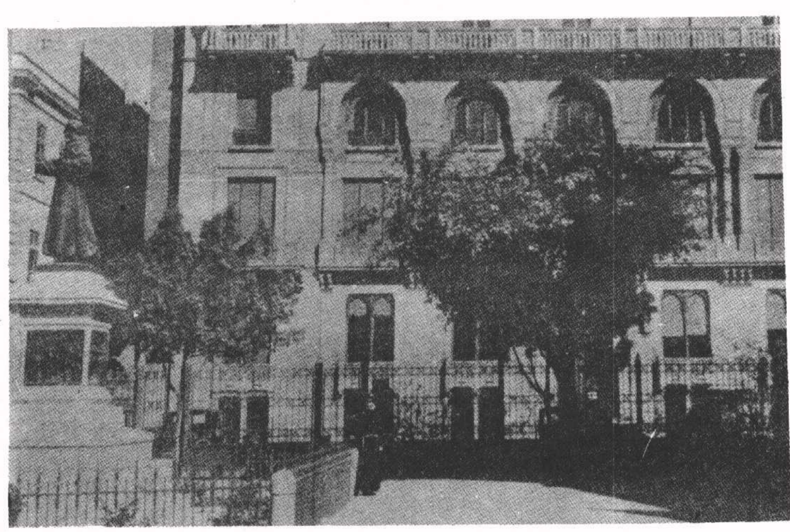
١٣ــ مدخل وزارة الأشغال العمومية بالقاهرة



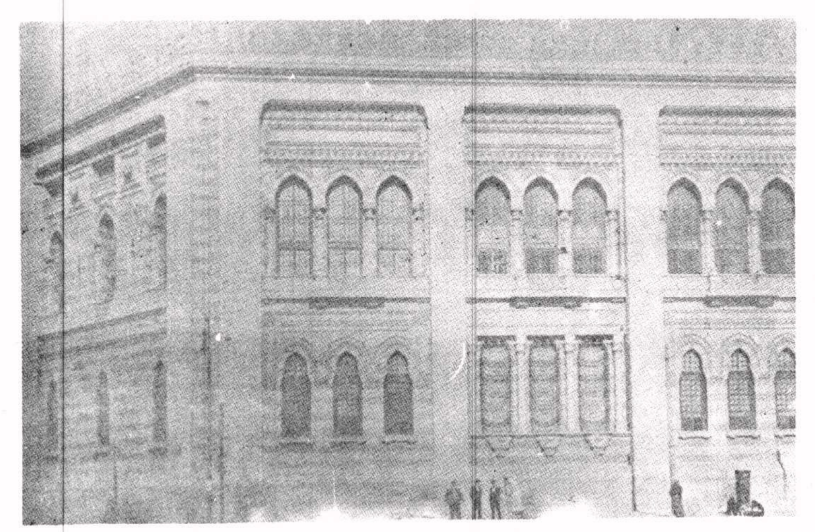
معهد الموسيقى العربية بشارع الملكة نازلى (رمسيس حاليا)



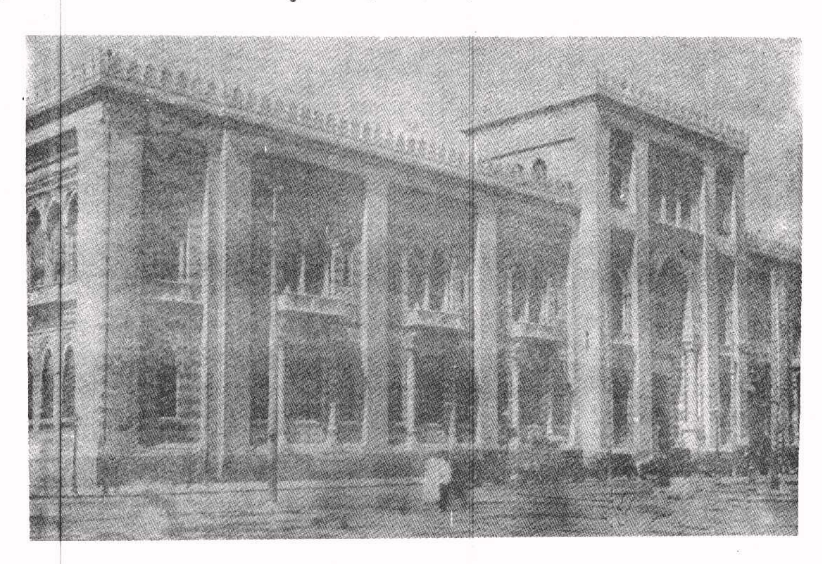
جمعية المهندسين الملكية (نقابة المهندسون حاليا)
بشارع رمسيس



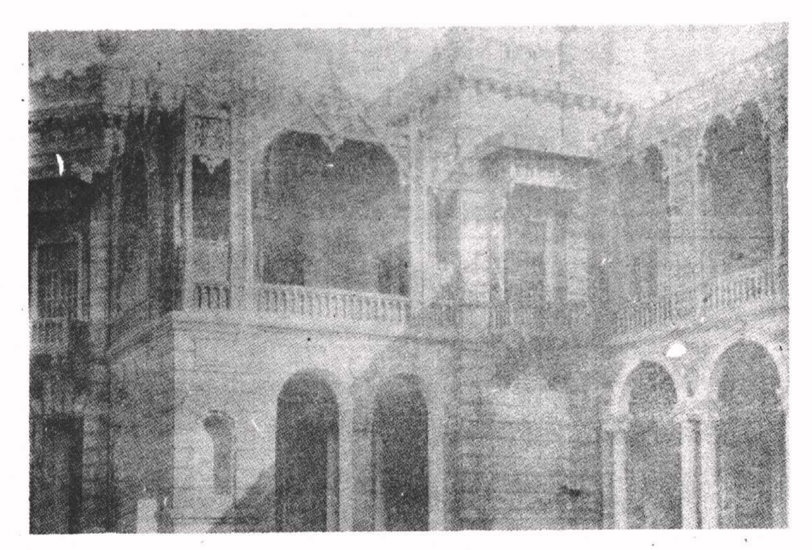
بنك مصر



١١ ـ دار الكتب الملكية ـ القاهرة



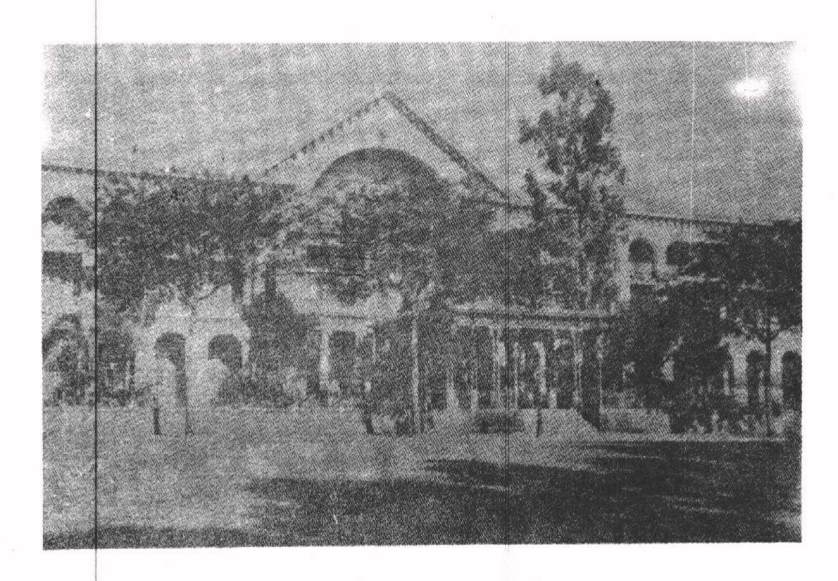
١٠ ـ دار الآثار العربية ـ القاهرة



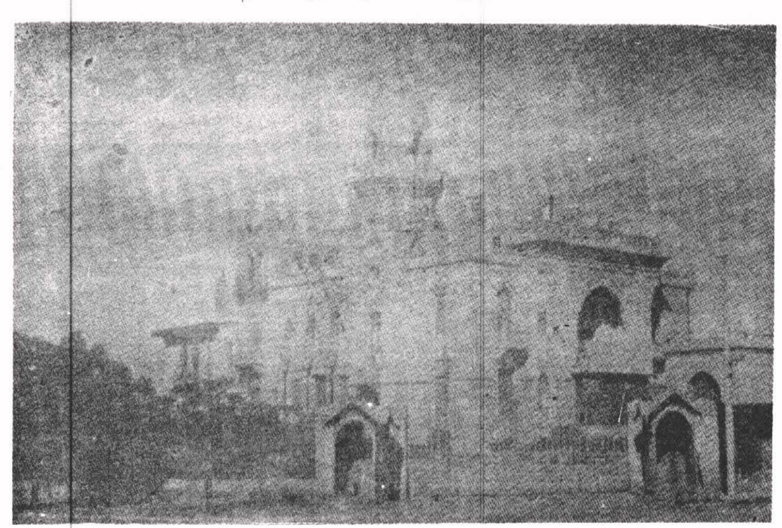
متحف الجيزة (قصر سعيد باشا) ١٩٠٢



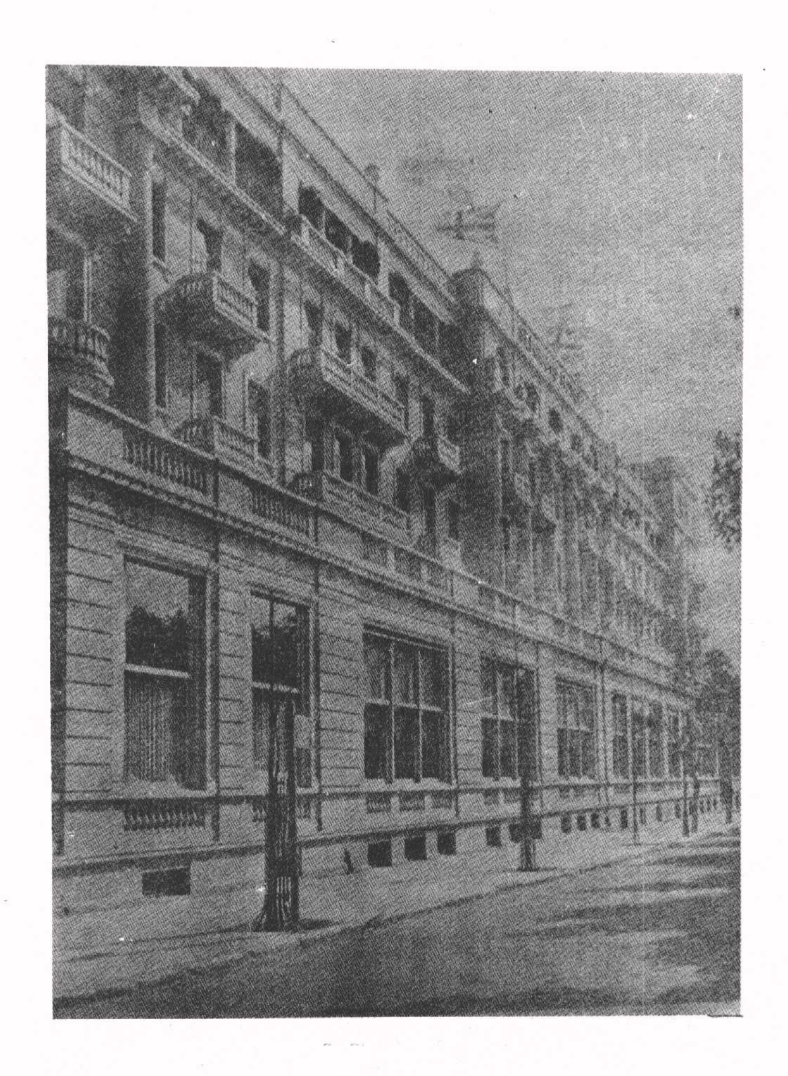
٣٤ ــ فيلا راغب بدر باشا ــ بالجيزة



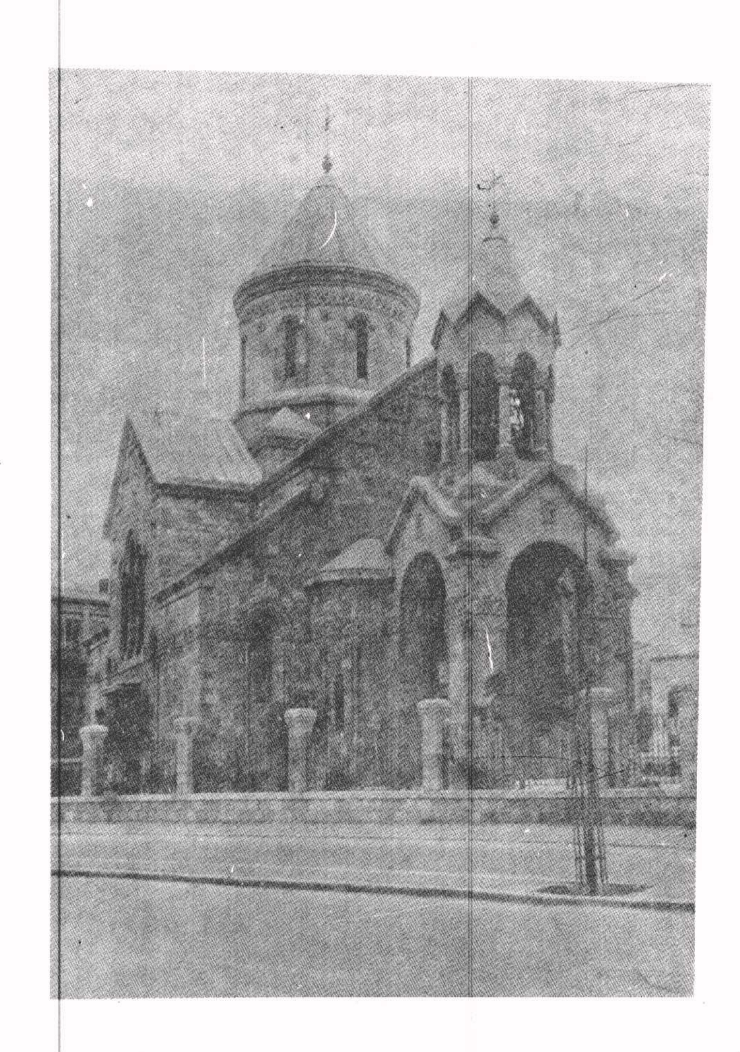
واجهة فندق « جراند أتيل » القديم



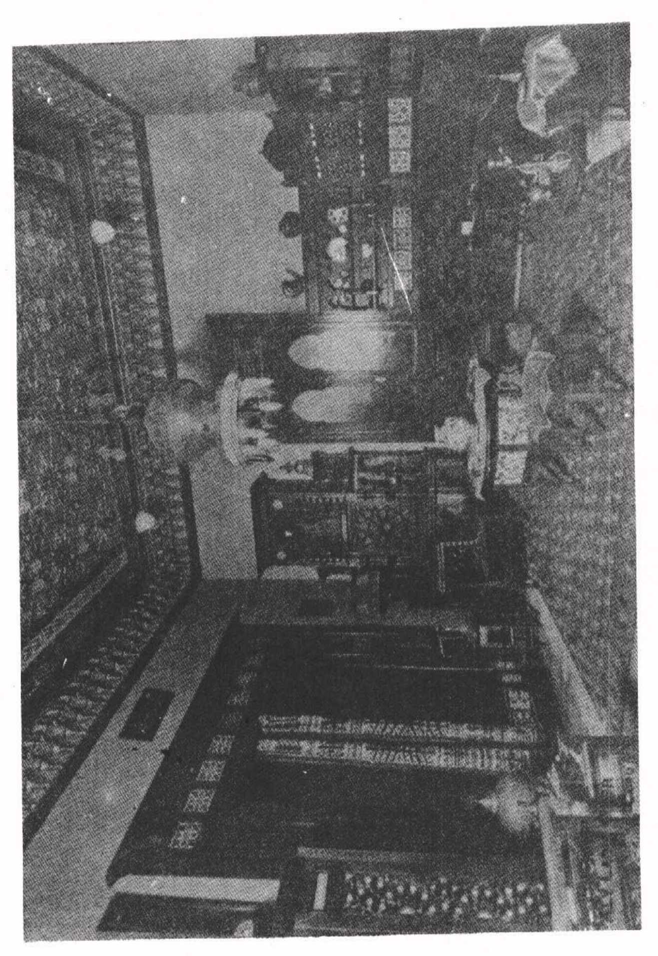
واجهة قصر السلطان حسين بمصر الجديده



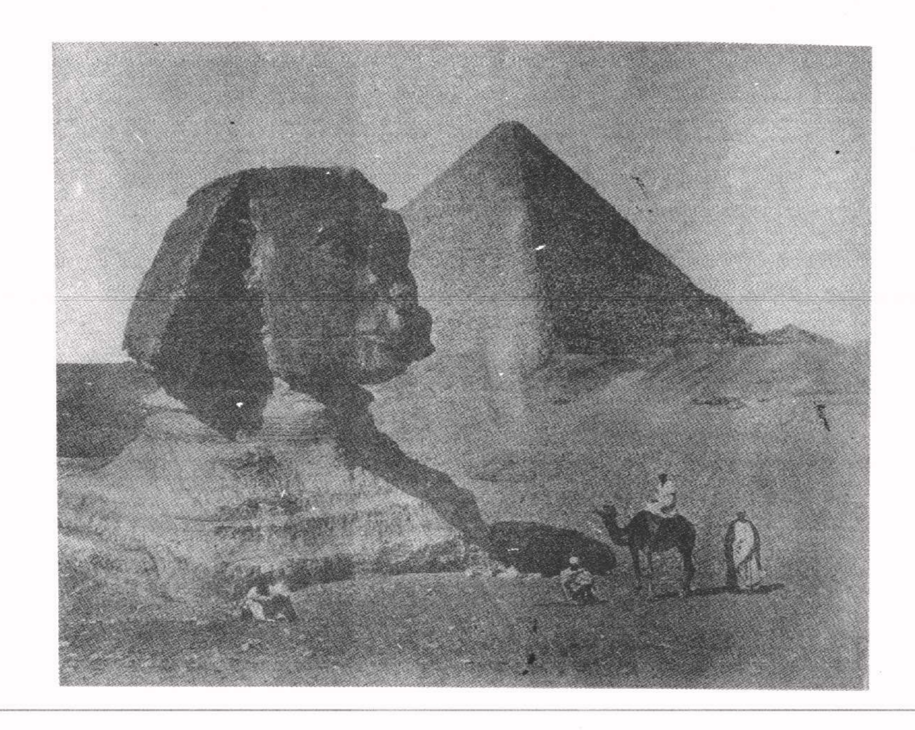
٣ ــ لوكاندة سميراميس على النيل ــ القاهرة



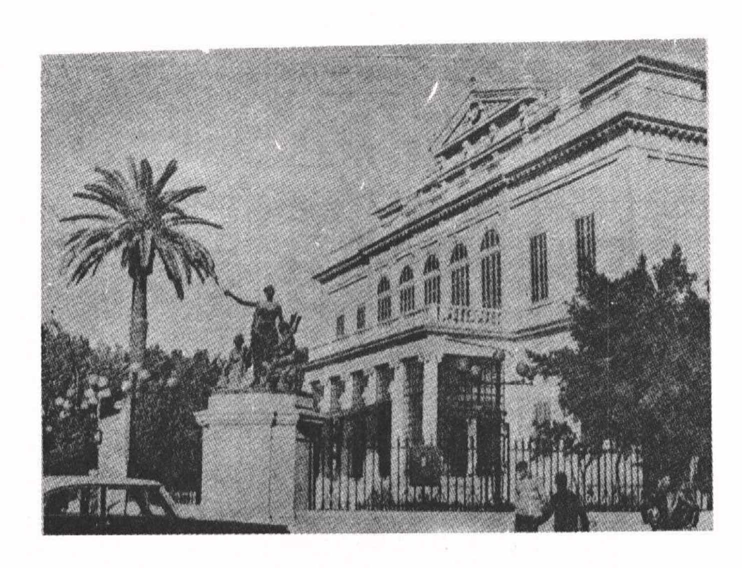
٢٦ ـــ كنيسة الأرمن الأرثوذكى ـــ القاهرة



٣٢ ـ فيلا محيب فتحى بك ـ صالون عربى



أبو الهول وهرم خوفو ١٨٥٦

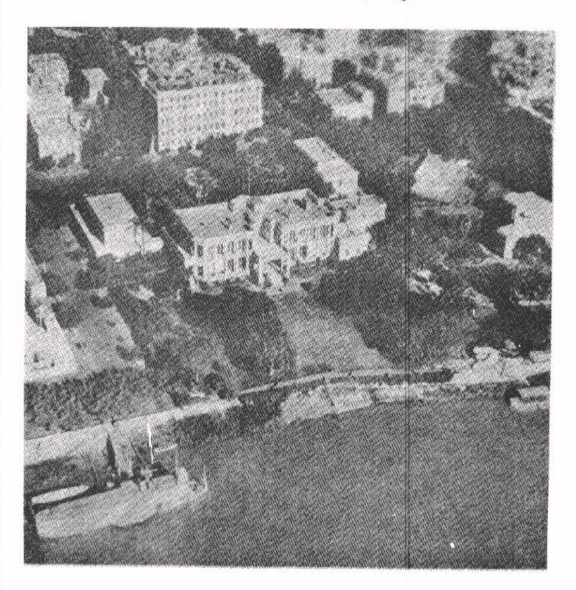


دار الاوبرا الملكية

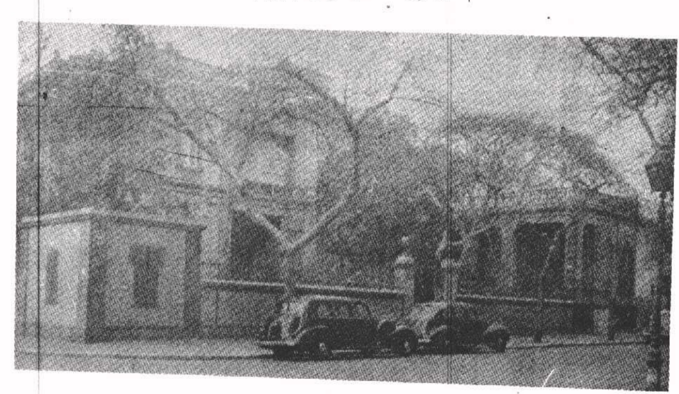


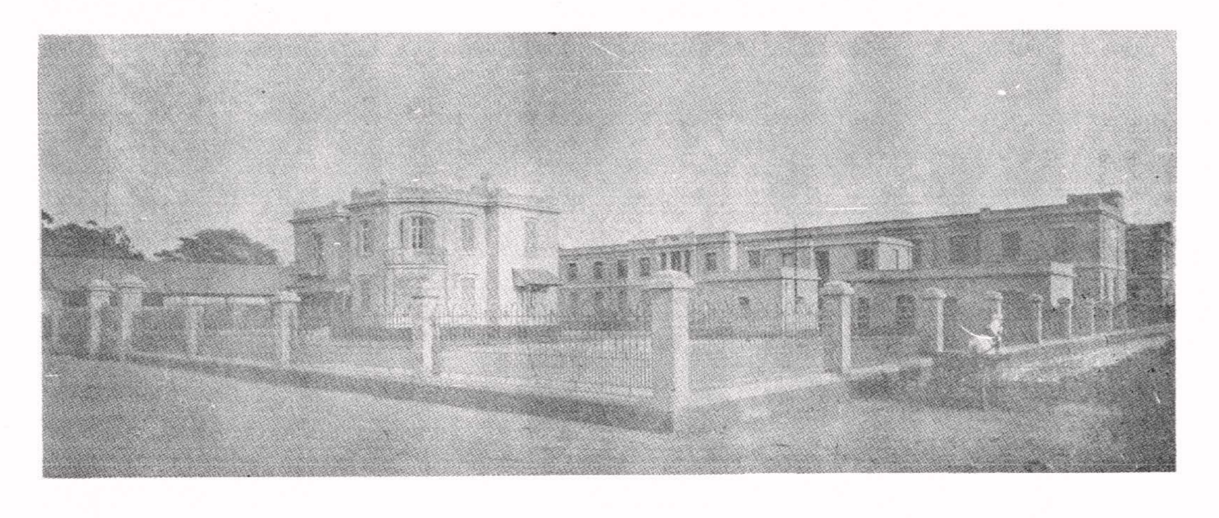
المبنى الرئيسى لهيئة البريد بالعتبة ١٩١٢

مقر المندوب السامى البريطانى
إبان عهد الاحتلال ثم تحولت بعد
ثورة يوليو إلى مقر للسفاره
البريطانية ١٩٢٢

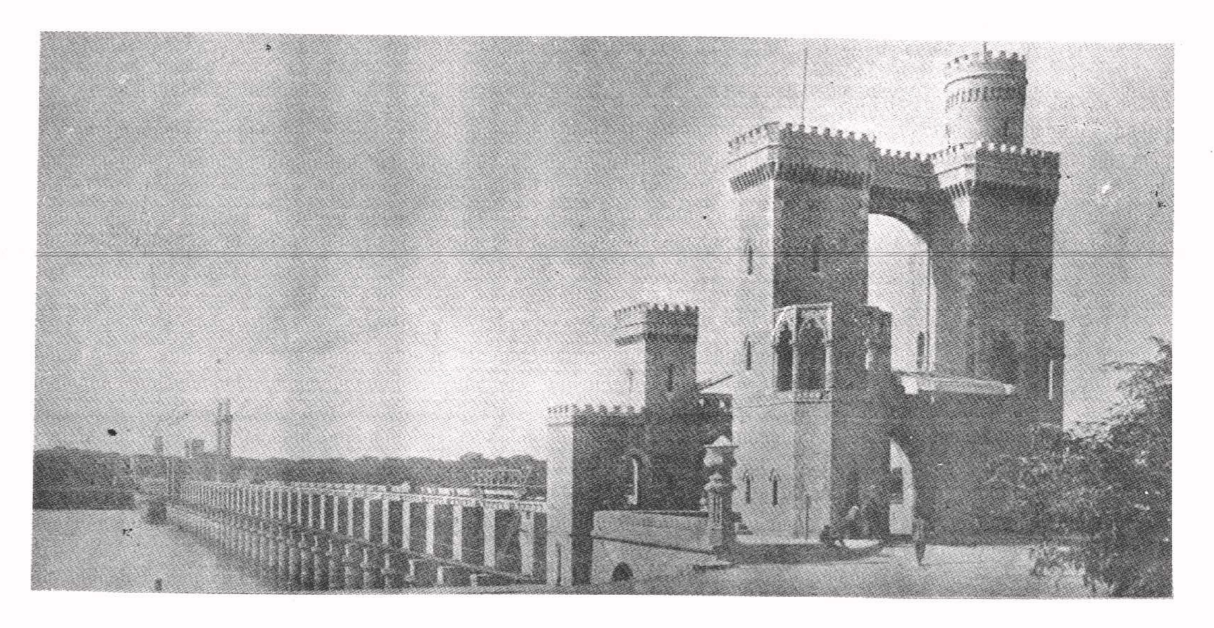


بيت الأمة مقر إقامة سعد زغلول
ثم تحول إلى متحف الأمة ١٩٢٢

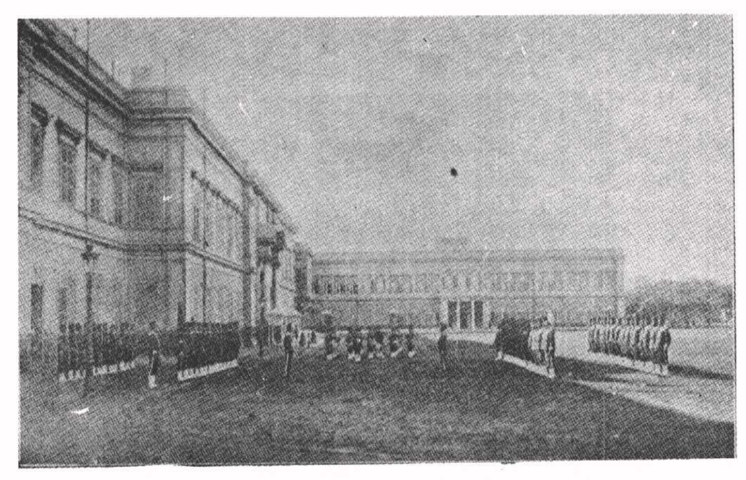




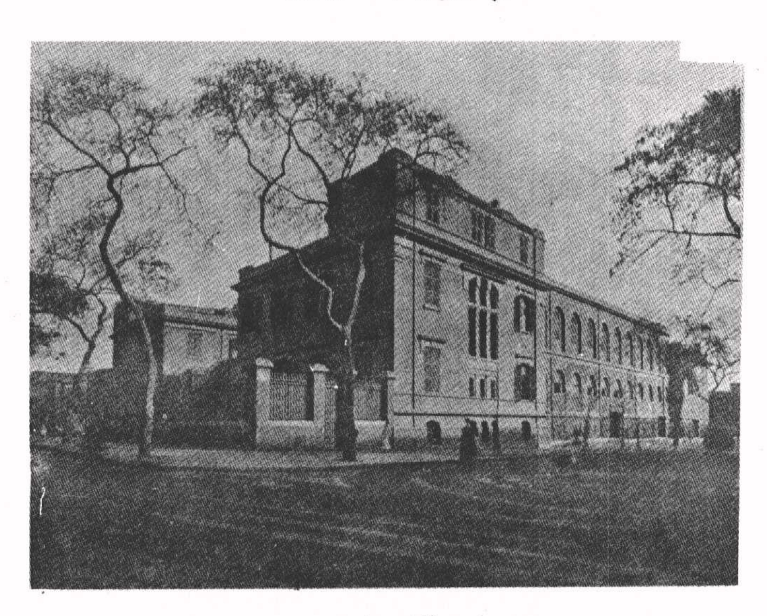
قصر القبة سنة ١٨٩٢



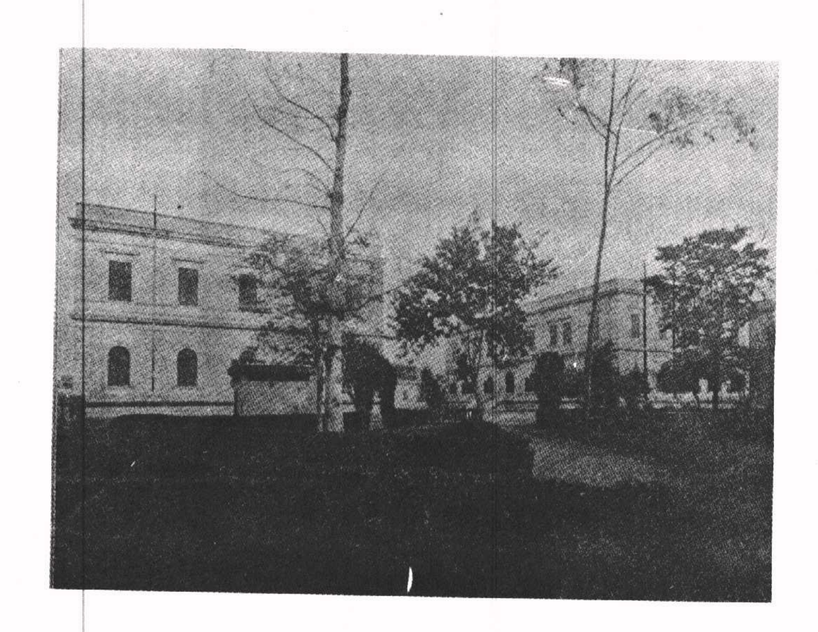
القناطر الخيرية ١٨٩٤



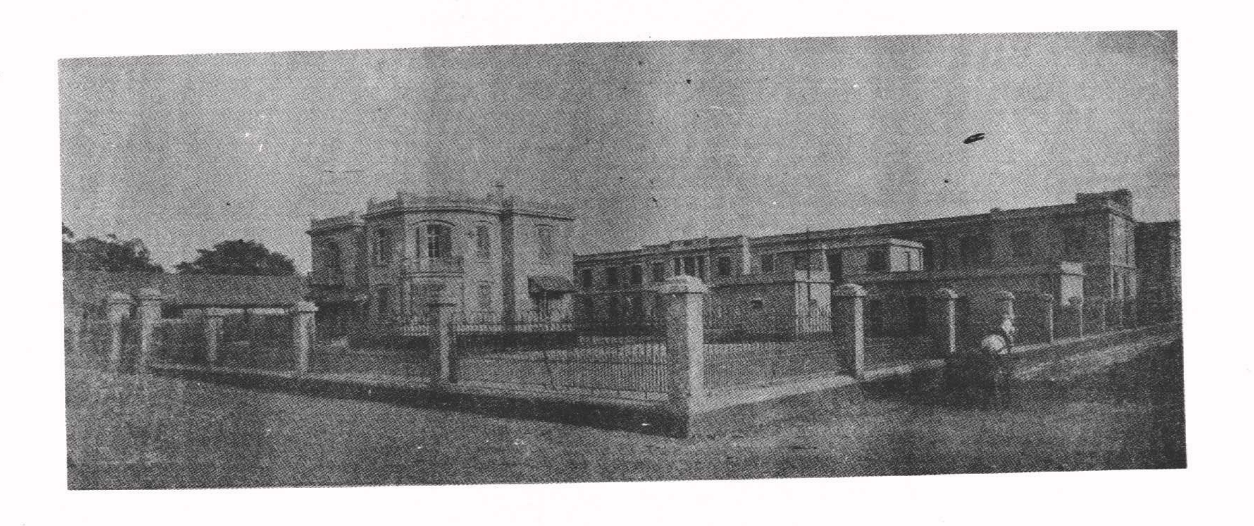
قصر عابدين فى عهد الخديو توفيق



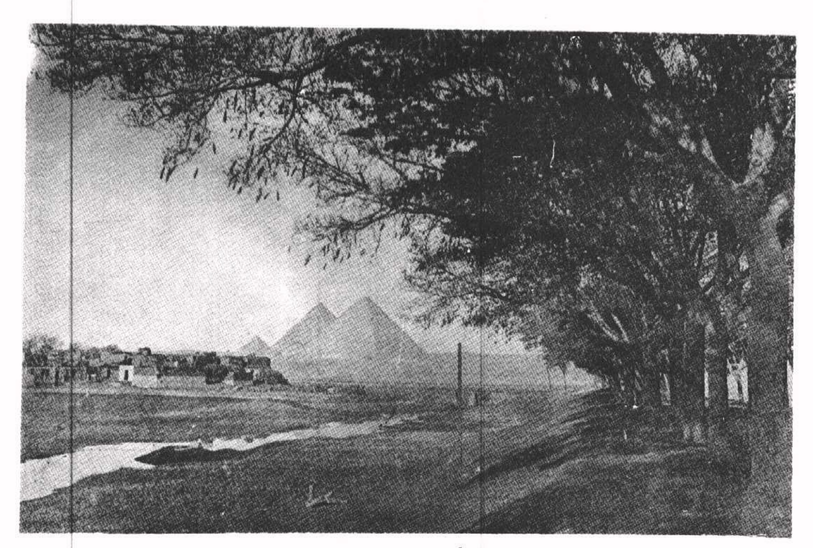
مدرسة (كلية) الحقوق ١٩٠٨



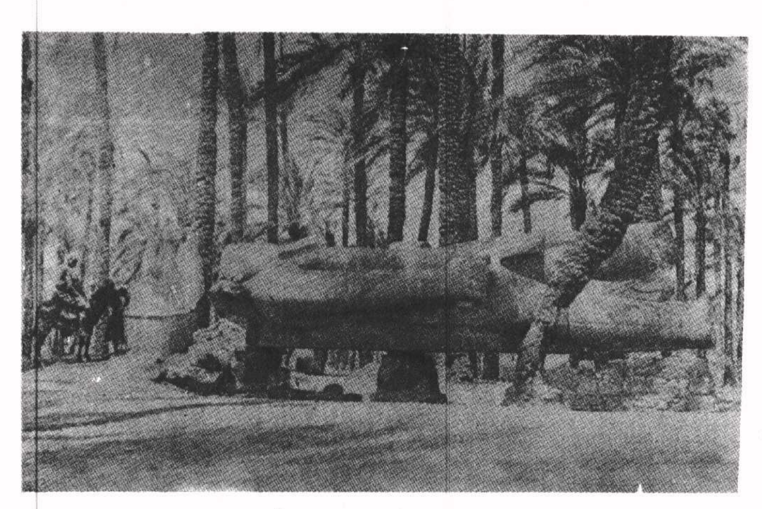
مدرسة (كلية) الطب ١٩٠٨



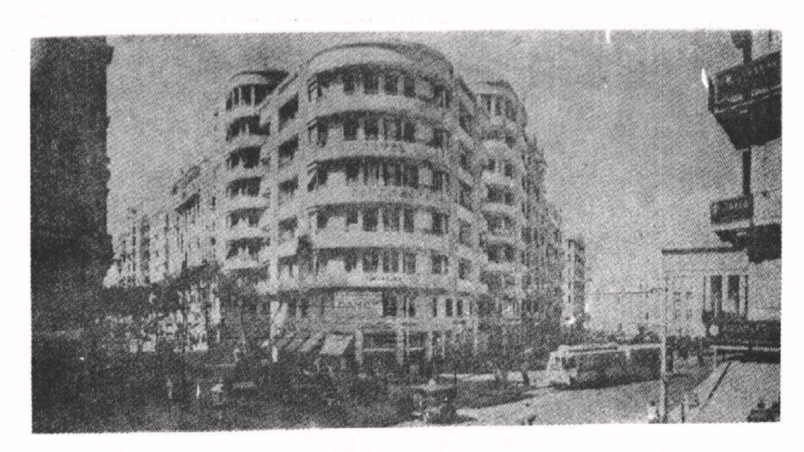
مدرسة السعيدية بشارع الجامعة ـ الجيزة



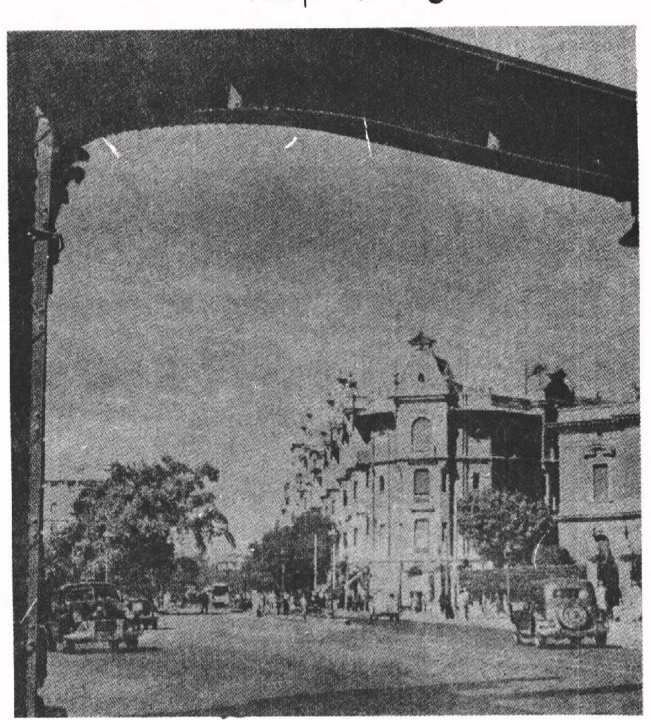
طريق الأهرام عام ١٨٧٠



صوره نادرة لتمثال رمسيس الثانى عام ١٩٠٧ ، قبل أن يحاط بمتحف خاص
به فى نفس الموقع بالبدرشين .



شارع سليمان باشا عام ١٩٢٤



مدخل الزمالك من نهاية كوبرى أبو العلا عام ١٩٣٧

الفهرس

رقم الايداع : ٢١٣٣ــ ١٩٩٠
ترقيم دولى : ٤ــ ١٦٠ــ ١٣٣ــ ٩٧٧

طبع بالمطبعة الفنية ت: ٣٩١١٨٦٢